

كتب عسكرية قديمة ونادرة

حرق النار يفتح الجحش

(دراسة في فن الاستراتيجية)

ب. ه. ليدل هارت

الطبعة الأولى ١٩٣١

وزارة الحربية والبحرية

الجيش المصرى

حَرْفُ الْبَلَدِ الْحَاسِمِ

دراسة فى فن الاستراتيجية

لـ

ب . هـ . ليدل هارت

تـ

اليوزباشى أحمد حموده

عزب بأمر وزارة الحربية والبحرية

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٣١

المقدمة

الباب الأول من هذا الكتاب هو، بمعنى عام، عبارة عن المقدمة التي تعبر عما يرمى إليه، وما يتناوله من البحث، وما يحتويه من الموضوعات. وهذه كلها برزت بطريقة أكثر تدرجا وأقل مراعاة للترتيب مما يتبع عادة في وضع الكتب. وبما أن الفكرة الرئيسية هي محاولة استخراج خلاصة ما قرأه الانسان وأجال فيه النظر في عدة من السنين، فإن البيان التاريخي المستخرج منها هو ما يخص محصول المذكرات المأخوذة أثناء دراسة كل حرب من الحروب، موضوعا في قالب مقتضب. ولقد كان الأسهل وضع هذه المذكرات في نسج من البيان أكثر اسهابا مما في هذا الكتاب، غير أنه لما كان القصد ألا تحول كثافة "الأشجار" دون رؤية "الغابة" فقد اقتضى الحال شذّب الوقائع غير الجوهرية شذبا دقيقا. فاذا ظهر أن الأغصان قد تجردت من الأوراق لدرجة لا يسوغ مذاقها لدى بعض القراء فاني أطلب منهم العفو لأن هذا الكتاب وضع بنية أن يكون للطالب المتخصص دليل الدراسة التاريخية أكثر منه مختصرا تاريخيا.

واني أنتهز، أيضا، فرصة هذه المقدمة "الأولية" لأجعلها موضع اعترافى بما أسداه لى من الجميل الذين تفضلوا بقراءة التجربة الأولى في أطوارها المتعددة ونقدها قبل الطبع. ثم أؤدى ماعلى من واجب الشكر لأصدقائى قادة اللواءات (البريجاديرية) : I. G. Dill و B. D. Fisher و I. F. C. Fuller و H. Karlake والكلونيل The Viscount Gort والمستر G. E. Hawke و T. E. S نظير ما أبدوه من الملاحظات والاقتراحات المفيدة.

(المؤلف)

11

مقدمة ١٠٨

الباب الحادى عشر — الخطط ونتائجها فى المسرح الغربى سنة ١٩١٤ ١٠٩

» الثانى عشر — المسرح الشمالى الشرقى ١٢٠

» الثالث عشر — المسرح الجنوبى الشرقى أى مسرح البحر الأبيض المتوسط ١٣٠

» الرابع عشر — الاستراتيجية فى سنة ١٩١٨ ١٤٢

كشف الخرائط

صفحة

١٤	—	مقابل	بلاد اليونان العتيقة
٢٩	—	»	القسم الشرق من البحر الأبيض المتوسط
٤٤	—	»	انجلترا والأراضي المنخفضة
٧٩	—	»	اسبانيا والبرتغال
٩١	—	»	الولايات المتحدة
٩٩	—	»	أوربا الوسطى
١١٧	—	»	المسرح الغربي سنة ١٩١٤
١٥٣	—	»	الجهة الغربية سنة ١٩١٨

المبحث الأول

الباب الأول

التاريخ بصفته تجارب عملية

” يقول الحق من الناس انهم يتعلمون بالتجارب . أما أنا فأفضل أن أتعلم من تجارب غيري “ . هذا القول المشهور المعزى الى ”بسمارك“ وان لم يكن هو مبتكره ، له أثر خاص في المسائل الحربية . فلقد قيل وأعيد القول ان الجندى ، بخلاف أرباب المهن الأخرى ، ليس لديه من الفرص التي تمكنه من ممارسة مهنته الا ما ندر . بل وقد يزداد على ذلك قولهم ان مهنة الجندى ، اذا روعى المعنى المفهوم من كلمة مهنة ، ليست مهنة مطلقا بل هي مجرد ” استخدام عرضي “ . ومن الألفاظ أنها بطلت أن تكون مهنة في الوقت الذي حل فيه ” الجندى المحترف “ محل الجندى المغامر -- حينما استعاض عن الجنود الذين كانوا يستخدمون بأجر مدة الحرب ، بجيوش مستديمة تتقاضى رواتبها حتى في غير أيام الحرب .

وهذا الجدل المنطقي وان كان فيه شيء من التطرف ، يعيد الى الذاكرة العذر الذي كانوا يحتجون به مرارا في الأيام السالفة في اعطاء الضباط مرتبات لا نفى بمحاجاتهم . كما كان يحتاج به بعض الضباط في تأدية عملهم اليومي ناقصا عن المعتاد -- بحجة أن مرتب الضابط ليس أجرا لعمل انما هو أجر ” ارتباط “ حتى ينتفع بخدمته في حالة الحرب .

واذا كان الزعم -- بأن ” مهنة الجندية “ لا وجود لها بالمعنى الصحيح -- لا يحد ما يؤيده في أيامنا هذه من وجهة الأعمال الا أنه من وجهة الممارسة يجد تأييدا قويا لا مفر منه ، في ندورة الحروب . وعلى ذلك فهل نستنتج منه أن الجيوش صائرة تدريجيا الى أن تصبح جيوش ” هواة “ بالمعنى الدارج البغيض لهذه الكلمة التي أسئ استعمالها ؟ لأن المشاهد ان تدريب زمن السلم حتى أحسنه لا يخرج عن كونه ” نظريا “ أكثر منه ممارسة ” عملية “ .

على أن القول الحكيم الذي قاله ”بسمارك“ يلقى على هذه المسألة ضوءا مغايرا لذلك فيه تشجيع . اذ يساعدنا على ادراك أن هناك صورتين للممارسة العملية احدهما مباشرة والأخرى غير مباشرة . وأن الممارسة العملية غير المباشرة قد تكون أعظم قيمة من الأخرى لاتساع نطاقها اتساعا لا حد له . لأن في الحياة العملية حتى أكثرها نشاطا ، وعلى الخصوص حياة

الجندي ، تكون دائرة الممارسة المباشرة وما يتخللها من الاحتمالات محدودة الى درجة متناهية . وعلى تقيض مهنة الجندي مهنة الطب فان هذه لديها من الممارسة ما لا ينقطع سبله ، ومع ذلك فان جلائل الأعمال كان الفضل في ظهورها يرجع عادة الى من يعملون في البحث والاستقصاء لا الى الأطباء الممارسين الذين يتعاطون مهنتهم بوجه عام .

ثم ان الممارسة المباشرة محدودة بطبيعتها الى درجة يتعذر معها تكوين أساس ثابت تنبى عليه النظريات أو يقوم عليه تطبيقها . فهي في أحسن حالاتها توجد جوا صالحا له قيمته في ترسيخ بناء أفكارنا وتقويته . أما قيمة الممارسة غير المباشرة ، التي هي أعظم من تلك ، فهي فيما تتناوله من التغير واتساع النطاق اذ هما في هذه أعظم مما في تلك . ” والتاريخ هو تجارب عامة “ — أى تجارب الغير الكثيرين في ظروف متنوعة ، لا تجارب فرد واحد .

وهنا نجد مبررا معقولا للتاريخ الحربي من حيث قيمته التي لا تعادلها قيمة أخرى في تدريب الجندي وتوسيع مداركه . على أن الاستفادة تتوقف ، كما في كل أنواع التجارب ، على درجة اتساعها ، وقربها من التعريف المار بيانه ، وعلى طريقة الدراسة .

ثم ان رجال الجندي يسمون بالاجماع بما في القول المأثور عن نابليون من الحقيقة وهو أن في الحروب ” نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد “ . فالنسبة الحسابية قد تكون عديمة القيمة لان القوة المعنوية عرضة للتدهور اذا كانت الأسلحة ليست على ما يرام . كما أن قوة الارادة مهما سمت لا تجدى نفعا وهي في جثة هامدة . غير أنه ولو أن العاملين الأدبي والمادى متلازمان لا ينفصلان فان هذا القول المأثور تبقى له قيمته الأبدية لأنه يعبر عن فكرة تفوق العوامل الأدبية في كل القرارات الحربية . لأن العوامل الأدبية هي المحور الذي تدور عليه نتيجة الحرب بأجمعها ونتيجة المعركة . والعوامل الأدبية في التاريخ هي العوامل الثابتة دون غيرها ، ولا تتغير الا في درجتها . في حين أن العوامل المادية تختلف اختلافا أساسيا في كل حرب وفي كل موقف بوجه التقريب .

وإدراك ذلك يؤثر على المسألة بأجمعها الخاصة بدراسة التاريخ الحربي للانتفاع به عمليا . وقد كانت طريقة الدراسة في بضع الأجيال الماضية تتطوى على اختيار حملة حربية أو حملتين ودراستهما دراسة متعمقة كوسيلة لترقية مداركها والتوسع في نظرية الحرب . على أن التغير المستمر الذي طرأ على وسائل الحروب من حرب الى أخرى فيه خطر جسيم بل محقق يفضي الى تضيق دائرة آمالنا ويجعل ما تتلقاه من الدروس قائما على قياس باطل . فالعامل الوحيد الثابت في دائرة المساديات هو أن الوسائل والظروف لا ثبات لها بل تتغير دائما .

وعلى العكس من ذلك فان الطبيعة البشرية لا تتغير الا شيئا يسيرا من وقع الأخطار عليها . فقد يكون بعض الناس أقل احساسا من غيرهم بطبيعة أجناسهم ، أو بفعل المحيط الذي يعيشون فيه ، أو بما يتلقونه من التعليم والتدريب . على أن الفرق بينهم ان هو الا في الدرجة

وليس فرقا أساسيا . وكلما انحصرت دائرة الموقف ودائرة دراستنا زادت حيرة العقل وأصبحت درجة الفرق لا تقاس . وقد تحول دون حساب مقدار المقاومة التي تبديها الجنود في أى موقف . ولكنها لا تؤثر على الحكم بأنهم يبدون مقاومة في حالة مفاجأتهم أقل من المقاومة التي يبدونها وهم متيقظون — ويقاومون وهم متعبون وجياع أقل مما يقاومون وهم مستريحون ولا ينقصهم الغذاء الجيد . فكلما اتسعت دائرة دراسة علم النفس حسن أساس الاستنتاج .

وتفوق النفسية على الطبيعة الجثمانية وكون الأولى أكثر ثباتا من الثانية يؤديات الى استنتاج ان أساس أية نظرية عن الحرب يستلزم أن يكون متسعا ما أمكن . فدراسة حملة حربية واحدة دراسة عميقة ، ما لم تكن مؤسسة على علم واسع بكل تاريخ الحرب ، قد تؤدي بنا الى مواطن الزلل ، كما أنها قد تؤدي الى ذروة المغامرات الحربية . ولكن اذا شوهد أن نتيجة بعينها تتبع سببا بعينه في عشرينات من الحالات في أزمنة مختلفة في ظروف شتى ، اذن لكان هناك مبرر يبرر اعتبار أن ذلك السبب هو جزء متمم لأية نظرية في الحرب .

فهذا الكتاب ، كالموضوع الذي يبحث فيه ، عبارة عن محصول ذلك التنقيب ” الواسع “ ويصح تسميته النتيجة المركبة لأسباب معينة — وهذه الأسباب لها صلة بعمل كحربى في ” دائرة المعارف البريطانية “ . فمع أنى قد بحثت وتقتب فيها مضى في مختلف عصور التاريخ ، وكثيرا ما كان ذلك رغم ميولى . ثم ان المساح الذى يسمح الأراضى ويشرف عليها ، بل والسائح الذى يحوب البلاد يكون بطبيعة الحال ملما بصورتها المنظورة أكثر من غيره وفى استطاعته أن يعرف أوضاعها العامة على أقل تقدير فى حين أن مهندس المناجم لا يعرف الا الطبقة الأرضية التى يبحث عنها .

ففى أثناء هذا الاطلاع العام تكونت فكرة أخذت ترداد ثبوتا على مدى البحث — تلك هى أنه فى كل العصور لم يتوصل الى النتائج الحاسمة فى الحروب الا متى كان الاقتراب الاستراتيجى اقترابا غير مباشر . وبعبارة أخرى انه فيما يختص بالاستراتيجية كلما كان الطريق طويلا ملتويا كان الوصول الى الغرض أقرب .

وقد أثبت الواقع المرة بعد المرة أن الاقتراب المباشر سواء أكان من غرض على يقصده الانسان بتفكيره ، أم من غرض مادى بأن يحصل الاقتراب على طول ” خط الانتظار الطبيعى “ من وجهة نظر الخصم (أى الخط الذى يتوقع الخصم أن يتبعه المقترب) . كان من شأنه أن يؤدي ، بل وقد أدى فعلا ، الى نتائج سلبية . والسبب فى ذلك قد عبر عنه نابليون بصورة واضحة فى قوله المأثور ” ان نسبة القوة المعنوية الى القوة المادية كنسبة ثلاثة الى واحد “ . وقد يعبر عنه بطريقة علمية بأن يقال بينما ان قوة أى بلاد معادية تحصر مظاهرها

في عدد سكان هذه البلاد وفي مواردها الا أن عدد السكان والموارد يتوقفان بصفة أساسية على درجة استقرار أى "توازن" السيطرة ، والقوة الأدبية ، وكفاية المؤن واللوازم . فسكان البلاد ، والموارد ليست الا بمثابة اللحم الذى يكسو الهيكل العظمى والأعصاب .

فان التحرك على طول الخط المنتظر بطبيعة الحال ، أى على طول خط الانتظار الطبيعي معناه توطيد توازن الخصم ، واعطاء هذا التوازن صلابة معناه زيادة قوة مقاومته . ففي الحرب ، كما في المصارعة ، محاولة المراء القاء خصمه على الأرض قبل زحزة مواطئ قدميه واخلال توازنه لا تؤدي الا الى انهك قوة المراء بنسبة عكسية لما يحدثه على الخصم من التأثير . وازار النصر يمثل هذه الطريقة لا يتيسر الا اذا كان المراء متفوقا في القوة بدرجة كبيرة جدا في أى صورة من صورها (أى القوة) . وحتى حينذاك يبقى النصر عرضة لتلا يكون حاسما . وعلى العكس من ذلك فان مراجعة التاريخ الحربى ، لا في فترة واحدة من فتراته بل مراجعته بأجمعه تدل على أن الواقع هو أن في كل حملة من الحملات الحربية الحاسمة كانت زحزة توازن العدو من الوجهتين النفسية والمادية هي المقدمة الحيوية للمحاولة الناجحة في التغلب عليه . وأن هذه الزحزة قد حصلت كنتيجة لاقترب استراتيجى غير مباشر ، مة صودا كان أو عرضيا . وهي قد تكون على أشكال متنوعة كما يظهر من تحليلاتنا . لأن استراتيجية الاقتراب غير المباشر تشمل — ولكنها أوسع من " المناورة على المؤخرة " *Manoeuvre sur les derriere* التى دلت الأبحاث المستفيضة التى قام بها الجنرال " كامون " على أنها كانت مطمح أنظار نابليون دائما ومفتاح طريقته في ادارة العمليات . ففى حين أن أبحاث " كامون " قامت على مبادئ التحركات اللوجستكية (نسبة الى طريقة حسابية خاصة تسمى طريقة القياس الستينى) — عواملها الزمان ، والمسافة ، والمواصلات — فان تحليلاتنا ترمى الى التعمق في البحث وراء الأسس التى يقوم عليها علم النفس . وهي بذلك تجد علاقة أساسية بين كثير من العمليات الاستراتيجية التى لا تشبه في ظواهرها " المناورة على المؤخرة " في شىء . ولكنها بالرغم من ذلك أمثلة حيوية قطعية " لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر " .

واستقصاء هذه العلاقة وتحديد نوع العمليات لا يستلزم ، بل ولا يدخل في موضوعه وضع جداول تبين القوى العددية ، وتفصيلات التموين باللوازم ووسائل النقل . فان كل ما يهنا انما هو بيان النتائج التاريخية في ساسلة شاملة من الحالات . ومعها التحركات التى أدت اليها سواء منها القائم على الحساب (القياس اللوجستيكى) أو على دراسة علم النفس .

فاذا تبين أن النتائج المتشابهة تأتى على أثر التحركات المتشابهة في ظروف وأحوال تختلف اختلافا كبيرا في نوعها ونطاقها وتاريخها . فمن الجلى اذ ذاك أن هناك اتصالا أساسيا بينها نستطيع منه بحكم المنطق أن نستنتج سببا مشتركا بينها . وكلما زادت الظروف اختلافا كلما تأكد الاستنتاج .

على أن قيمة الغرض المقصود من سعة الاطلاع على شؤون الحرب لا تنتهى عند البحث عن عقيدة حقيقية جديدة . واذا كانت سعة الاطلاع أساسا جوهريا لكل نظرية تتعلق بالحرب ، فهي ضرورية أيضا للطالب الحربى العادى الذى يبحث عن توسيع دائرة آماله ومقدرته على الحكم فى الأمور . وبخلاف ذلك فان معرفته تكون أشبه بهرم منعكس قائم على قته الدقيقة فيبقى مترعزع التوازن . فالطالب فى جامعة لا يصل الى أبحاث الطالب المتخرج الا بعد أن يلم الماسما عاما بعلم التاريخ بصفته طالبا فى مدرسة ابتدائية ، وبعد ذلك يتوسع فى معلوماته بصفته طالبا تحت التخرج بدراسة المظاهر الدستورية والاقتصادية ، ثم دراسة تواريخ أزمان خاصة . ومع ذلك فان الطالب الحربى الذى يأتى عادة الى موضوع دراسته متأخرا بعد أن يصبح عقله أقل مرونة مما كان فى عهد الشباب ينتظر منه أن يبدأ الدراسة فى نقطة تعادل أبحاث خريج الجامعة . فهذا الموقف الغريب ونتائجه فى بعض الأحيان مما يعيدان الى الذاكرة تلك الأسطر الشعرية الواردة فى قصة "أليس فى أرض العجائب" .

وهاك تعريبها على وجه التقريب :

"صاح الشاب قائلا : أيها الأب "ولم" لقد صرت شيخا وشعرك قد أضاءه المشيب فصار ناصع البياض ومع ذلك فانك تقف دائما على رأسك فهل تظن أنك مصيب فى ذلك وأنت فى هذه السن ؟ "

الباب الثاني

حروب الاغريق

ايبامينونداس ، وفيليب ، والاسكندر

النقطة التي تصلح أكثر من غيرها بطبيعة الحال لبدء البحث والتقيب هي أول "حرب عظمى" في التاريخ الأوربي ، وهي "الحرب الفارسية العظمى" . وليس لنا أن نتوقع كثيرا من الارشاد في عصر كانت فيه الاستراتيجية في طفولتها ولكن اسم "ماراثون" قد نقش على أذهان ومخيلات قراء التاريخ نقشا عميقا لا يتسنى معه اغفال هذا الاسم . وكان نقشه على محيلة الاغريق أعمق ومن ثم تغالوا في أهميتها . وعنهم أخذ الأوربيون وتداولوها في الأعصر اللاحقة . ومع ذلك فإن انقاص أهميتها الى درجة أقرب الى الانصاف يزيد من قيمتها الاستراتيجية . فإن غزو الفرس في سنة ٤٩٠ ق.م كان عبارة عن تجريدة صغيرة نسبيا وكان القصد منها القاء درس على كل من "ايرتريا" و "أثينا" ، وهما ولايتان صغيرتان في نظر "داريوس" (دارا ملك الفرس) وفي الحقيقة . وهذا الدرس هو ألا يتداخلا فيما لا يعنيهما وأن يكفيا عن تشجيع العصيان بين رعية الفرس من اغريق آسيا الصغرى .

فدمرت "ايرتريا" على الوجه المرغوب وأبعد سكانها للتوطن على الخليج الفارسي . وبعد ذلك جاء دور "أثينا" حيث كان معلوما أن الحزب الديمقراطي المتطرف يترث ليساعد تدخل الفرس ضد حزب المحافظين ثم ان الفرس بدلا من أن يزحفوا رأسا على "أثينا" أنزلوا جنودهم الى البر في "ماراثون" التي تقع على مسافة ٢٤ ميلا شمالي شرق "أثينا" . ومن ثم كان في استطاعتهم أن يعولوا على استدراج الجيش الأثيني نحوهم وبذا يسملون لأتباعهم القبض على مراكز القوة في "أثينا" . في حين أن الهجوم المباشر على المدينة كان لا بد أن يعيق هذه الثورة . بل وربما كان يتسبب عنه انضمام الثائرين الى أعدائهم فيواجهون مشقة اقامة الحصار علاوة على مشقة القتال على أية حال .

وقد نفعت هذه الحيلة وخرج الجيش الأثيني قاصدا "ماراثون" لملاقاة الكتلة الرئيسية من قوات عدوهم المسلحة . وهذا يطابق العقيدة الحربية الحديثة تمام المطابقة . على أنه لسوء حظ الفرس كان شعور بعض أتباعهم الديمقراطيين الموجودين "بأثينا" قد تغير . ولكنهم بالرغم من ذلك شرعوا في تنفيذ الخطوة التالية من خطتهم الاستراتيجية . فأعادوا اركاب بقية جيشهم السفن تحت حماية قوة سائرة ، ليحولوه الى "فاليروم" وهناك ينزلونه الى البر ثم يثبون على أثينا وهي مجردة من الحراسة .

على أن "الأثينيين" بفضل ما بذله "مليادس" من الهمة رأوا أن يتهمزوا الفرصة الوحيدة التي أمامهم بمهاجمة القوة الساترة في الحال . فنشبت المعركة بين الفريقين وكان لتفوق أسلحة الاغريق ودروعهم — وكانوا يمتازون بهما دائماً على الفرس — مع تكتيكاتهم الحديثة الفضل في انالتهم النصر . ولو أن القتال كان أشد مما ترويه أساطيرهم الوطنية . وأن معظم القوة الساترة قد رجعت بسلام الى السفن . ثم ان "الأثينيين" أظهروا همة فوق تلك الهمة وأسرعوا بسير مضاد لسير الفرس راجعين الى المدينة . وكان الفضل في نجاحهم راجعاً الى هذه السرعة وتباطؤ الحزب المنشق عليهم . لأن الفرس بقوا وقتاً طويلاً أكثر مما يلزم متظرين ظهور اشارة الترس المتفق عليها . ولكن لما عاد الجيش الأثيني الى "أثينا" ورأى الفرس أن لا بد من محاصرتها أفلعوا بسفنهم عائدين الى قارة آسيا لأن الغرض التأديبي المحض لا يستحق الشراء بثمن باهظ .

وانقضت بعد ذلك عشر سنين قبل أن يحاول الفرس محاولة جديدة لالقاء هذا الدرس مرة أخرى والتشدد فيه . غير أن الاغريق تباطأوا في الاعتاض بهذا النذير ولم تشرع "أثينا" في توسيع أسطولها البحري الا في سنة ٤٨٧ ق.م. ذلك الأسطول الذي كان مقدراً له أن يكون القوة الحاسمة في الحملة المقبلة . وعلى ذلك فيمكن القول بحق أن كلا من بلاد اليونان وأوربا قد نجتا بسبب وقوع العصيان في مصر فانه شغل بال الفرس من سنة ٤٨٦ الى سنة ٤٨٤ ق.م. ووفاة "داريوس" الذي كان فذاً في قدرته بين ملوك الفرس .

ولما ازداد التهديد وتطور في سنة ٤٨١ وكان هذه المرة في نطاق واسع وكانت جسامته سبباً لا في ائتلاف الأحزاب والولايات الاغريقية وتألبها على الفرس فحسب ، ولكنه اضطر الملك "أكورسيس" لأن يقترب من غرضه اقتراباً مباشراً . لأن عظم جيشه حال دون نقله بطريق البحر ولذلك اضطر لسلوك طريق البر ، كما كانت كثرته تحول دون تموينه نفسه فاستخدم الأسطول لتموينه . فكان الجيش ملازماً للسواحل بحكم الضرورة وكان الأسطول ملازماً للجيش — أي ان كلا الجيش والبحرية كانت مقيدة . وعلى ذلك أمكن الاغريق أن يتأكدوا من الخط المنتظر أن يسلكه العدو في اقترابه . وكان الفرس لا يستطيعون التحول عنه . وأوجدت طبيعة البلاد للاغريق سلسلة من النقاط يستطيعون بها سد خط الاقتراب الطبيعي سدا محكماً . وكما قال "جراندى" لولا تشعب مصالحهم وتناقضها وتشتت آرائهم (لكان من المحتمل أن الغزاة يعجزون عجزاً تاماً عن تجاوز "ثرموبله" جنوباً) . فالذي حصل هو أن التاريخ اكتسب قصة صارت أبدية . وألقيت على عاتق الأسطول الاغريقي مهمة زحزحة الغزو زحزحة لا عودة له بعدها بأن هزمت أسطول الفرس في معركة "سلايس" — بينما كانت "أكورسيس" وجيش الفرس يشاهدان تدمير الأسطول الذي فضلاً عن كونه أسطولهم فانه كان عليه المعول في تموينهم . ومما يستحق التنويه أن الفرصة التي أمكنت من

شوب هذه المعركة البحرية أوجدتها صورة أخرى من الاقتراب غير المباشر . هي رسالة "ثيستوكل" الى "اكزسيس" بأن الأسطول الاغريقى على استعداد للخيانة والتسليم . وهذه الخدعة التى استدرجت الأسطول الفارسى الى دخول البوغاز الضيق الذى جعل كثرتة العددية لاصبره لها ولا نفع ، نفعت بسبب السوابق التى تقدمتها لجعلتها تقبل التصديق . وفضلا عن ذلك فان الذى أوقف الفرس عن التدخل فى شئون بلاد اليونان فيما بعد طول مدة السبعين سنة التى أعقبت هذه المعركة انما هى قوة الاقتراب غير المباشر من مواصلات الفرس أنفسهم التى تمكنت "أثينا" منها واستخدمتها فعلا ، وهذا الاستنتاج أثبته اثباتا لاشك فيه ، عودة ذلك التدخل فى الحال على أثر تدمير الأسطول "الأثينى" فى معركة "سرقسطه" (سيركوزا) .

وما هو جدير بالملاحظة من الوجهة التاريخية أن استخدام خفة الحركة الاستراتيجية للاقتراب غير المباشر قد برز الى حيز الوجود وانتعج به فى الحروب البحرية قبل الانتفاع به فى الحروب البرية بزمان طويل . والسبب الطبيعى فى ذلك هو أن الجيوش لم تعول على "خطوط المواصلات" لتموينها الا بعد أن تدرجت فى عدة مراحل من التطور والرقى .

أما الأساطيل فكانت تستخدم ضد المواصلات البحرية ، أى وسائل تموين البلاد المحاربة . ولما ثبتت هذه الفكرة صار من الطبيعى تطبيقها كوسيلة لغاية بحرية . أى وسيلة لغاية "حربية" فوق ظهر البحر .

وبعد زوال تهديد الفرس كانت عاقبة معركة "سلاميس" ارتفاع "أثينا" الى المقام الأول فى الشئون الاغريقية . وهذا المركز السامى انتهى وانقضى بحرب "البلوبونيز" (فى سنة ٤٣١ - ٤٠٤ ق . م) على أن استمرار هذه الحروب الطاحنة مدة سبع وعشرين سنة ، وفظاعة ما تكبدته البلاد من الخسائر لا بلاد المتحاربين الرئيسيين فقط ، بل البلاد السينة الحظ ، التى كانت فى حكم المحايدة أيضا كان السبب فيه استراتيجية التردد والاضطراب التى لا طائل تحتها التى كان كلا الفريقين يتدهورانها حيناً بعد حين .

ففى الطور الأول حاولت "سبارتا" وحلفاؤها غزو "أثينا" غزوا مباشرا . على أن سياسة "بيركلى" الحربية قد خيبتها . وهى السياسة المنطوية على اجتناب المعارك البرية واستخدام الجيش "الأثينى" المتفوق فى انهاء ارادة العدو واضعافها بغارات السطو "والتيخريب" . وقد استعملنا هذا الاسم الاصطلاحي "السياسة الحربية" قصدا وان كانت عبارة "الاستراتيجية البيركلية" أصبحت فيما بعد مشهورة كمشهرة "الاستراتيجية الفابية" لأن الأسماء الفنية الواضحة التحديد جوهرية للفكرة الواضحة . واسم "الاستراتيجية" الاصطلاحي مقصور على مدلوله الحرفى الذى هو "القيادة" — أى ادارة القوات الحربية ادارة فعلية تميزا له عن السياسة التى

يتقيد بها استخدام هذه القوات وتشترك معها أسلحة أخرى — اقتصادية ، وسياسية ، وبسيكولوجية (أى خاصة بعلم النفس) . وهذه السياسة قد ابتكرها اسم اصطلاحى هو ” الاستراتيجية العظمى ” على أن هذا الاسم وإن كان ملائماً فإن مدلوله ليس سهل الفهم ومن ثم فأنى بالرغم من استصوابى اسم ” الاستراتيجية العظمى ” الذى استعملته فى كل مكان آخر ، سأستعمل هنا اسم ” السياسة الحربية ” بما أن التحليل والترتيب هما الغرضان الرئيسيان من هذا البحث التاريخى . فالخطة ” البيركلية ” كانت مجرد سياسة حربية ترمى تدريجياً الى استنفاد صبر العدو وجلده حتى يدخل فى روعه ويقنع أنه يستحيل عليه الحصول على البت والحسم ، بدلا عن أن تكون استراتيجيته اقتراب غير مباشر ترمى الى زحزحة موازنة العدو لكى تحدث حسا . ولسوء الحظ دخل وباء من الخارج شالت معه كفة ” أثينا ” فى هذه الحملة الأدبية والاقتصادية التى كانت ترمى الى انهاك العدو . ولذلك فى سنة ٤٢٦ ق.م . زالت الاستراتيجية البيركلية وحلت محلها الاستراتيجية التعرضية المباشرة التى اتبعها كل من ” كليون ” و ” ديموستين ” . وهذه الاستراتيجية كانت أكثر كلفة من سابقتها ولم تكن أكثر منها نجاحا بالرغم من بعض أعمال تكتيكية باهرة كلت بالنجاح .

وفى أوائل شتاء سنة ٤٢٤ ق.م . جاء ” براسيداس ” وهو أقدر جندى عرفته ” سبارتا ” ومحا كل ما كانت ” أثينا ” قد أحرزته من المزايا بشق الأنفس . وذلك بحركة استراتيجية وجهت الى جذر قوة العدو بدلا من جزعها . فتمز ” بأثينا ” نفسها دون أن يسمها بسوء وسار مسرعا نحو الشمال مجتازا بلاد اليونان طولا وأترل ضربته بمستعمرة ” أثينا ” فى ” خالسيدس ” التى كانت تسمى بحق ” نقطة الضعف فى الإمبراطورية الأثينية ” وباشراكه القوة العسكرية مع وعد أعطاه لكل المدف التى كانت نائرة على ” أثينا ” بمنحها حريتها وحمايتها زعزع قوة ” أثينا ” فيها حتى استدرج اليها القوات الأثينية الرئيسية . فزلت بها كارثة فى ” أمفيبولس ” ومات ” كليون ” ولكن ” براسيداس ” نفسه سقط قتيلاً فى لحظة الانتصار . ومع كل ذلك رضيت ” أثينا ” عن طيبة خاطر أن تعقد صلحا سلبيا مع ” سبارتا ” — كانت فيه أقل حزما من قائدها العظيم .

وفى سنين الصالح الاسمى التى أعقبت ذلك قامت أثينا بعدة تجريدات لاسترداد مركزها فى ” خالسيدس ” ولكنها أخفقت فيها كلها . فعمدت الى تجريدة أرسلتها ضد ” سرقسطه ” كآخر أمل تعرضى لديها ” وسرقسطه ” هى مفتاح ” سيسيليا ” التى هى مورد تموين ” سبارتا ” ” والبلوبونيز ” بوجه عام عن طريق البحر . وهذه الحركة بصفتها سياسة حربية لا اقتراب غير مباشر كانت خاطئة فى أنزال الضربة ، لا بشركاء المدو الحقيقيين ، بل بعملائه التجاريين فنشأ عن ذلك أنها بدلا من تشتيت قوات العدو ، ألبت على نفسها قوات جديدة .

على أنه بالرغم من ذلك كان من الممكن أن نتأج النجاح الأدبية والاقتصادية قد تغير كل توازن الحرب لو لم تقع سلسلة من الأخطاء في تنفيذ هذه السياسة ، يكاد لا يكون لها مثل أولها أن "السيادس" واضع الخطة استدعى من قيادته المشتركة بسبب دسائس أعدائه السياسيين . فبدلاً من رجوعه الى "أئينا" ليحاكم على تهمة اهانة المقدسات ، ويحكم عليه حكماً محققاً بالاعدام ، فزالي "سبارتا" ونصح العدو بالكيفية التي بها يحبط الخطة التي كان هو واضعها . ثم ان "نيسياس" الذي كان معارضاً لهذه الخطة أشد معارضة بقى متولياً القيادة لينفذها . فبدلاً من تنفيذها سار بها الى مواطن التلف بعناده الأنرق .

ولما فقدت "أئينا" جيشها في "سرقسطه" انتقت الهزيمة في بلادها باستخدام أسطولها فاستمرت الحروب البحرية على أثر ذلك مدة تسع سنين أوشكت فيها "أئينا" أن تصل لا الى عقد صلح فيه ميزات لها فحسب ، بل الى استرجاع إمبراطوريتها .

على أن الأميرال "ليساندر" الأسبارتي خيب آمالها في سنة ٤٠٥ ق.م . بما يشبه التمثيل المسرحي . وقد ورد عنه في كتاب "التاريخ العتيق لكيمبردج" أن "خطته في هذه الحملة كانت تجنب القتال مع انهاء الأئينيين الى آخر درجة بمهاجمة إمبراطوريتهم في أضعف نقطتها" فالعبارة الأولى من هذه الحملة لا تنطبق على الحقيقة تماماً . لأن خطته لم تكن الاندفاع الى المعركة بقدر ما هي اقتراب منها اقتراباً غير مباشر حتى تبقى لديه الفرصة لأن تكون الميزة في جانبه فلا يدخل المعركة حتى تتوافر لديه هذه الميزة . فأخذ يغير خط سيره تغييراً يشف عن مهارة ودهاء حتى وصل الى مدخل الدردنيل وهناك بقى مترصداً ينتظر قدوم سفن الغلال الآتية من آسيا الصغرى في طريقها الى "أئينا" . "ولما كان تموين "أئينا" بالغلال مسألة حياة" فان القواد الأئينيين "أسرعوا بكامل أسطولهم المؤلف من ١٨٠ سفينة لحراسة سفن الغلال" وبقوا أربعة أيام متوالية يحاولون استدراج "ليساندر" الى معركة فلم يفلحوا في حين كان هو يشجعهم بكل الوسائل على الظن أنهم قد سدوا في وجهه الطريق . أما هم فبدلاً من رجوعهم الى ميناء "سستوس" الآمنة ليجددوا مؤتهم فيها فانهم بقوا في البوغاز المكشوف في "إجوسبوتاموى" أمامه . وفي اليوم الخامس حينما نزل السواد الأعظم من رجال السفن الى البر لجمع الطعام ، خرج "ليساندر" على حين بقاء واستولى على كل الأسطول بوجه التقريب دون أن يضرب ضربة واحدة . وبذا "أنهى أطول الحروب في ساعة واحدة من الزمن" .

ومجمل القول هو أنه في هذا النضال الذي دام سبعة وعشرين سنة كان الفشل نصيب الاقتراب المباشر في عشرينات من المرات وكان ينتهى عادة بأضرار تلحق الذين قاموا به . وأن كفة "براسيداس" في هذا النضال رجحت كفة "أئينا" نهائياً بحركته التي وجهها الى "خالسيدس" التي هي "جذر" "أئينا" وأن أقوى ما كان من الأمل في استرجاع "أئينا"

مكاتها كان فيما قام به "آسياداس" من الاقتراب غير المباشر — في مستوى الاستراتيجية العظمى — من جذر "سيارتا" الاقتصادية في "سياسيا" ثم ان الفكرة القاضية التي جاءت بعد أن استطال أمد الحرب عشرين سنين أخرى ، كانت باقتراب غير مباشر في البحر هو في ذاته نتيجة اقتراب جديد غير مباشر في الاستراتيجية العظمى . لأن مما يجب ذكره هو أن هذه الفرصة أوجدها تهديد خطوط مواصلات الأثينيين "القومية" — فان "ليساندر" باتخاذ غرضاً اقتصادياً جاز له أن يأمل أن يستنفد قوتهم على أقل تقدير . ولما يهيج هاجهم ويستولى عليهم الخوف يبق في مقدوره أن يهيئ ظروفًا تسهل فيها المفاجأة ، كما حصل فعلاً . وبهذه الوسيلة يحرز حسمًا عسكرياً سريعاً .

أما الطور التالي في التاريخ الاغريق فكان حلوله مع سقوط الأمبراطورية الأثينية وقيام "سيارتا" على رأس بلاد اليونان . وبناء على ذلك فليسؤال الثاني هو عن العامل الحاسم في القضاء على زعامة "سيارتا" والجواب هو : رجل وما أداه لعلم وفن الحرب . ولكن في السنين التي سبقت قيام "إيامينونداس" مباشرة كانت "طيبة" قد تخلصت من حكم "سيارتا" بالطريقة التي عرفت فيما بعد باسم "الفابية" (نسبة الى موجدتها فابيوس) وهي تجنب المعارك — وهي سياسة حربية تنطوي على الاقتراب غير المباشر ولكنها استراتيجية تهرب — بينما كانت جيوش "سيارتا" تتنقل في بلاد "بويوتيا" ولا يعترضها أحد . فهذه الطريقة أكسبتهم وقتاً أوجدوا فيه قوة محترفة من نخبة الجنود اشتهرت باسم الجوقة المقدسة صارت فيما بعد في مقدمة كل جنودهم . ولكن الوقت الذي تواجد كان فرصة لانتشار الشقاق بينهم ، "ولائنا" بعد أن استراحت من الضغط عليها برا أن توجه فيها كل مجهودها ومواردها من الرجال الى إعادة احياء أسطولها . ففي سنة ٣٧٤ رأى الاتحاد الأثيني الذي كانت طيبة داخله فيه أن "سيارتا" راضية عن منحه صالحة ذا مزايا . ومع أن هذا الصالح لم يدم طويلاً بسبب قيام "أثينا" بغامرة بحرية فان مؤتمراً جديداً للصالح عقد بعد ذلك بثلاث سنين وكان الأثينيون اذ ذاك قد ملوا الحروب . وفي هذا المؤتمر استردت "سيارتا" كثيراً مما أضاعته في ميادين الحرب ونجحت في فصل طيبة عن حلفائها . وعلى أثر ذلك قامت "سيارتا" على طيبة لتسحقها . ومع أن جيشها كان متفوقاً على جيش طيبة بحكم التقاليد تفوقاً في الكم والنوع (كان الأول يتألف من ١٠٠٠٠ والثاني من ٦٠٠٠) فان الجيش الاسبارتي لما زحف الى داخل "بويوتيا" لاقاه جيش طيبة الجديد ، الذي يعد مثالا للجيوش ، في "يوكترا" وهزمه هزيمة حاسمة . وكان جيش طيبة تحت قيادة "إيامينونداس" الذي قد تصحح تسميته أعرق عبقرى في التاريخ الحربى . فهو لم يشذ عن الطرائق التكتيكية التي قامت على تجارب الأجيال ويخرج عنها خروجا بعيداً فحسب ، بل انه وضع أسس التكتيك ، والاستراتيجية ، والاستراتيجية العظمى كلها ، التي بنى عليها أساتذة الفن الذين أتوا بعده . حتى ان أشكاله

الانثائية ما زالت باقية الى الان أو انها تجددت واستعيدت . فان "الترتيب المائل" في التكتيك الذى حاز شهرته على يد "فردريك" ان هو الا تعديل بسيط لطريقة "ايامينونداس" وهى قد نشأت فى معركة "ليوكترا" حينما عكس "ايامينونداس" العادة المتبعة ولم يضع على جناحه الأيسر أحسن جنوده فحسب بل وضع أكثرهم . ثم أخر قلبه وميخته الضعيفين وأخذ يوجد تفوقا ساحقا على أحد جناحي العدو — وهو الجناح الموجود به قائده الذى يجعله مفتاح ارادة الخصم .

وبعد معركة "ليوكترا" بسنة واحدة قاد "ايامينونداس" قوات الاتحاد "الاركادى" وسار بها الى "سپارتا" بالذات التى لم تطأها قدم عدو قبل ذلك الحين . وهذا السير الذى نفذ الى قلب شبه جزيرة "اليلوبونيز" التى هى ملك "لأسپارتا" لا ينازعها فيه منازع كان ممتازا بكونه اقترابا غير مباشر من عدة أوجه . فقد حصل فى فصل الشتاء ، وبثلاثة قولات كل منها منفصل عن الآخرين لتتلاقى كلها فيما بعد . وبذا "تشتت" أفكار القوات المقومة ويرتبك اتجاهها .

وهذا وحده يكاد يكون فريدا فى بابيه فى حروب الأزمنة الغابرة بل وفى الحروب التى سبقت الحروب النابليونية . على أن "ايامينونداس" كان بعيد مرمى النظر الاستراتيجى الى درجة أكبر من ذلك . اذ بعد أن تجعت قوته فى "كاربيه" التى هى قبل "سپارتا" بمسافة ٢٠ ميلا تسال بها دائرا حول العاصمة ثم زحف عليها من الخلف . فهذه الحركة كانت تنطوى على ميزة أخرى مدبرة هى تمكين الغزاة من تعزيز قوتهم بأنفواج كبيرة من أرقاء الفلاحين وغيرهم من العناصر المنشقة فيضمونها اليهم . على أن الاسپارتيين بالرغم من ذلك وقفوا الى وقف هذه الحركة الداخلية الخطرة بأن وعدوا هذه العناصر بمنحها حريتها مدفوعين الى ذلك بحكم الضرورة الماسة . ثم ان ورود امدادات قوية الى "سپارتا" من حلفائها "اليلوبونيزيين" خيب الأمل فى سقوط المدينة من غير محاصرتها . فبين "لايامينونداس" فى الحال ان استدراج الاسپارتيين الى الأرض الفضاء أمر متعذر ، وأن الحصار اذا طال أمره يكون سببا فى تدهور عدد جنوده الذين لم يكونوا متجانسين . وبناء على ذلك ضرب صفحا عن السلاح الاستراتيجى الذى أصبح كليلًا واستعاض عنه سلاح أحد منه وأكثر دهاء — هو سياسة حربية باقتراب غير مباشر ، أى استراتيجية عظمى حقا . فما كان منه الا أن أسس مدينة فى جبل "ايشوم" الذى هو قلعة طبيعية فى "مسينا" وجعلها عاصمة لدولة "مسينا الجديدة" ووطن فيها كل العناصر الثائرة التى كانت انضمت اليه ثم وهبها الغنائم التى كان غنمها أثناء غزوه . فأصبحت هذه الدولة الحديثة حاجزا أمام "سپارتا" وقوة توازنها فى جنوب بلاد اليونان . ولما توطدت وثبتت فقدت "سپارتا" نصف أراضيها وأكثر من نصف أرقاء فلاحها . ولما أسس "ميغالوبولس" بعد ذلك فى "أركاديا" وجعلها حاجزا آخر أصبحت

”سپارتا“ محصورة سياسيا من جهة، وداخل سلسلة من القلاع من الجهة الأخرى فانفصلت عنها جذورها الاقتصادية التي كانت تغذى تفوقها الحربى . ولما بارح ”ايپامينونداس“ بلاد الپلوبيونيز بعد الحملة الحربية التي دامت بضعة أشهر لاغير كان لم يكتسب نصرا عسكريا . ولكن كانت سياسته الحربية قد زعزعت أسس قوة ”سپارتا“ تماما .

غير أن رجال طيبة السياسيين كانوا يريدون نجاحا عسكريا مدمرا وقد أغضبهم عدم الحصول على ما أرادوا . وأعقب ذلك عزل ”ايپامينونداس“ ولو الى حين . فكان عزله مجلبة لضياح المزاي التي كسبها لها . وذلك بقصر نظر السياسة التي اتبعتها ديموقراطية طيبة وما وقعت فيه من الأخطاء . وبذا أصبح في مقدور حلفاء طيبة الاركاڊيين أن ينازعوها الزعامة بعد أن دفعهم الغرور والطمع الى نكران الجبل . وفى سنة ٣٦٢ أرغمت طيبة على الخيار بين أحد أمرين : اما تأييد سلطتها بالقوة . واما تضحية نفوذها . فلما تحركت ضد ”أركاڊيا“ انقسمت دول اليونان من جديد الى كتلتين مؤتلفتين . ولحسن حظ طيبة كان ”ايپامينونداس“ حاضرا لخدمتها وليس ذلك فحسب . بل كانت هناك ثمار استراتيجيته العظمى — فان ”مسينا“ و”ميغالوپولس“ اللتين أوجدهما من العدم ساهمتا لا كحاجز فقط . بل كاتفا قوة في جانب طيبة . فسار ”ايپامينونداس“ الى داخل الپلوبيونيز والتقى بحلفائه الپلوبيونيزيين في ”تيجيه“ فأصبح بين ”سپارتا“ والقوات الرئيسية للحلفاء المعادين لطيبة التي كانت قد احتشدت في ”مانتينيه“ . أما الاسبارتيون فانهم ساروا على طريق ملتف ليألفوا بحلفائهم . فما كان من ”ايپامينونداس“ الا أن وثب على ”سپارتا“ نفسها ليلا يقول طيار على حين فجأة . ولم يحل بينه وبين غرضه الا أن أحد الفارين أنذر الاسبارتيين في وقت كاف فأسرعوا راجعين الى مدينتهم . وعند ذلك صمم على أن يشتبك في معركة ينال فيها الحسم . وزحف من ”تيجيه“ على ”مانتينيه“ التي تبعد نحو ١٢ ميلا على طول واد يشبه زجاجة الساعة في شكله . وكان العدو متخذاً موقعا قويا في ”الوسط“ الذي كان اتساعه ميلا واحدا .

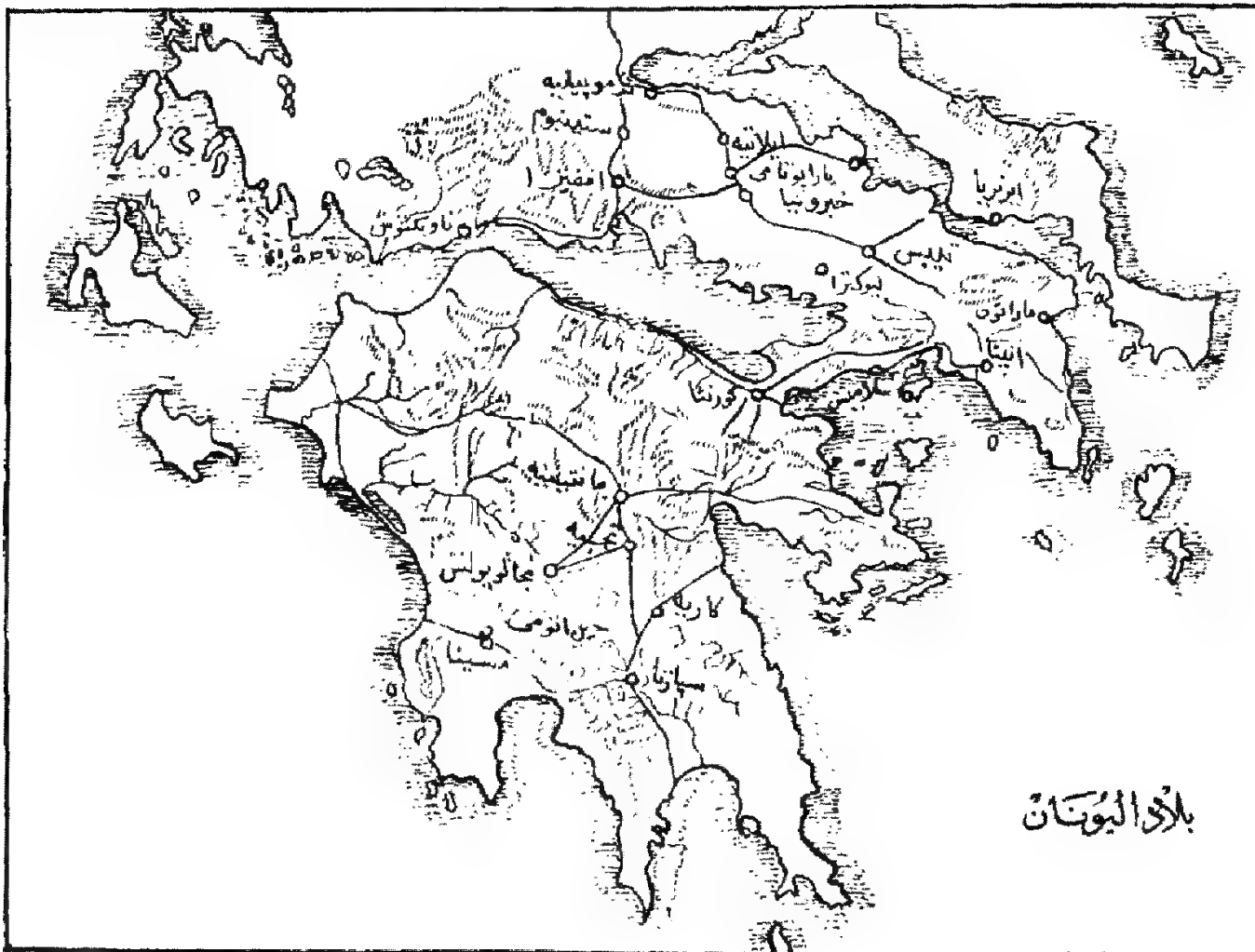
وحينما زحف صرنا على الخط أى الحد الفاصل بين الاستراتيجية والتكتيك . على أن الفصل بين الاستراتيجية والتكتيك في هذه الحالة فصلا تحكيميا بعد خطأ ، خصوصا وأن الأسباب المباشرة لانتصاره كانت في اقترابه من العدو حتى يتصل به فعلا ، اقترابا غير مباشر . ففى بادئ الأمر سار ”ايپامينونداس“ نحو معسكر العدو مباشرة ، فاضطره الى الاصطفاف لنقل متجهها نحو خط اقترابه — وهو خط الانتظار الطبيعي . ولكن بعد أن تقدم عدة أميال غير اتجهه فجأة الى اليسار ثم دار الى الداخل تحت هضبة بارزة . فهذه المناورة النجائية هددت ميعة العدو بضرب جانبي . ولكي يزيد زحزحة أوضاع قتال العدو ، وقف وأمر جنوده بالقاء السلاح على الأرض كما لو كانوا يتأهبون لنصب المعسكر . وقد نجحت هذه الخدعة . فان العدو أغرى على التراجع في مصف قتاله وأتاح للجنود ترك الصفوف ونزع الأجمة من الخيول .

وفي نفس الوقت كان "ايامينونداس" يكمل أوضاع قتاله فعلا — وكانت تشبه أوضاع معركة "ليوكترا" ولكنها أرق منها — وراء ستار من الجنود الخفيفة . وبعد ذلك أعطيت إشارة الى الجيش الطبي فالتقط أسلحته واندفع نحو العدو — الى نصر سبق ضمانه بزحمة موازنة العدو . ولكن لسوء الحظ سقط "ايامينونداس" نفسه قتيلا في لحظة الانتصار . وقد كان موته درسا للأجيال اللاحقة ليس هو أقل الدروس التي تلقتها عنه . اذ أثبت اثباتا مسرحيا مقنعا أن أسرع ما يكون سقوط الجيش أو الدولة إنما هو بشلل يصيب المخ .

وجاءت الحملة الحاسمة التالية بعد ذلك بما ينوف على عشرين سنة . وهي الحملة التي مكنت "مقدونيا" من الزعامة اليونانية . ومما يزيد أهمية هذه الحملة ما انتهت اليه من النتائج الخطيرة . فهي مثال يبين كيف تستطيع السياسة والاستراتيجية مساعدة احدهما الأخرى . ثم كيف تستطيع الاستراتيجية قلب الموانع الطبوغرافية وتحويلها من عيوب تعترضها الى مزايا تنتفع بها . والمتحدى في هذه الحملة وان كان هو نفسه إغريقيا الا أنه كان «أجنبيا» في حين أن "طيبة" و"أثينا" اتحدتا لتوجدا حلفا للجامعة اليونانية لمقاومة قوة "فيليب" المقدوني الآخذة في الازدياد بموازرة أجنبي هو أحد ملوك الفرس — وفي ذلك من الغرابة ما فيه من وجهة التاريخ العتيق والطبيعة البشرية . وهنا أيضا نجد أن المتحدى هو الذي أدرك قيمة الاقتراب غير المباشر . حتى ان العلة التي تعمل بها في مسعاه لنيل الزعامة كانت هي أيضا غير مباشرة . فان المجلس الانفكتيوني (مجلس مل يوناني) استدعاه ليساعد في معاقبة "امفيزا"، في "بويوتيا الغربية" على جناية اهانة المقدسات . ومن المحتمل أن فيليب نفسه هو الذي أوعز بهذه الدعوة التي نألب عليه من جرائمها كل من "طيبة" و"أثينا" . ولكنه كان متأكدا من الترام الدول الأخرى الحياد المقرون بالعطف على أقل تقدير .

فبعد أن سار "فيليب" متجها نحو الجنوب تحول فجأة في "سيتينيوم" عن الطريق المؤدية الى "امفيزا" — أي خط الانتظار الطبيعي واحتل "ايلاتيه" ثم حصنها . وهو تغيير مبدئي دل على ما يرمى اليه من التوسع في الأغراض السياسية ولكنه يشف أيضا عن غرض استراتيجي تؤيده هذه الحادثة . أما الطيبون والبويوتيون فنهزم سدوا الممرين المؤديين الى "بويوتيا" . الطريق الغربي الموصل من "سيتينيوم" الى "امفيزا" والممر الشرقي وهو ممر "باراپوتامي" الموصل من "ايلاتيه" الى "خارونيه" . أما الطريق الأول فيصح تشبيهه بالشرطة العليا من حرف I والطريق من "سيتينيوم" الى "ايلاتيه" يشبه الشرطة السفلى . والامتداد القاطع للممر الى "خارونيه" يشبه الشرطة الصغيرة التي ينتهي بها الحرف من الشرطة السفلى .

ثم ان "فيليب" قبل أن يبدأ بحركة عسكرية أخرى اتخذ التدابير ليزيد معارضيه ضعفا ، من الوجهة السياسية بأن عضد اعادة الجاليات الفوشية، التي كان الطيبون قد شتوها ، الى أماكنها . ومن الوجهة الأدبية بأن حرص على المناداة به نصيرا لاله "دلفي" .



بلوچستان

وبعد ذلك وثب وثبة بخائية في ربيع سنة ٣٣٨ ق. م . بعد أن مهد طريقه بخدعة . ذلك أن باحتلاله "إيلاتيه" كان قد حوّل التفات العدو من الوجهة الاستراتيجية نحو الطريق الشرقى — الذى هو الآن خط الانتظار الطبيعى — ثم انه حوّل التفات القوة التى سدت الطريق الغربى ، من الوجهة التكتيكية ، بأن دبر كتابا تكلم فيه عن عودته سريعا الى "طراقية" وجعله يقع فى يد هذه القوة . وبعد ذلك تحرك من "ستينيوم" بسرعة واجتاز الموريللا ثم خرج فى قلب "بويوتيا" الغربية فى "امفيزا" . وتمادى فى السير حتى وصل الى "ناوپكتوس" وفيها فتح مواصلاته عن طريق البحر . فأصبح والحالة هذه وراء المدافعين عن الممر الشرقى وإن كان بعيدا عنهم . أما هم فلما رأوا ذلك رجعوا متقهقرين من "باراپوتامى" . لآخوفا من قطع خط رجعتهم اذا هم بقوا فى مكانهم فحسب ، ولكن أيضا لأن بقاءهم فيه ليس له قيمة ظاهرة . على أن فيليب تحوّل مرة أخرى عن خط الانتظار وقام باقترب آخر غير مباشر . فانه بدلا من أن يتمادى فى الضغط نحو الشرق من "امفيزا" مجتازا البلاد الجبلية التى تساعد على المقاومة ، حوّل جيشه ورجع به مجتازا "ستينيوم" و"إيلاتيه" ثم دار نحو الجنوب مجتازا ممر "باراپوتامى" الذى أصبح الآن بغير حراسة وانقض على جيش العدو فى "خارونيه" . فكان انتصاره التكتيكى نتيجة طبيعية وتأسست الزعامة المقدونية فى بلاد اليونان .

على أن الأجل وافاه قبل أن يصل بهذه الزعامة الى آسيا وكان من نصيب ابنه اسكندر أن يخرج الحملة التى نواها والده من حيز الفكر الى حيز الوجود . ولم يقتصر ماورثه الاسكندر عن والده على خطة وآلة تعد نموذجا — هو الجيش الذى رقاد فيليب — فحسب . بل ورث أيضا فكرة الاستراتيجية العظمى . وهناك ميراث آخر له قيمة مادية لا تنكر هو امتلاك رؤوس جسور (كبارى) الدردنيل التى حصل الاستيلاء عليها بارشاد فيليب فى سنة ٣٣٦ ق. م . ولو أننا درسنا خريطة تبين زحف الاسكندر لوجدناها عبارة عن سلسلة من خطوط منكمرة حادة الزوايا . ودراسة تاريخ هذه التعاريج تبين أن لها أسبابا أبعد غورا من الحساب اللوجستيكى (الخاص بحركات الجيوش وتموينها) . نعم ان الاستراتيجية اللوجستكية هى استراتيجية مباشرة لادها فىها . والسبب فى ذلك على ما يظهر هو أولا أن الاسكندر فى شبابه وبحكم تربيته فى أبهة الملك كان نموذجا للبطل الهوميرى (نسبة الى هومير الشاعر المشهور) أكثر من غيره من كبار قادة التاريخ . وربما زاد على ذلك أنه كان يثق من تفوق آله (أى جيشه) ، ويحقق له ذلك ، ومن مقدرته على خوض غمار المعارك به الى درجة أنه لم يجد نفسه فى حاجة الى البدء بزخمة موازنة خصمه الاستراتيجية . أما ما تركه للأجيال اللاحقة من الدروس فينحصر فى شيئين هما السياسة الحربية والتكتيك .

فقد ابتدأ من الشاطئ الشرقى لبوغاز الدردنيل بالتحرك جنوبا وهزم الجنود الفارسية الساترة التي كانت على نهر "الجرانسيكوس" حيث كان العدو يقدر حق التقدير أنه اذا تمكن من الاحتشاد أمام الاسكندر الذى تجاوز حد الجراءة وقتله فانه يشل حركة الغزو فى منشأها . ولكنه أخفق فى ذلك بشئ يسير .

وبعد ذلك تحرك جنوبا قاصدا "سارديس" بصفتها مفتاح "إلديا" "إسباني والاقتصادى . ومن ثم تحرك غربا الى "إيفيسوس" وأعاد الى تلك المدائن الاغريقية حكوماتها وحقوقها الديمقراطية كوسيلة يؤمن بها خط رجعتة بأفضل الطرق الاقتصادية .

وكان الآن قد عاد الى شاطئ البحر الايمنى "شرق البحر الأبيض المتوسط" فاتخذ سبيله الى الجنوب أولا ثم اتجه شرقا على طول الشاطئ مارا "بكاريا" ، "وليسيا" ، "وبامفيليا" . وهو فى اقترابه جعل غرضه زحمة حاكية الفرس عن البحر بحرمان الأسطول الفارسى من حرية الحركة فيه وذلك بحرمانه من قواعده البحرية . وفى نفس الوقت فانه بتجويره هذه الموانى يحرم أسطول العدو من كثير من موارد رجاله الذين كانوا يجندون منها .

أما فيما وراء "بامفيليا" فكان باقى خط سواحل آسيا الصغرى مجردا فعلا من الموانى . ولذلك فانه اتجه الآن الى الشمال ثانيا حتى "فريجيا" وشرقا حتى "انقيرا" (أقرا الحديثة) مواطدا مرا كره ومؤمنا خط رجعتة فى وسط آسيا الصغرى . وبعد ذلك اتجه نحو الجنوب مجتازا "بوابات" "سليسيا" على الطريق المؤدى الى "سوريا" مباشرة حيث كان "داريوس" (دارا) يحشد جنوده لمقاومته . وهناك نظرا لعجز خدمة الاستعلامات (المخابرات) عنده ، واقتراضه أن الفرس ينتظرونه فى السهول ، تفوق الفرس على الاسكندر فى المناورات الاستراتيجية . فبينما قام الاسكندر باقترب مباشر قام "داريوس" باقترب غير مباشر وبعد أن تحركوا على أعلى نهر الفرات اجتازوا البوابات "الأمانيكية" وانقضوا على مؤخرة الاسكندر . فوجد الاسكندر نفسه منقطعا عن سلسلة قواعده مع أنه كان حريصا على سلامتها . على أنه عاد فرجع وخلص نفسه فى معركة "ايسوس" بتفوقه التكتيكى وآله التكتيكية . واستخدم الاقتراب غير المباشر فى تكتيكاته أكثر من أى قائد من كبار القادة . وبعد ذلك عاد واتخذ طريقا غير مباشر منحدرًا على ساحل سوريا بدلا من تماديهِ فى السير الى بابل التى هى قلب الدولة الفارسية . وكان ذلك طبقا لأصول الاستراتيجية العظمى لأنه وان كان قد زحج حاكية الفرس على البحر الا أنه لم يكن قد أبادها بعد . وما دامت باقية فلا يبعد أن تكون وسيلة للاقتراب من خط رجعتة اقترابا غير مباشر . وهنا صارت بلاد اليونان وخصوصا "أثينا" فى قلق شديد . ثم ان زحفه فى قلب "فينيقيا" شتت الأسطول الفارسى وما تبقى منه كان أغلبه فينيقيا . فقد أتى له القسم الأعظم منه مستسلما . أما القسم الصورى فقد أخذ فى سقوط مدينة "صور" . وحتى فى ذلك الحين عاد فتحرك نحو الجنوب ودخل مصر . وهى حركة صعبة التفسير لأسباب بحرية ، الا اذا كان الباعث عليها زيادة الحيلة . على أنها

مفهومة في ضوء أغراضه السياسية التي هي احتلال الإمبراطورية الفارسية وتوطيد إمبراطوريته مكانها . فمن هذه الوجهة كان في احتلال مصر ميزة اقتصادية عظيمة . وأخيرا عاد فسار نحو الشمال مرة أخرى الى حلب ومنها اتجه شرقا واقترب اقترابا مباشرا من الجيش الحديث الذي جمعه داربوس بالقرب من الموصل . وهنا برهن الاسكندر وجيشه مرة أخرى في "جوجاميل" على تفوقهم تماما على جيش هو في اعتبار أقل العوائق التي تعترض الاسكندر في طريقه الى غايته التي يرمى اليها في "استراتيجيته العظمى" . وأعقب ذلك احتلال "بابل" . أما حملات الاسكندر التالية التي كللت بالنجاح الى أن وصل الى حدود الهند فكانت من الوجهة العسكرية بمثابة "تشطيب" الإمبراطورية الفارسية . وان كانت من الوجهة السياسية توطيدا لإمبراطوريته . على أنه اجتاز غصبا المضيق "الأوكسياني" وبوابات بلاد الفرس باقتراب غير مباشر ولما لاقاه "بوراس" (أمير وعاهل هندي) على نهر "الهداسبس" أظهر من الخدعة متبهاها ، جاءت برهانا ساطعا على مبلغ ما كان له من المقدرة الاستراتيجية . وهي أنه خزن غلالا في أماكن متفرقة على طول الشاطئ الغربي لهذا النهر ووزع عليها جيشه فغافل خصمه حتى غم عليه ما ينويه الاسكندر . ثم أخذت فرسان الاسكندر تسير ذهابا وجيئة بجلبة وضوضاء حتى ارتاع لها "بوراس" في بادئ الأمر . ولكنها لما استمرت على ذلك مرارا وتكرارا تضاعف أمرها في فكره بحكم الاعتماد وسكن اليها واستنام لها . وبعد أن استقر "بوراس" على هذه الحالة ترك الاسكندر السواد الأعظم من جيشه أمامه (بوراس) ثم عبر النهر هو بنفسه على مسافة ١٨ ميلا صعدا على مجراه . وبمفاجأته بهذا الاقتراب غير المباشر أحل توازنه العقلي والأدبي ، وتوازن جيشه الأدبي والجسماني . وبهذه الوسيلة تمكن الاسكندر بجزء من جيشه أن يهزم كل أعدائه بوجه التقريب ، في المعركة التي نشبت على أثر هذه الحركة . فلولا هذه القلقة التي حصلت على المنوال السالف الذكر ، لما كان هناك مبرر يبرر تعريض الاسكندر لجزء صغير من جيشه للهزيمة وهو منفصل عن بقية الجيش ، سواء من الوجهة النظرية أو من الوجهة العملية .

وفي الحروب الطويلة التي شنها "خلفاء" الاسكندر بعد موته ، وهي الحروب التي مزقت إمبراطوريته أمثلة عديدة للاقتراب غير المباشر لأن قواده كانوا أكفأ من مارشالية نابليون . ثم ان ما اكتسبوه من المراس أدى بهم الى ادراك المعنى الحقيقي للاقتصاد في القوة . ولكن مراعاة للانصاف قد اقتصر هذا التحليل على الحملات الحربية الحاسمة التي وقعت في التاريخ العتيق . فهذه الحروب ليس فيها ما يصح تسميته حاسما بصورة قطعية الا الحرب الأخيرة منها التي كانت في سنة ٣٠١ ق . م . فان حاسميتها لا نزاع فيها . لأنها بحسب ما جاء عنها في كتاب "التاريخ العتيق لـ كيمبردج" من القول الموزون كانت "خاتمة النضال بين القوة المركزية والعائلات الحاكمة" فأصبح "تقسيم العالم الأغريق - المقدوني أمرا لا مفر منه" .

فما حلت سنة ٣٠٢ ق . م . حتى أوشك "أنتيجونوس" المطالب بالحلول محل الاسكندر . أن يبلغ غايته في نهاية الامر التي هي ضمان الامبراطورية لنفسه . فانه بتوسعه في ضم البلاد ابتداء من ولايته الأصلية "فريجيا" أصبحت له السيطرة على "آسيا" من البحر الايحي الى نهر الفرات . وكان "سليوكس" في مقاومته له يجد صعوبة في محافظته على "بابل" . أما "بتولومي" (بطليموس) فانه خرج من الغنيمة بمصر لا غير . وأما "ليسياكوس" فقد كان مركزه في "طراقية" أكثر توطيدا . ولكن "كاساندر" الذي هو أقوى القواد المنافسين "لأنتيجونوس" وعماد المقاومة لحلمه الذي كاد أن يتحقق كان قد طرده من بلاد اليونان "ديمتر يوس" ابن "أنتيجولوس" الذي كان ثانيا لاسكندر في كثير من خصاله . وإذا كان "كاساندر" بصفته مؤسس "سلانيك" لا يليق احتراماً من الجنود البريطانيين فان استراتيجيته تدعو الى الإعجاب وان كان ذوقه على العكس لا يستحق إعجاباً . فانه لما طلب منه التسليم بغير قيد ولا شرط رد على هذا الطلب بضربة استراتيجية عبقرية . وضعت خطتها في مؤتمر عقد مع "ليسياكوس" وطلب العون فيها من "بتولومي" . بينما هو بدوره اتصل "بسليوكس" بأن كان يرأسه بواسطة رسل يسافرون فوق ظهور الابل عبر صحراء العرب .

فلم يبق "كاساندر" معه الا ٣١,٠٠٠ جندي ليلاقى بها غزو "ديمتر يوس" "لثاليا" بجند بلغ عدده ٥٧,٠٠٠ — ثم أعار بقية جيشه "ليسياكوس" . فقام هذا الأخير وعبر بوغاز "الدرديل" بينما تحرك "سليوكس" غرباً نحو آسيا الصغرى بجيش معه ٥٠٠ فيل من فيلة الحرب أتنه من الهند . ثم تحرك "بتولومي" شمالاً الى "سوريا" ولكن لما بلغه خبر كاذب بأن "ليسياكوس" قد انهزم عاد الى مصر . ومع ذلك فان الزحف الاتي من الجانبين الى قلب امبراطورية "أنتيجونوس" ألجأه لأن يستدعى "ديمتر يوس" من "ثاليا" على جناح السرعة حيث كان "كاساندر" قد نجح في إعاقة تقدمه وأوقفه أمامه الى أن كانت الحركة غير المباشرة الموجهة الى رجعته الاستراتيجية في آسيا الصغرى فاضطرته الى الرجوع — كما حصل في حركة "سبيو" فيما بعد التي كانت على مثل هذا الأساس فاضطرت "هانبال" للعودة الى أفريقيا . وفي معركة "أيسوس" في ولاية "فريجيا" انتهت استراتيجية "كاساندر" بنصر تكتيكي حاسم كانت خاتمته موت "أنتيجونوس" وفرار "ديمتر يوس" . ومما هو جدير بالذكر أن في هذه المعركة كانت أفعال الحرب هي الوسيلة الحاسمة . وبمناسبة ذلك كانت تكتيكات المتصرف غير مباشرة في جوهرها . ففي بدء الحملة كانت كفة "أنتيجيوس" رابحة رجحانا تاما . ومن النادر انقلاب طالع الحرب من جانب الى آخر بهذه الكيفية . وسبب ذلك الذي لا شك فيه هو أن اقتراب "كاساندر" غير المباشر قد قلب موازنة "أنتيجونوس" رأساً على عقب . وذلك زعزع توازن "أنتيجيوس" العقلي وتوازن جنوده ورعاياه الأدبي ، وتوازن أوضاعه الحربية المادي .

الباب الثالث

حروب الرومان

هانبال ، سيبيو ، وسيزار

والنضال التالى الذى كان حاسما فى نتاجه وفى أثره فى التاريخ الأوروبى هو النضال الذى قام بين روما وقرطاجنة . والفترة الحاسمة فيه كانت فترة الحرب الهانبالية أى الحرب القارطاجية الثانية . وهى تنقسم الى عدة أطوار ، أى حملات حربية ، كل منها كان حاسما فى تحويل سير الحرب الى مجرى جديد . والأخير منها كان حاسما ليس للحرب بأجمعها فقط . بل فى تحويل كل مجرى التاريخ الأوروبى . فالطور الأول يبدأ بزحف هانبال من أسبانيا متجها نحو جبال الألب وإيطاليا ، ويظهر أن خاتمته الطبيعية كانت النصر الساحق المييد الذى تم فى "ترازيين" وترك روما ولا وقاية لها سوى أسوارها وحاميتها وهما معرضين لاقتراب هانبال منهما مباشرة لو أنه اختار ذلك .

والسبب الذى يعزوه الجميع لاختيار هانبال من بادئ الأمر لهذا الطريق البرى الملتف الشاق ، مفضلا إياه على الطريق البحرى المستقيم هو على ما يقال "سيادة البحر" المزعومة لروما . على أن من السخف تطبيق التفسير الحديث لهذه العبارة على عصر كانت فيه السفن فى حالتها الأولية وكانت مقدرتها على معارضة العدو فى عرض البحر والتصدى له أمرا مشكوكا فيه . بل حتى فى أيامنا هذه ما زالت مثل هذه "السيادة" مقيدة بمحدود ظاهرة . وفوق ذلك فإن هناك دليلا ذا قيمة هو فقرة فى كتاب "بوليبوس" تلقى شيئا من الضوء على نفس ذلك العصر الذى وقعت فيه معركة "ترازيين" . اذ يقول مشيرا الى قلق مجلس السناتو الرومانى لئلا يتمكن القرطاجيون "من احراز سيادة على البحر أتم من سيادتهم الحالية" . وحتى فى المرحلة الختامية من الحرب بعد أن أحرز الرومانيون النصر عدة مرات فى البحر وحرموا الأسطول القرطاجى من كل قواعده الأساسية ، ثم استقروا فى أفريقيا كانوا عاجزين عن منع "ماجو" من انزال تجريدة حربية الى البر فى "رفيرة جنوا" ، أو الحيلولة دون افلاخ هانبال فى سكون عائدا الى أفريقيا .

وأغاب الاحتمال على ما يظهر هو أن اتخاذ هانبال طريقا بريا لغزوه ، غير مباشر ومذل ، كان بقصد تأليب أقوام "السلت" القاطنين بإيطاليا الشمالية على روما . ثم لابد لنا من ملاحظة عدم المباشرة ، أى صفة المداورة المتوفرة حتى فى هذا السير البرى من الوجهة الجغرافية

والمزايا الناشئة عنها. فان الرومان كانوا قد ارسلوا القنصل "بوليوس سبيو" والد "افريقانوس" الى "مرسيليا" قصد سد الطريق في وجه هانبال على نهر "الرون". مع أن هانبال لم يقتصر على عبور هذا النهر الهائل في مكان بعيد صعدا على مجواه ، على غير انتظار ، بل انه اتجه بعد ذلك متوغلا نحو الشمال أكثر مما كان يسلك الطريق المتطرف الشاق الكائن بوادي "الايذير" بدلا من الطرق الأخرى الكائنة "بالرفيرا" التي هي أكثر استقامة ولكنها سهلة الايصاد. ولما وصل "سبيو" الى معبر النهر بعد ذلك بثلاثة أيام "اندهش لما علم أن العدو قد غادره لأنه كان مقتنعا أنه (أى العدو) يستحيل عليه أن يجازف بسلوك هذا الطريق الى داخل ايطاليا. فاتخذ قرارا عاجلا وأسرع بالحركة بعد أن ترك قسما من جيشه هناك ، وعاد الى ايطاليا بطريق البحر في الميعاد الذي يلتقي فيه بهانبال في سهول "لومبارديا" على أن هذه السهول كانت بها ميزة هانبال للملائمة أراضيها لحركات فرسانه الذين كانوا متفوقين على عدوهم. وعلى أثر ذلك جاء النصر في معركة نهرى "السينوس" و"التربيا" وكان لهما تأثير أدبي أدى الى امداد هانبال بالمجندين والمؤن "بكثرة عظيمة". ولما أصبح هانبال سيدا على ايطاليا الشمالية قضى فيها فصل الشتاء. وفي الربيع التالى سار القنصلان الجديدان بجيشيهما أحدهما الى "ارينوم" (رميني) على بحر الأدرياتيك ، والآخر الى "آريتيوم" (ارتزو) في "اتروريا" ليسبقا هانبال في زحفه المتمادى — وبذا تحكم أولهما في الطريق الشرقى والثانى في الطريق الغربى ، وهما الطريقان اللذان يستطيع هانبال أن يسلكهما في زحفه نحو روما. وقرقرار هانبال على سلوك طريق "اتروريا" ولكنه بدلا من سلوك أحد الطرق المعتادة أخذ يستقصى استقصاء تاما "وتحقق من أن الطرق الأخرى المؤدية الى "اتروريا" طويلة ومعلومة جيدا لدى العدو. ولكن هناك واحدا منها قصيرا يخترق المستنقعات وهو يؤدي الى الاتقضاض على "فلامنيوس" بغاة. وهذا هو الذى يوافق عبقريته الفذة فصمم على سلوك هذا الطريق. ولكن لما انتشر الخبر في جيشه أن القائد سيجتاز به المستنقعات داخل كل جنوده الفرع فالحنود العاديون يفضلون المعلوم على المجهول. أما هانبال فكان قائدا فوق المعتاد ومن ثم فانه حذا حذو كبار القادة واختار مواجهة أشد الظروف خطرا بدلا من الأمر المؤكد وهو ملاقات العدو في وضع يكون هو قد اختاره لنفسه.

فسار جيش هانبال أربعة أيام وثلاث ليال "في طريق يغمره الماء" متكبدا مشاقا مضنية من التعب وعدم النوم ، وخسائر كبيرة في الرجال وأكثر منها في الخيل. على أنه لما برز الى اليبس وجد الجيش الرومانى معسكرا في "آريتيوم" في حالة استسلام. أما هانبال فانه لم يحاول أن يهجم هجوما مباشرا بل انه كما قال "بوليبيوس" "قدر أنه اذا مر على المعسكر وهبط الى الجهة الواقعة وراءه فان "فلامنيوس" خشيته من لوم رأى العام من جهة ، وبدافع حنقه الشخصى من جهة أخرى لا يستطيع الصبر على رؤية الخراب يحل بالبلاد وهو لا يبدى حراكا فيقتفى أثره دائما مختارا" وهنا نجد تطبيقا عقليا للمناورة على مؤخرة العدو. وهو تطبيق قائم على فحص دقيق

عما يتصف به العدو من الأخلاق . وقد اعتقه تنفيذ مادی . لان هانبال بعد أن أمعن في السير على طريق روما نصب ونفذ أعظم كمين عرفه التاريخ . ففى دغش فجر اليوم التالي بينما كان الجيش الرومانى مجدا فى تعقبه على طول أطراف بحيرة "تزازيمين" المحفوفة بالثلال وقع فى شرك نصب له من الأمام والخلف وأبید عن آخره . وقراء التاريخ كلهم يذكرون هذا الانتصار ولكنهم عرضة لأن يغفلوا الطعنة أو الضربة العقلية التى صيرته من المحككات .

على أن "بوليبوس" وإن كانت تنقصه تجاربنا التى مارسناها أكثر من ألفى سنة واستفدنا منها فإنه استخرج العبرة الصحيحة حيث قال : "لأن السفينة اذا جردتها من مديردقتها تسقط فى يد العدو بكل نويتها . وكذلك الجيش فى الحرب اذا تفوقت على قائده فى الدهاء أو فى المناورة فإنه يسقط بإجمعه فى يديك" .

والآن نقبل على الطور الثانى من الحرب . أما السبب فى عدم سير هانبال الى روما عقب معركة "تزازيمين" فهو من خفايا التاريخ . وكل حل لهذا اللغز لا يخرج عن كونه مجرد تخمين . وكل ما هو معلوم بالتأكيد أن هانبال قضى السنين التى أعقبت هذه المعركة فى محاولة قطع الصلات التى تربط ساططة روما بحلفائها الايطاليين وادماجهم فى ائتلاف يقوم ضدها . أما الانتصارات فكانت مجرد حافز أدبى يرمى الى هذه الغاية . فالمزايا التكتيكية مؤكدة له دائما متى أمكنه استدراج عدوه الى معركة فى ظروف ملائمة لفرسانه المتفوقين .

وهذا الطور يتبدى بصورة رومانية ، للاقترب غير المباشر ، ومن الغريب أنها غير رومانية . وهى صورة أورثت التاريخ ، وما أعقبها من التقليد الذى كان الكثير منه رديئا ، عنوانا لضرب من الاستراتيجية يسمى "الاستراتيجية الغابية" . وإن كانت فى الواقع سياسة حربية ، لا استراتيجية . فسياسة "فابيوس" الحربية لم تقتصر على تجنب المعارك لكسب الوقت ، ولكنها كانت تقاس بتأثيرها على قوة العدو الأدبية ، وبدرجة أكثر من ذلك على حلفائه المحتملين . فقد كانت اقتربا عسكريا غير مباشر يرمى الى غاية سياسية بدلا من غاية حربية . فإن "فابيوس" قد أدرك تفوق هانبال من الوجهة الحربية بدرجة لا يجازف معها بالاحتكام الى المعارك للفصل والبت . وهو فى الحين الذى كان فيه يتحاشى ذلك كان يرمى الى انهاك صبر العدو وجلده بطريقة ونخز الابر عسكريا ، وفى نفس الوقت يمنعه من تجديد قوته بالتجنيد من المدن الايطالية أو من قاعدته القرطاجية .

والحالة التى كانت تعتبر مفتاحا للاستراتيجية المنفذة لهذه السياسة الحربية هى أن الرومان يترمون دائما الثلال فيضيعون على هانبال ميزة تفوق فرسانه الذى لا شك فيه ويبتلون عملها . وعلى ذلك أصبح هذا الطرز عبارة عن مشادة بين هانبال وصور الاقترب الغابى غير المباشر . ففى ذات مرة أفلح هانبال فى استدراج أعدائه الى معركة فى السهل أمام "كانه" وجاءت

نتيجتهما مشبعة لشبهة مجلس السناتو والقواد الذين هم أكثر ميلا للمعارك من "فابيوس" الى حد التضخمة . أما فيما عدا هذه المعركة فان عزيمة روما التي لم تتحول عن استراتيجية التفادى من المعارك مهما كانت التضحية ، وظروف ذلك العصر ، وضعف هانبال نسبيا وموقفه بصفته غازيا — لبلاد كان تنظيمها ما يزال في حالة أولية — كل ذلك قد خيب آماله ومراميه . ولما قام "سيو" فيما بعد بمقابلة أعمال هانبال بالمثل وغزى قرطاجة غزوا مضادا ، وجد في رقي النظام الاقتصادي القرطاجي وما بلغه من التطور عونا لمقاصده .

ويتهى الطور الثاني بطراز آخر من الاقتراب الاستراتيجي غير المباشر . وذلك حينما خدع القنصل "نيرو" هانبال الذي هو أستاذ الخداع وتسلل من أمامه وأسرع في السير ، سيرا جبريا ، ثم حشد جنوده أمام "هزدروبال" "الشريك الجديد" الذي كان قد وصل في ذلك الحين الى ايطاليا الشمالية بجيشه . وبعد أن أباده على نهر "المتاوورس" ، وأباد معه آمال هانبال في النصر الأخير ، عاد بالثاني الى معسكره أمام هانبال قبل أن يدرك هانبال أن المعسكر كان خاليا . وبعد ذلك أصبح مركز هانبال في ايطاليا في منتهى الحرجة وسدت في وجهه كل السبل (مثل الشاه في لعبة الشطرنج في حالة "مات ") — وهذا هو الطور الثالث . فبقى طوال خمس سنين في ايطاليا الجنوبية لا يستطيع أن يتقدم من مكانه . وأخذ قواد الرومان يتبادلون قتاله على التوالي ويرتد الواحد منهم بعد الآخر وهو يضمه جراحه التي أصابته من جراء اقترابه من عرين الأسد اقترابا مباشرا .

غير أنه في نفس ذلك الوقت كان "بوبليوس سيو" الأصغر قد أرسل الى اسبانيا في مغامرة شاقة ليأخذ ثأر الكارثة التي نزلت بوالده وعمه بعد موتهما ويحافظ على ما بقى لروما من مركز ضعيف في القسم الشمالى — الشرقى من اسبانيا ازاء القوات القرطاجية المنتصرة المتفوقة تفوقا كبيرا في تلك الجهة اذا أمكن ذلك . فاستطاع بسرعة حركاته ، وتفوق تكتيكاته ، ومهارة سياسته أن يحول غرضه الدفاعي الى حركات تعرضيه تنطوى على زحف غير مباشر على قرطاجة وهانبال . لان اسبانيا كانت قاعدة هانبال الاستراتيجية الحقيقية . ففيها كان يدرب جيوشه ومنها كان ينتظر المدد . فتمكن "سيو" بمهارته بالجمع بين المفاجأة والتوقيت من حرمان الجيوش القرطاجية من قرطاجنة في بادئ الأمر وهي قاعدتهم الرئيسية في اسبانيا تمهيدا لحرمانهم من حلفائهم والغلب على جيوشهم . ثم قفل راجعا الى ايطاليا وانتخب قنصلا فأصبح على استعداد للقيام للمرة الثانية بالاقتراب غير المباشر الحاسم الذي كان هياه في عقله منذ زمن طويل ضد "مؤخرة" هانبال الاستراتيجية . وكان "فابيوس" قد تقدم في السن وبلغ منه العقل منتهى القوة فنطق بالرأى الصائب حيث قال ان واجب "سيو" يقضى بمهاجمة هانبال في ايطاليا وخاطبه قائلا : "لم لا تجعل هذه مهمتك وتصل بالحرب الى حيث يوجد هانبال بصورة شريفة لا عوج فيها بدلا من اللف والمداورة منتظرا أنك حينما تجتاز البحر الى أفريقيا يتبعك هانبال اليها . " أما سيو فانه نال من مجلس السناتو مجرد الاذن

بالعبور الى أفريقيا ولم يسمح له بتجنيد الجنود . بناء على ذلك شرع في تجريدته ومعه من الجند مالا يزيد عن ٧,٠٠٠ متطوع وفرقتان (ليجيونان) جردتا من الشرف وعوقبتا بالبقاء في خدمة الحامية بسيسليا لاشتراكهما في هزيمة ” كانه “ . وبنزوله الى البر الأفريقي لم يقابله سوى قوة الفرسان الوحيدة التي كانت لدى قرطاجنة وقتئذ . فتقهقروا أمامها تدريجيا واستدرجها الى شرك نصبه لها فأبادها . وبذا لم يكتسب وقتا يوطد فيه مركزه فحسب ، بل أوجد تأثيرا أدبيا حض حكومته على تعاضده بسخاء أكثر مما كان ، وأضعف سلطة قرطاجنة على حلفائها الأفريقيين من جهة أخرى ، ما عدا ” سيفاكس “ الذي كان في منتهى القوة .

وبعد ذلك التقى بقوة جندها العدو حديثا وكانت متفوقة عليه عددا بدرجة كبيرة ولكنها كانت مؤلفة من جنود ” هزدر وبال “ الحديثة وجنود ” سيفاكس “ غير النظامية . فتقهقروا ” سيبو “ الى شبه جزيرة صغيرة واستحكم في موقع حصنه ، هو النموذج الأصلي العتيق لخطوط ” طورس فدراس “ . وهناك تحايل على قائد الجيش الذي أحاطه وأدخل في روعهما الاطمئنان من ناحيته . ثم انه تظاهر بالاستعداد لركوب البحر قصد الزحف على ” يوتيك “ ، وأخيرا قام بمناورة ليلا وهجم على معسكرى العدو . فكان لهذه المفاجأة من التأثير مازعزع قوة العدو المعنوية وأخل نظامه . وضاعف هذا التأثير ما دبره ” سيبو “ من الحيلة بتوجيه الهجمة الأولى الى معسكر ” سيفاكس “ الذي كان أقل نظاما من المعسكر الآخر . اذ كانت أكواخ معسكر ” سيفاكس “ منتشرة حتى طغت على حدود الموقع المحصن وكانت مصنوعة من القصب والحصر سريعة الالتهاب . ولما أضرمت النار في هذه الأكواخ ساد الاضطراب وعمت الفوضى فتمكن الهاجمون من دخول المعسكر الرئيسى في حين أن الالهب المتأجم دفع جنود هزور وبال القرطاجنيين لأن يفتحوا أبوابهم ويخرجوا منها كالسيل الجارف لانقاذ اخوانهم ظنا منهم أن الحريق حصل قضاء وقدر — لأن الرومانيين عند حلول الظلام الترموا الصمت والسكون فكان معسكرهم الذى يمتد الى مسافة سبعة أميال فى سكون تام . ولم يوجه ” سيبو “ هجومه الثانى الى معسكر القرطاجنيين الا بعد أن فتحوا أبوابهم بهذه الحيلة فتمكن من دخوله من غير كلفة شق ثغرة فيه .

واذا كنا فى هذا المقام قد تجاوزنا حدود الاستراتيجية الى التكتيك فى الظاهر ، فذلك لأن هذا النصر الساحق هو فى الحقيقة أعظم مثال فى التاريخ ، الا اذا استثنينا ” إيلردا “ (اسبانيا) حيث لم تقتصر الاستراتيجية على التمهيد للنصر فى معركة بل انها نفذته — اذ كان النصر فى الواقع عبارة عن آخر فصل فى الاقتراب الاستراتيجى . لأن المجزرة اتى لا مقاومة فيها ليست معركة .

أما "سپيو" فإنه لم يتحرك في الحال الى قرطاجة بعد أن انتصر من غير سفك دم . فما هو السبب ؟ اذا كان التاريخ لا يجيب على ذلك جوابا صريحا فإنه يبين أسبابا للاستنتاج أكثر وضوحا من مسألة اهمال هانبال لروما بعد معركة "ترازيمن" وبعد معركة "كاه" . فما لم تتواجد فرصة وأسباب ملائمة يبنى عليها الأمل باقتحام سريع فإن الحصار أبعد كل العماليات الحربية عن الاقتصاد . والتاريخ يؤيد ذلك حتى الى سنة ١٩١٤-١٩١٨ وإذا كان العدو ما زال يملك جيشا بالميدان يستطيع التصدي فالحصار أيضا أشد خطرا لأن المهاجم تقل قوته فيه تدريجيا بالنسبة لعدوه الى أن يكمل الحصار بالنجاح .

أما "سپيو" فكان عليه أن لا يحسب حساب أسوار قرطاجة فقط ، بل كان عليه أن يحسب حساب رجوع هانبال أيضا — فكان في الواقع يحسب حساب هذا الطارئ ويجعله نصيب عينه . فإذا أمكنه أن يضطر قرطاجة الى التسليم قبل عودة هانبال كانت له من تسليحها ميزة كبرى . على أن ذلك لا بد أن يكون بزعزعة مقاومتها بوسائل أدبية لا تكلفه ثمنا غاليا . لا بوسائل مادية تكلفه بذل قوة قد يرى نفسه بعد بذلها أنه لا يزال أمام أسوار لا ثغرة فيها حينما يهبط هانبال على مؤخرته .

فبدلا من زحفه على قرطاجة أخذ ينقص في أطرافها التي كانت مورد مؤنها وحلفائها نقصا منظما . وفوق كل شيء كان فصل قسم من قوته لتعقب "سيفا كس" تعقبا لا رحمة فيه والتغلب عليه عملا بررته الحوادث كل مبرر . لأنه بعد أن أعاد حليفه "ماسينيسا" الى عرش "نوميديا" ضمن لنفسه موردا للفرسان لمقابلة أحد سلاح لدى هانبال .

ولكى يشجع هذا التعريض الأدبي بهذه الأساليب زحف على تونس . على مرأى من قرطاجة ، "كوسيلة لها منتهى التأثير في القاء الرعب والفرع في قلوب القرطاجنيين" . فبإضافة هذه الوسيلة الى ما تقدمها من أشكال الضغط غير المباشر كانت كافية لزحزة قوة ارادة القرطاجنيين في المقاومة فتقدموا لطلب الصلح . على أنهم بينما كانوا في انتظار ارام الصلح في روما اذ أخل القرطاجنيون بالصلح الوقتي عند ما وصلت الأخبار الى قرطاجة بأن هانبال قد عاد وأنه نزل الى البر في "لبتس" . وبذا أصبح "سپيو" في مركز حرج مخفوف بالأخطار لأنه وإن كان لم يضعف قوته باقتحام قرطاجة الا أنه كان سمح "لماسينيسا" بالرجوع الى "نوميديا" ليوطد مملكته الجديدة — بعد أن قبلت قرطاجة شروط الصلح التي وضعها "سپيو" . ففى ظروف كهذه كان أمام أى قائد أصولى أن يتبع إحدى طريقتين : اما أن ينتهج خطة التعرض ليمنع هانبال من الوصول الى قرطاجة . وإما أن ينتهج خطة الدفاع وينتظر المدد . على أن "سپيو" بدلا من اتباعه إحدى هاتين الطريقتين سلك سبيلا لو نظر اليه من الوجهة الجغرافية لرؤى عجيبا . ذلك أنه اذا كان الطريق المستقيم الذى يسلكه هانبال من "لبتس" الى "قرطاجة" يرسم الجزء الأيمن من هذه العلامة (٨) فإن "سپيو" بعد

أن ترك قسما من جنده بالقرب من قرطاجة ليحافظ على معسكره ، سار مبتعدا عنها سالكا سبيل الجزء الأيسر من هذه العلامة (٨) من أعلاه الى أسفله . وهو في الواقع أقصى أنواع الاقتراب غير المباشر . على أن هذا الطريق الذي هو طريق وادي ” البجراداس “ ، أوصله الى قلب الجهة التي هي المورد الرئيسي لتموين قرطاجة من داخلية بلادها . وقربه أيضا في كل خطوة كان يخطوها ، من الامدادات النوميديّة التي كانت ” ماسينيسا “ آتيا له بها اجابة لالحاحه في طلبها منه . وهذه الحركة أدركت غرضها الاستراتيجي . فان مجلس السناتوبقرطاجة داخله الفزع لما علم بأخبار أعمال التخريب المتتالية في هذا الاقليم الحيوى فأرسل رسله لتلح على هانيبال بأن يتصدى ” لسيو “ في الحال ويشتبك معه في معركة . ومع أن هانيبال أجابهم بأن ” يتركوه وشأنه في هذا الأمر “ الا أن الظروف — التي أوجدها ” سيو “ — أبلجته الى التحرك غربا يسير جبرى لملاقاة ” سيو “ بدلا من التحرك شمالا الى قرطاجة . وبهذه الوسيلة استدرجه ” سيو “ الى ساحة اختارها ، حيث كان ينقص هانيبال المدد المسمى من نقطة ثابتة يتخذها محورا لحركاته ، وملجا يلجأ اليه في حالة الانكسار ، وهما ما كانا يتوافران لو ان المعركة نشبت بالقرب من قرطاجة . ومع ذلك فلم يكتف ” سيو “ بهذا التدبير . فانه قد اضطر خصمه لأن يسعى لدخول معركة بحكم الضرورة ، وأراد أن يستغل هذه الميزة الأدبية الى أقصى درجة . ولما اتصل به ” ماسينيسا “ ، وكان اتصالها في الوقت الذي وصل فيه هانيبال بوجه القريب ، تفهقر ” سيو “ بدلا من أن يتقدم بخذب هانيبال الى مكان يعسكر فيه كان خاليا من الماء فتكبد القرطاجينيون من قلة المياه ما تكبدوا . ثم استدرجه الى ميدان المعركة في سهل صالح لأعمال الفرسان الذين انضموا حديثا الى سيو حيث يسهل أمامهم المجال لاستغلال ميزتهم الى أبعد حد . فهو قد احتال بالخدعتين الأولىين ، ففي ميدان المعركة ” زاما “ (والأصح ” زاراجارا “) تمكن من الغلبة بفضل تفوقه تكتيكيا بحيلة فرسانه على حيلة ” فرسان “ هانيبال التي اشتهروا بها من قبل . ثم لما لحقت بهانيبال الهزيمة التكتيكية لأول مرة تغلبت عليه أيضا نتائج هزيمته الاستراتيجية الابتدائية . فلم توجد قلعة قريبة منه يلجأ اليها الجيش المهزوم ويتجمع بها قبل أن تبيده المطاردة . وأعقب ذلك تسليم قرطاجة من غير سفك دماء .

خملة ” زاما “ قد صيرت روما الدولة التي لها السيادة على عالم البحر الأبيض المتوسط ثم ان اتساع هذه السيادة فيما بعد وتحولها الى حاكمية استمر دون أن يلقى عائقا ذا بال وان كان لا يخلو من تهديد كان يلقاه أحيانا . ولذلك فان سنة ٢٠٢ ق . م . تعتبر النهاية الطبيعية لبيان الانقلابات التي حصلت في التاريخ العتيق وأسبابها العسكرية . وأخيرا أخذ مد التوسع الروماني يتحول الى جزر . ثم قدر للامبراطورية العامة أن يعثرها التجزؤ بعضها تحت ضغط الأقوام البربرية . وأكثر منه بسبب الانحلال الداخلي .

وفي عصر "الانحطاط والسقوط" أثناء القرون التي كانت فيها أوروبا تبذل بشرتها ذات اللون الواحد وتستبدل بها بشرة جديدة ذات ألوان كثيرة توجد فائدة تكتسب من دراسة القيادة العسكرية . ففي بعض الأحيان تكتسب فوائد كثيرة . كما في حالة "بليزار يوس" وقادة الامبراطورية البيزنطية الذين أتوا بعده . ولكن بوجه العموم توجد صعوبات تحول دون بيان الحسم وايضاحه . كما أن غموض الانقلابات ، وعدم التأكد من الاستراتيجية المثمرة التي ترمى الى أغراض ، وعدم الاعتماد على الموارد المستفاد منها المعلومات ، كل هذه تحول دون إيجاد أساس للاستنتاجات العلمية . على أن هناك حربا داخلية تستدعي فحصا ، قبل ختام مبحث الاستراتيجية العتيقة . وذلك بسبب أنها كانت مسرحا لأجند كبار قادة التاريخ من غير نزاع ولا جدال ، من جهة . ولأنها كانت ذات تأثير حيوي على مجرى التاريخ من جهة أخرى . لأنه كما أن الحرب القرطاجية الثانية أعطت الدنيا لروما . كذلك أعطت الحرب الأهلية التي وقعت في سنة ٥٠ الى سنة ٤٥ ق.م . العالم الروماني "لسيزار" — وحكم القياصرة . فلما عبر "سيزار" نهر "الروبيكون" في ديسمبر سنة ٥٠ ق . م . كانت قوته تستند على بلاد "الجلول" (الغلاو) و"ايليريكام" . وكانت "ليومبي" السيطرة على ايطاليا وبقية الممتلكات الرومانية . وكان "لسيزار" تسعة (ليجيونات) فرق ولكن لم يكن معه منها في "رافنا" سوى واحدة . وكان "ليومبي" عشرة ليجيونات في ايطاليا . وسبعة في أسبانيا وأقسام كثيرة في بقية أنحاء الامبراطورية . على أن الفرق التي كانت في ايطاليا لم تزد عن مرتب الموجود مع (النسر) (أى البيارق أى تحت السلاح) — والفرقة الجاهزة كانت تعادل أكثر من فرقتين غير معبأتين (أى بمرتب أيام الحرب) . وقد وجه الانتقاد "لسيزار" لتهوره اذ تحرك نحو الجنوب بجزء ضئيل من جيشه . غير أن العنصرين الحيويين في الحرب أكثر من غيرهما هما الزمن والمفاجأة . وكان "سيزار" يقدرهما حق التقدير أما فيما عداهما فكانت استراتيجيته تسترشد في جوهرها بدرجة فهمد لعقاية "يومبي" .

فن "رافنا" الى "روما" يوجد طريقان اختار "سيزار" أطولهما وأقلهما استقامة — هابطا على الساحل الادرياتيكي — ولكنه أسرع في حركته . وبمروره من هذه الجهة الآهلة بالسكان انضم اليه كثير من أفواج المحندين الذين كانوا يتجمعون "ليومبي" — كما حصل لنابليون في سنة ١٨١٥ . ولما تزلزلت القوة المعنوية في حزب "يومبي" هجر روما تاركا الخزينة العامة وتمهقر الى "كابوا" في حين أن "سيزار" دخل بين قوات العدو الأمامية الموجودة في "كورفيناوم" وقوته الرئيسية الموجودة مع "يومبي" حول "لوسيريا" فنقل قوة أخرى الى جانبه من غير سفك دماء . وبعد ذلك استقر في زحفه جنوبا نحو "لوسيريا" واستمرت سرعته كما كانت . حتى أن زحفه صار الآن مباشرا ففرع العدو وتمهقر الى ميناء "برونديزيوم" (برنديزي) الحصن في أسفل ايطاليا . فكان من النشاط الذي تعقبه به أن قر قرار "يومبي" على عجل لأن يحنز الادرياتيكي الى بلاد اليونان . وهكذا كان من نتائج تماسد "سيزار" في الاقتراب

المباشر وقلة الدهاء في الطور الثاني ، حرمانه من الفرصة التي كانت لديه لانتهاء الحرب بحملة واحدة والحكم على نفسه بقضاء أربع سنين أخرى في حروب طاحنة حول حوض البحر الأبيض المتوسط .

ثم افتتحت الحملة الثانية . وبدلاً من أن يقتنى "سيزار" أثر "يومبي" على خط مستقيم حول فكره وجنوده الى أسبانيا . وقد لاقى انتقاداً كثيراً لحشد قوته ازاء "الشريك الأصفر" بهذا الأسلوب على أن تقديره لدرجة جمود يومبي قد بررته هذه الحادثة . وفي هذه المرة تغالى "سيزار" في عدم التحفظ وزحف زحفاً مباشراً على قوات العدو الرئيسية في "إليردا" عبر جبال "البرينيس" فمكنت من اجتناب المعركة ، وخاب الاقتحام . ونجا سيزار من نزول كارثة به بتدخله شخصياً . على أن قوة جنوده المعنوية أخذت في النقص واستمرت تتناقص حتى عاد "سيزار" في الوقت الملائم وغير طريقة اقترابه . وبدلاً من ابداء أى محاولة أخرى كالتشدد في الحصار وجه كل مساعيه ومجهوداته لانشاء مخاضة صناعية مكنته من الحكم على كلا شاطئ نهر "سيكوريس" القائمة عليه "إليردا" فكان من شأن هذا التهديد الموجه الى تضيق الخناق على الموارد التي تستمد منها قادة "يومبي" مؤنهم أن حضهم على التفهق قبل فوات الأوان فتركهم "سيزار" يتسللون من غير أن يضغط عليهم ولكنه عوضاً عن ذلك بعث فرسانه من الجول ليقبوا على مؤخرتهم فيؤخروا سيرهم . ثم انه بدلاً من أن يقتحم الجسر (الكوبري) المحتل بحرس العدو الخلفى جازف بقيادة فرقة مجتازا بها المخاضة العميقة التي كانت معتبرة غير قابلة للتخوض الا بالفرسان ثم سار على دورة واسعة أثناء الليل واعترض خط رجعة العدو . ولم يحاول دخول المعركة حتى في ذلك الحين بل اكتفى بأن يحول بين العدو واتخاذ خط رجعة جديد بأن استخدم فرسانه في مضايقته بينما كانت فرقه تتوغل في المسير . ثم كبح شوق رجاله للقتال وفي نفس الوقت شجعهم على التأخر مع رجال الفريق الآخر الذين أخذ منهم التعب والجوع ، وشبوط اللحم ، كل ماخذ . وأخيراً ، لما أرجعهم بحيلته في اتجاه "إليردا" واضطروهم الى اتخاذ موقع لا ماء فيه . سلموا أنفسهم . فكان هذا نصراً استراتيجياً لم يسفك فيه دم غالب ولا مغلوب — ولما قل عدد قتلى العدو ازداد عدد أتباع "سيزار" بينهم ومجنديه . وعلى الرغم من استبداله المناورات بالاقتحام المباشر فان الحملة لم تكلفه من الوقت أكثر من سنة أسابيع ، ولكنه في الحملة التالية غير استراتيجيته فاستمرت ثمانية أشهر قبل أن يكال النصر لجنوده وحتى حينذاك لم يكن نصراً تاماً .

ثم ان "سيزار" بدلاً من أن يزحف الى داخلية بلاد اليونان بالطريق البرى غير المباشر بأن يجتاز "إيليريكوم" فز قراره على سلوك الطريق المستقيم الذى هو طريق البحر . وبذلك اكتسب وقتاً في بادئ الأمر ولكنه خسره أخيراً . فان "يومبي" كان يملك من الأصل أسطولاً كبيراً ، أما "سيزار" فلم يكن له أسطول . ومع أنه أمر ببناء أسطول أو جمع سفن

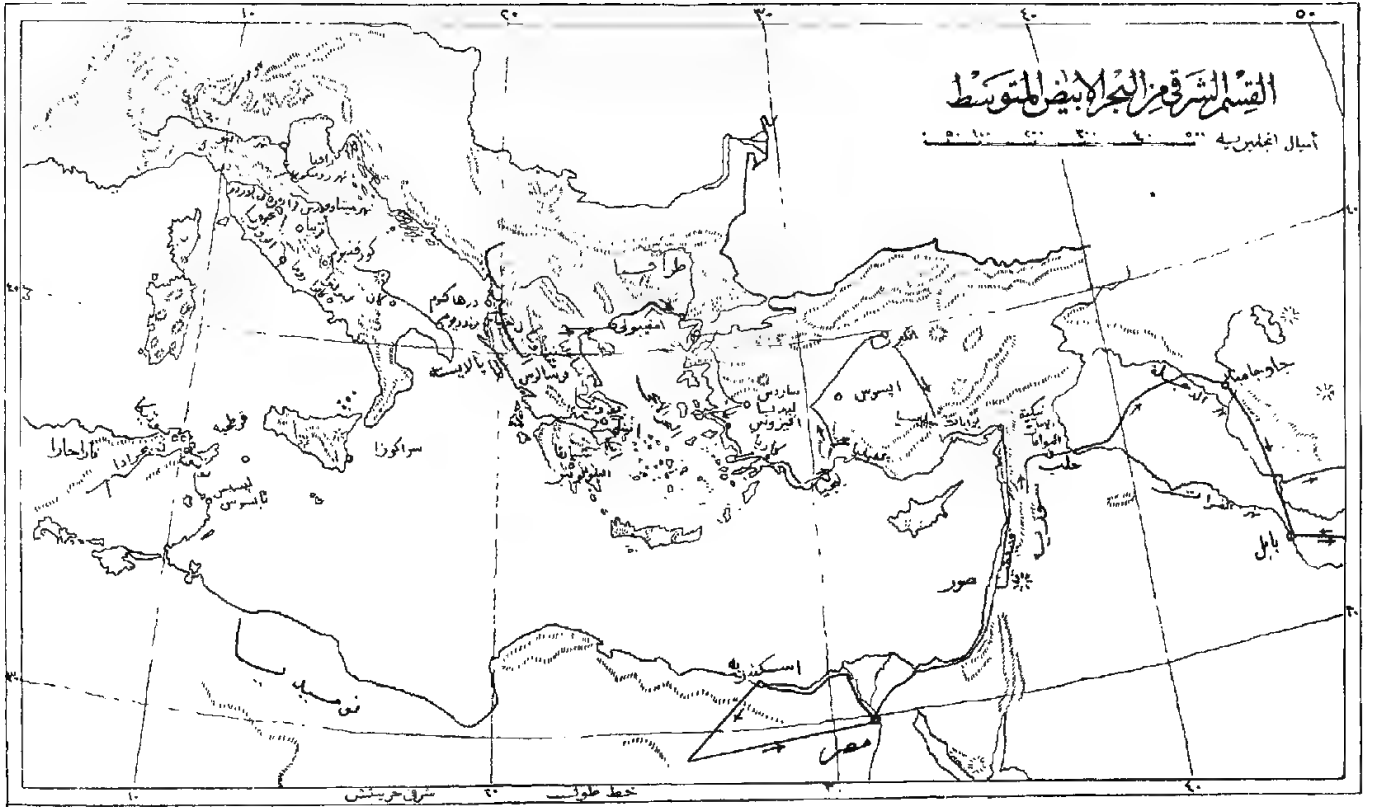
في نطاق واسع فلم يتوافر لديه الا قسم من السفن . وبدلا من أن ينتظر أفلح بسفنه من ميناء برنديزى بقوة تكاد لا تبلغ نصف القوة التي جمعها . ولما نزل الى البر في "بالايست" تقدم صاعدا على الشاطئ قاصدا ميناء "ديراكيوم" الشهيرة ، ولكن "بومبي" سبقه اليها بزمين يسير ومن حسن حظ "سيزار" ان كان "بومبي" متباطئا كعادته فأضاع فرصة استخدام قوته المتفوقة قبل أن يتمكن "أنطونيو" ومعه النصف الآخر من جيش "سيزار" من الانضمام اليه بعد أن غافل أسطول العدو وأفلت منه . حتى بعد أن نزل "أنطونيو" الى البر في الجانب الآخر من "ديراكيوم" عجز "بومبي" عن منعه من الاتصال "سيزار" في "تيران" مع أنه كان بينهما فتقهر "بومبي" وتبعه عدوه وعرض عليه دخول معركة من غير طائل . وبعد ذلك صمد الجيشان يواجه أحدهما الآخر على الشاطئ الجنوبي لنهر "الجنوسوس" الواقع جنوبي "ديراكيوم" فقام "سيزار" بسير دائر شاق لمسافة نحو ٤٥ ميلا مجتازا التلال حتى صار بين "ديراكيوم" و "بومبي" قبل أن يتيقظ "بومبي" لهذه الحركة فعاد الى "ديراكيوم" مع أن المسافة بينه وبينها كانت لا تزيد عن ٢٥ ميلا على خط مستقيم . أما "سيزار" فانه لم يستغل الميزة التي كانت لديه . ولما كان "بومبي" يتمن من طريق البحر فلم يوجد محرض يحرض رجلا من معدنه لأن يهاجم "سيزار" وبعد ذلك اتخذ "سيزار" الطريقة الأصلية المجردة من الفائدة وهي طريقة انشاء خطوط طويلة يحاصرها جيشا لا يفوق جيشه قوة فحسب ، بل في استطاعته تموين نفسه بسهولة . أو الرحيل بطريق البحر متى أراد .

حتى "بومبي" مع ما هو عليه من الجود لم يستطع أن يترك الفرصة التي سنحت له دون أن ينتهزها لا تزال ضرباته بالنقط الضعيفة الموجودة في مثل هذا الخط الرقيق . فنجح نجاحا أدى "سيزار" لأن يقابله بحشد جنوده والقيام بهجمة مضادة انتهت بأخفاق وكارثة . ولم يحل دون ابادة جنود "سيزار" الذين ترهضت قوتهم المعنوية سوى عدم نشاط "بومبي" .

وأراد جنود "سيزار" أن يقودهم قائدهم مرة أخرى للقاء العدو ولكن "سيزار" كان قد تعلم درسا . وبعد أن رجع بسلام عاد الى استراتيجية الاقتراب غير المباشر . وسنحت الفرصة أيضا "لبومبي" ليستخدمها بأن يعبر الادرياتيک مرة أخرى ويستعيد سيطرته على ايطاليا اذ يكون الطريق ممهدا أمامه بفضل التأثير الأدبي الذي أحدثته هزيمة سيزار . وأدرك "سيزار" ما لهذه الحركة الغريبة من القيمة ، وما ينشأ عنها من الخطر . فأسرع بالحركة شرقا لملاقاة "سبيوناسيكا" من قواد "بومبي" الموجود في مقدونيا . فأثرت حركته هذه على عقل "بومبي" فتبع "سيزار" واتخذ طريقا غير الذي سلكه "سيزار" فنجح "سبيو" . وقد وصل "سيزار" أولا ولكنه بدلا من أن يدفع جنوده الى الاستحکامات أتاح "لبومبي" أن يصل . فضياع هذه الفرصة بحسب الظواهر طبقا لقوانين الحرب قد يكون سببه ما علق بذهن "سيزار" من أنه بعد الذي حصل في "ديراكيوم" لابد من محرض "قوى" يحرض "بومبي"

القسم الشرقي من البحار الأبيض المتوسط

أسيال انجليزية



على قبول التزال في معركة في العراء . فإذا كان الأمر كذلك فقد أصاب لأن قواد "يومبي" وجدوا صعوبة في حظه على قبول المعركة مع أنه كان متفوقا عددا بنسبة واحد الى اثنين . وما كاد "سيزار" يهيئ سلسلة من المناورات ليوجد الفرصة حتى تقدم "يومبي" وهياها له في "فارسالوس" (فرسالة) فن وجهة مصلحة "سيزار" كانت المعركة سابقة لأوانها من غير شك وذلك بنسبة قرب حصول النتيجة النهائية . لأن اقتراب "سيزار" اقترابا غير مباشر كان بنية استرجاع الموازنة الاستراتيجية فكان عليه أن يقترب اقترابا آخر لقلب موازنة "يومبي" رأسا على عقب . وهذا الاقتراب هو الذي قام به يومبي .

وبعد انتصار "سيزار" في "فارسالوس" طارد "يومبي" عبر بوغاز الدردنيل (أى الى الجانب الآخر منه) ومن خلال آسيا الصغرى . ومنها عبر البحر الأبيض المتوسط الى الاسكندرية حيث قتله "بطولومي" (بطليموس) غيلة وأراح منه "سيزار" . على أن "سيزار" أضاع الفائدة بتدخله في النزاع القائم بين بطليموس وأخته كليوبترا من جراء عرش مصر فأضاع بذلك ثمانية أشهر قضاهما في حرب لا ضرورة لها مطلقا . والذي يلوح هو أن عيب "سيزار" المأصل فيه الذي كان يعاوده كثيرا هو توجيه كل التفاته نحو الغرض الذي أمام عينه مباشرة واغفال الغرض الأبعد منه .

وهذه الفترة مكنت القوات اليومية من التجمع والشروع في حياة جديدة في أفريقيا وأسبانيا . أما في أفريقيا فقد ازدادت مصاعب "سيزار" بسبب "العمل المباشر" الذي كان نائبه "كورنيو" ألفه من قبل . فان (كورنيو) بعد أن نزل الى البر وفاز بالنصر الأول مكن الملك "جوبا" حليف حزب "يومبي" من استدراجه الى شرك نصبه له فأباده . وأما "سيزار" فانه افتتح حملته الأفريقية بنفس استقامة الاتجاه . والاندفاع ، وعدم كفاية الجنود التي كان عليها في حملته الاغريقية . فكان يقع في الشرك كعادته ويخلص نفسه بما اعتاده من حسن الحظ والمهارة التكتيكية معا . وبعد ذلك استقر في معسكر محصن بالقرب من "روسينا" في انتظار وصول فرقه (لجيوناته) الأخرى رافضا كل اغراء على دخول المعارك . وتملكته خلة حقن الدماء بالتمسك المناورات الى درجة أنه حتى بعد وصول المدد اليه كان يتبع استراتيجية تتطوى على اقتراب غير مباشر لدرجة متطرفة ضيقة الحدود . فكان يقوم بالمناورة عدة مرات لكي يوقع بخصمه ونحرا كوخز الإبر ظهرت نتائجها في قوة العدو المعنوية بعدد الفارين من جيشه الذين كانوا يتدفقون تدفق السيل . وفي آخر الأمر اقترب من قاعدة العدو الكائنة في "نابسوس" اقترابا أكثر بعدا عن الاستقامة المباشرة فأوجد فرصة ملائمة للمعركة . فما كان من جنوده الا أن جمحوا فاندفعوا للهجوم وربحوا المعركة من تلقاء أنفسهم . أما في حملته الأسبانية التي جاءت بعد ذلك وكانت ختام الحرب فانه اجتهد من أول الأمر أن يتجنب ائتلاف الأنفس وكان لا ينقطع عن المناورات في حدود ضيقة حتى يجعل عدوه في وضع

يضمن له طالع المعركة . وقد فاز بذلك في ”موندنا“ ففاز بالنصر على أن ضيق مجال النضال وفداحة الخسائر في الأنفس التي تكبدها في هذه المعركة بسببه تبين الفرق بين الاقتصاد في القوة ومجرد الحرص على القوة . فاقتراب ”سيزار“ غير المباشر يظهر عليه ضيق الحدود ، ونقص المفاجأة . ففي كل حملة من حملاته كان يتعب قوة العدو المعنوية ولكنه لا يزرعها . ويظهر أن السبب في ذلك هو أنه كان يوجه التفاته الى عقلية جنود العدو أكثر من توجيهه الى عقلية قائدهم . ولكن اذا كان من شأن حملاته أن تؤدي الى التمييز بين احدى صفتي الاقتراب غير المباشر والأخرى — أى الاقتراب من جنود العدو ومن قائدهم — فانها تبين أيضا بصورة بارزة الفرق بين الاقتراب المباشر ، والاقتراب غير المباشر . لأن ”سيزار“ كان يؤوب بالفشل في كل مرة يعتمد فيها على الاقتراب المباشر كما كان يصاح خطأه ويعوض الفشل في كل مرة يرجع فيها الى الاقتراب غير المباشر .

الباب الرابع

حروب القرون الوسطى

هذا الباب هو عبارة عن مجرد حلقة اتصال بين دورات التاريخ العتيق والتاريخ الحديث لأنه بالرغم مما فى عدة من حملات الأعصر الوسطى الحربية من الاغراء والترغيب فان المصادر التى نستخدم منها معلوماتنا عنها أضعف بكثير من مصادر العصور التى تقدمتها والتى أعقبتها وأقل منها ثقة . والطريق الأمين لاستنتاج العلل ونتائجها فى الحقائق العلمية هو أن تؤسس تحليلنا للتاريخ على حقائق ثابتة وتتجاوز عن بعض أزمنة حتى ولونضحى فى هذا التجاوز بأدلة مؤيدة ذات قيمة ، متى قضت الضرورة بالاختيار بين أوجه النقد المتضاربة فيما يختص بالمصادر التاريخية أو المنصوص عنها فى الكتب . نعم ان الجدل قد احتدمت سورته فى تفصيلات التاريخ الحربى للقرون الوسطى من الوجهة التكتيكية لا من الوجهة الاستراتيجية ، ولكن تضارب الآراء فى هذا الموضوع وما أحدثه من الفموض قد يخفى كلا الوجهتين عن نظر الطالب الحربى العادى ويجعله فى شك من الاستنتاجات المستخرجة عن ذلك العصر . غير أننا نشير إشارة طفيفة الى بعض الحوادث التى وقعت فيه كوسيلة لعرض ما قد تنطوى عليه من الفائدة ومما يستدعى الاهتمام . دون أن ندخلها فى تحليلاتنا الدقيقة .

فتى الغرب فى إبان الأعصر الوسطى كانت الروح العسكرية فى عهد الاقطاعات "الفروسية" معادية للفن . على ان غباءها المطلق من الوجهة الحربية كان يتخلله شىء من الضوء الباهر . ربما كان لا يقل عن نسبة ما تخلل أى عصر من عصور التاريخ .

فالنورمانيون سكان نورمانديا بدأوا بإرسال أول اشعاع من بصيص النور ثم أخذ نسلهم يضيء سبيل حروب الأعصر الوسطى وسيرها بدلا من سفك دمائهم . وعلى كل حال فان ما أعطوه لهذه الحروب من القيمة أدى بهم الى بذل عصارة أذهانهم بدلا من بذل دمائهم وقد عاد عليهم ذلك بفائدة تذكر .

فالتاريخ الذى يعرفه كل ولد من أولاد المدارس ، ان لم يعرف غيره ، ألا وهو سنة ١٠٦٦ قد سطع فيه نور ضريين من الاستراتيجية والتكتيك ، فهما من المهارة بقدر ما كانت نتيجهما حاسمة لا بالنسبة لغرضها الخاص فقط ، بل كانت ذات أثر على كل مجرى التاريخ . فان غزو "وليم" لبلاد الانجليز قد استفاد من تحويل استراتيجى (أى إرباك العدو وإيقاعه فى حيرة) . وبهذا التحويل اكتسب فضيلة الاقتراب غير المباشر من بادئ الأمر . هذا التحويل كان عبارة عن نزول "توستيج" الذى كان نائرا على أخيه الملك "هارولد" الى البر على شاطئ

”يوركشير“ ومعه حليفه، ”هارولد هاردرادا“، ملك ”النورويج“ ومع ان هذا الخطر كان يظهر أنه أقل قربا من خطر غزوة ”وليم“ فانه كان أسرع منها في تطوره ونموه . ولذلك زاد الخطط التي وضعها ”وليم“ قوة وان كان ”توستيج“ قد لاقى الهزيمة في أونها . وبعد ابادة غزاة قبائل الشمال (الاسكندينايف) على جسر (كوبري) ”ستامفورد“ بيومين . نزل ”وليم“ الى البر على شاطئ ”ساسكس“ . وهنا بدت أول بوادر ”وليم“ العبقريّة . فانه بدلا من أن يزحف نحو الشمال استدرج ”هارولد“ الى الاندفاع نحو الجنوب لا يلوى على شيء وليس معه الا جزء من قوته . وذلك بأن عمل السلب والتخريب في مقاطعتي ”كنت“ و”ساسكس“ . فكلما ابتعد ”هارولد“ نحو الجنوب وكلما بادر بالنزال في معركة كلما اتسع المدى بينه وبين مدده سواء في المسافة وفي الزمن . وهذا الحساب قد بررته الحوادث واشتبك ”هارولد“ في معركة ، لما اضطره اليها ”وليم“ ، على مرأى من شاطئ القنال (الانجليزى) وحسم ”وليم“ النتيجة التكتيكية باقترب غير مباشر — بأن أمر قسما من جنوده بأن يتصنعوا الفرار فكان ذلك سببا في زحمة أوضاع خصمه . وفي الطور النهائي للمعركة ابتكر ”وليم“ حيلة رمى النبال بزوايا مرتفعة تسبب عنها موت ”هارولد“ . وهذه يصح تسميتها اقتراب برمي غير مباشر .

ثم ان استراتيجية ”وليم“ بعد هذا الانتصار كانت مما يستحق التنويه بدرجة لا تقل عن سابقتها . ذلك أنه بدلا من السير الى ”لندن“ مباشرة أمن ”دوفر“ في بادئ الأمر ومواصلاته البحرية . وعند وصوله الى ضواحي لندن تحاشى أى اقتحام مباشر ، بل انه استعاض عنه برسم دائرة حولها من جهة الغرب ثم من جهة الشمال . وهى دائرة مملأها بالتخريب والاتلاف حتى سلمت العاصمة بعد أن تهدمتها المجاعة حينما وصل ”وليم“ الى ”بركهاميستد“ .

وشاهد القرن التالى أدلة أخرى على عبقرية النورمانيين في الحروب كما شاهد حملة حربية من أشد حملات التاريخ إثارة للدهشة . تلك هى غزو القسم الأعظم من ايرلندا ، وقيام ايرل ”سترونججو“ وبضع مئات من فرسان مستنقعات بلاد ”الويلز“ بصد غزو نورمانى قوى . وهو عمل مجيد جدير بالذكر لا بسبب الضالة المتناهية فى الوسائل ومنتهى الصعوبات فى البلاد ذات الغابات والمستنقعات فقط ، بل أيضا بسبب الخلق فى التخلّى عن طرائق الحرب التى كانت على عهد الإقطاعيات واتباع عكسها . فقد أظهروا براعة وحسن حساب فى طريقة استدراج عدوهم الى المعارك فى العراء مرارا وتكرارا ، حيث كانت هجماتهم فوق ظهور الخيل تنمّر الى أكل حد . وذلك بطريقة استغلال الرجعات المصطنعة ، والتحويل (تشتيت أفكار العدو) ، والهجمات الخلفية للتغلب على مقاومته . ثم بالمفاجآت الاستراتيجية ، والهجمات الليلية ، ورمى النبال للتغلب على المقاومة حينما يتعذر عليهم استدراج العدو الى الخروج من مكانه فى الدفاعات المحصنة .

على أن القرن الثالث عشر كان أكثر إثمًا من الوجهة الاستراتيجية. وأول ثمرة ظهرت في سنة ١٢١٦ حينما أُنقذ الملك "جون" مملكته بعد أن كاد يفقدها . وذلك بحملة حربية كانت فيها الاستراتيجية الخالصة غير مختلطة بالمعارك . وكانت وسائله اذ ذاك سرعة الحركة وخفتها ، وقوة المقاومة المتوفرة في القلاع في ذلك الوقت ، ونفسية أهالي المدن الموروثة عن كراهيتهم للبارونات وحليفهم الأجنبي "لويز" ملك فرنسا . ولما احتل "لويز" لندن وونشستر بعد أن نزل الى البر في "كنت" الشرقية كان "جون" ضعيفا لدرجة أنه لم يستطع مقاومته في معركة . فكان البارونات متسلطين على القسم الأعظم من البلاد . على أن "جون" مازال محافظا على قلاع "وندسور" و"ردنج" و"النجفورد" و"اكسفورد" التي كانت حاكمة على خط "التميز" وفاصلة لقوات البارونات الموجودة شمالها وجنوبها ، بينما كان معقل "دوفر" الذي هو المفتاح باقيا على مؤخرة "لويز" ولم يستول عليه . وكان "جون" قد رجع الى "دورست" ولكن لما زاد الموقف وضوحا سار الى جهة الشمال في يوليو حتى "ورسستر" واستولى على خط نهر "السفرن" وبذا أقام حاجزا يمنع طغيان الثورة وامتدادها غربا والى الجنوب الغربي . ومن هناك تحرك نحو الشرق على طول خط التميز المكتسب من قبل كانه يقصد خلاص "وندسور" .

ولكى يثبت هذا الاعتقاد عند المحاصرين أرسل قسما من رماة القسي "الوالين" (ولش) ليطلقوا سهامهم في معسكرهم ليلا ، بينما تحوّل هو نحو الشمال الشرق فربح السباق الى "كيمبردج" بفضل مبادرته . وأصبح الآن قادرا على اقامة حاجز آخر يعترض الطريق الموصل الى الشمال بينما كانت جنود الفرنسيين الرئيسية مقيدة بحصار "دوفر" . ثم ان احاطته بساحة المقاومة والعصيان وتضييق حدودها كان معناها فشل العصاة وحلفائهم برغم أن "جون" نفسه توفي في شهر أكتوبر . واذا كان موته بتخمة من أكل السمك فقد كان موتهم بتخمة الاثثار من الحصون .

أما الثورة التالية الناجحة التي ثارها البارونات فقد أُنحدها الأمير "إدوارد" الذي صار فيما بعد "إدوارد الأول" ، في سنة ١٢٦٣ ، بفضل مهارته الاستراتيجية . ثم كانت نتيجة هزيمة الملك "هنري" الثالث في "لويز" استقرار سلطة حزب البارونات في معظم أنحاء إنجلترا الا في مستنقعات بلاد "الويلز" . فسار اليها "سيمون دومونتفورت" ، وعبر "السفرن" ثم توغل في طريقه ظافرا حتى وصل الى "نيوبورت" . بجاء البرنس "إدوارد" الذي فر من جيش البارونات وانضم الى أتباعه الموجودين ببلاد الحدود وزعزع الخطط التي وضعها "دومونتفورت" باستيلائه على جسور (كباري) "السفرن" الكائنة وراء "دومونتفورت" ثم تحرك هابطا على مؤخرته . ودفعه "إدوارد" فردة لا الى ما وراء نهر "الأوسك" فحسب ، بل انه أغار على سفنه ، بثلاث سفن من ذوات المحاديف ، فأفسد خطته الجديدة للرجوع بجيشه الى إنجلترا

بطريق البحر . فاضطر "دومونتفورت" لأن يسير سيرا ملتفا شاقا الى جهة الشمال مجتازا مقاطعات بلاد "الويلز" القحلاء بينما رجع "ادوارد" الى "ورستر" ليرابط على نهر "السفرن" وينتظر وصوله . ولما سار ابن "دومونتفورت" لنجدة أبيه بجيش أتى به من شرق إنجلترا انتفع "ادوارد" بموقعه المتوسط بينهما لسحق كل منهما على حدة وهو منفصل عن الآخر ولا يعلم عنه شيئا . وذلك بالسير ذهابا وجيئة الذي استغل فيه سرعة الحركة وقام بمفاجأتين ساحقتين .

وقد أتيج "لادوارد" وهو ملك أن يخدم العلم العسكري خدمات أجل من تلك في حروبه ببلاد "الويلز" لا بالتوسع في استعمال القوس والجمع بين هجمات الفرسان والرمي بالنبال فحسب ، بل انه زاد على ذلك كثيرا بطرائقه الاستراتيجية في الفتوحات . فكانت المسألة التي تواجهه مسألة اخضاع عنصر جبلي وحشى شديد البأس يستطيع تجنب المعارك بالركون الى التلال ويعود الى احتلال الأودية عند ما يوقف الغازى عملياته في فصل الشتاء . واذا كانت وسائل "ادوارد" محدودة نسبيا فقد كانت لديه ميزة أخرى أيضا هي أن البلاد كانت محدودة كذلك . والحل الذي رآه هو الجمع بين خفة الحركة والنقط الاستراتيجية . فبنى قصورا حصينة في تلك النقط ووصلها بطرق ، ثم أوجد عدوه في حركة دائمة فلم يستطع تجديد قوته الجثمانية والنفسية أو أن يستريح من الوجهة الجغرافية في فصل الشتاء فشنت قوته شذر مذر وأنهك قوة مقاومته . وكما كانت طريقته صورة من طريقة الرومان فقد كانت نموذجا سابقا لطريقتنا في الحدود الشمالية الغربية من الهند .

على أن مواهب "ادوارد" الاستراتيجية لم تعش بعده ، وفي حرب المائة عام لا يوجد شيء يستحق التعلم الا تعلما سلبيا من استراتيجية حفيده أو ابن حفيده . فان المظاهرات التي لا طائل تحتها التي قاما بها في فرنسا كانت لا أثر لها عادة . أما القليل منها الذي كانت له نتائج أعظم فكان وليد حماقتهم المترايدة . فان كلا من "ادوارد" الثالث والأمير الأسود (بلاك برنس) أوقع نفسه في مأزق حرج ، الأول في حملة "كريسي" ، والثاني في حملة "بواتير" . وكلا الحملتين كان غير مباشر بدرجة متناهية جاءت عن غير قصد فان المركز السيئ الذي كان فيه الانجليز حرض خصماءهم البسطاء العقول لأن يندفعوا الى المعركة غير لادين على شيء في ظروف لم تكن في صالحهم بل كانت ضدهم تماما فأتاحوا للانجليز أن يخلصوا أنفسهم من الورطة التي كانوا فيها . فان المعركة كانت دفاعية وفي أرض اختارها الانجليز لأنفسهم فكان من شأن قسمهم الطويلة وتكتيكات الفرنسيين ، في عهد الفروسية والبطولة ، التي لا ثمرة فيها أن أكدنا تفوق الانجليز تكتيكيا .

على أن فداحة هذه الهزائم التي أصابت الفرنسيين في المعارك عادت عليهم بفائدة . فانهم في المرحلة التالية من مراحل الحرب أصرروا على التزام السياسة "الفابية" التي اتبعها الكونستابل "دوجوسلين" . والاستراتيجية التي نفذ بها هذه السياسة كانت عبارة عن تجنب المعارك مع الجيش الانجليزي الرئيسي بينما كان لا ينقطع عن مضايقة حركات عدوه وانقاص أراضيه . فان استراتيجيته كانت بعيدة كل البعد عن الطرائق السلبية بتجنب المعارك ، بل كانت عبارة عن استغلال خفة الحركة والمفاجأة لدرجة لم يصل اليها الا القليل من القادة ، فكان يتصدى لقوافل النقل ويستولى عليها أو يبنيها ، ويبني الأقسام المنفصلة ، ويأسر الحاميات المتطرفة . وكان يسلك دائما الخط الذي هو أبعد ما يتوقعه العدو لقدمه . وكانت طرائقه السريعة الحديثة المنظوية على هجمات الاقتحام ، واختيار أغراضه بتقديرها من الوجهة النفسية حيث تكون الحاميات متبرمة متدمرة أو الأهالي على وشك الخيانة ، كل هذه كانت تساعد على هجمات المفاجأة على مثل تلك الحاميات وكثيرا ما كانت تقع ليلا . وبهذه الطرائق كان يزيد طيب الاضطرابات المحلية ضراما كوسيلة مباشرة لتشيت أفكار العدو وانقاص أراضيه نهائيا .

ففي ظرف أقل من خمس سنين أنقص الممتلكات الانجليزية الواسعة التي كانت في فرنسا الى شقة ضيقة من الأراضي بين "بوردو" و"بايون" . كل ذلك دون أن يقاتل في معركة . وفي الواقع فانه لم يضغط بالهجوم مطلقا حتى ولا على قوة انجليزية صغيرة تكون قد اكتسبت وقتا لاتخاذ أوضاع دفاعية . فقد حافظ القواد الآخرون هم ومقرضو النقود على المبدأ القائل : « لا تقديم أو (زحف) من غير تأمين » . أما مبدأ "دوجوسلين" فكان « لا هجوم من غير مفاجأة » .

والمحاولة الجديدة التي قام بها الانجليز لغزو بلاد أجنبية للمرة التالية كانت على أقل تقدير قائمة على طرائق منتظمة وعلى تقدير الغاية والوسائل — بعد أن ابتدأت بالتهور . لأن أشهر حملات "هنري" الخامس كانت أكثرها طيشا . ففي الموكب « الادواردى » الذي انتهى في "آجنكور" كان الفرنسيون ما عليهم الا أن يسدوا الطريق أمام "هنري" ليضمنوا سقوطه بالمجاعة . ولكن قادتهم نسوا الدروس التي تلقوها في "كريسى" وتعليم "دوجوسلين" . فقد ظنوا أنهم مع تفوقهم عددا بنسبة أربعة الى واحد يكون من العار عليهم أن يستخدموا هذا التفوق بشيء غير الهجوم المباشر . وبذا هياؤا أنفسهم لعار أكبر بتكرير ما حصل في "كريسى" و"بوانير" . وبعد نجاة "هنري" بهذه الكيفية استخدم ما قد يسمى استراتيجية «نظام الكحلة» . فكان يرمى الى فتح مستديم بالتوسع في امتلاك الأراضي بطريقة منتظمة كانت تنال على استرضاء السكان كوسيلة لتأمين تملكه . أما أهمية حملات هنري التي أعقبت ذلك وما لها من القيمة فهي في الاستراتيجية العظمى التي اتبعها فيها لا في استراتيجيتها .

ففى موضوع الاستراتيجية يصح أن نختم ملاحظتنا عن الأعصر الوسطى بعهد "ادوارد" الرابع الذى اكتسب عرشه فى سنة ١٤٦١ ثم استرجعه مرة أخرى فى سنة ١٤٧١ باستخدامه حفة الحركة بصفة خصوصية بعد أن كان منفيا .

فى الحملة الأولى كانت النتيجة ناشئة بصفة رئيسية عن سرعة الحكم فى الأمور وسرعة الحركة . فقد كان ادوارد مشتبكا مع اللانكستريين المحليين فى بلاد "الويلز" عند ما بلغه خبر هبوط جيش اللانكستريين الرئيسى على لندن . فلما رجع وصل "جلوستر" فى ٢٠ فبراير وبها سمع بانتصار اللانكستريين فى ١٧ فبراير على قوة اليوركين التى كانت تحت إمرة "واريك" فى "سانت البانز" والمسافة بين "سانت البانز" و"لندن" هى ٢٠ ميلا ، ومن "جلوستر" الى لندن أكثر من ١٠٠ ميل فكان لدى اللانكستريين مهلة ثلاثة أيام . ولكن فى ٢٢ فبراير لما كان فى "بوفورد" انضم اليه "واريك" ثم بلغه أن مجلس بلدية لندن ما زال يجادل فى شروط التسليم وأبوابها مقفلة . فبارح "بوفورد" فى اليوم التالى ودخل لندن فى ٢٦ فبراير ونودى به ، اذ ذاك ، ملكا بينما رجع اللانكستريون الى جهة الشمال يحرون أذبال الخيبة . ولما اقتفى أثرهم كانت مجازفا مجازفة كبرى بمهاجمته عدوا يفوقه عددا مستقرا فى موقع اختاره لنفسه فى "طاوون" . على أن مرؤوسه "فوكو نبرج" استغل هبوب عاصفة ثلجية فاسترد له الميزة بأن أخذ يرمى المدافعين الذين أعمتهم الثلوج بالنبال فضايقهم الى أن أرادوا الخلاص منه بهجمة لا نظام فيها .

أما فى سنة ١٤٧١ فكانت استراتيجية "ادوارد" تنطوى على كثير من الدهاء وخفة الحركة . فانه كان أضاع عرشه ولكن صهره أقرضه خمسين ألفا (من النقود) . ومع ذلك فلم يتجاوز رأس ماله علاوة على ذلك ١٢٠٠ من الأتباع وبضع رسائل من معصديه السابقين فى انجلترا يعدونه فيها بالمساعدة . ولما أفلح من مينا "فلشنج" كانت شواطئ انجلترا تقوم عليها الحراس لمنعه . ولكنه اتبع الخط الذى هو أقل الخطوط انتظارا (أى آخر ما يظن العدو أنه يسلكه) حتى رسا الى البر فى نهر "الهمبار" حاسبا بمهارته أن هذه الجهة نظرا لعطف أهلها على اللانكستريين ومشايعتهم لهم لا يقوم عليها حراس . فتحرك بسرعة قبل أن ينتشر خبر نزوله الى البر ويجمع أعداؤه ، فوصل الى "يورك" . ومنها سار هابطا على طريق لندن ثم تفادى ببراعته من قوة كانت تسده فى "ناد كاستر" بأن تحول عن طريقه حتى مر بها . فسبق هذه القوة التى قفلت راجعة لتعقبه الى أن هدد قوة أخرى كانت تنتظره فى "نيوارك" فارتدت شرقا . وعندها اتجه "ادوارد" نحو الجنوب الغربى الى "ليستر" وهناك ازداد أتباعه . ثم انه سار بعد ذلك الى "كوفنترى" حيث كان "واريك" اشد مقاوميه يجمع جنوده . وبعد أن استدرج القوتين المتعقبين له الى ذلك المكان أيضا وأخذت قوته تزداد

على حساب العدو ، اتجه نحو الجنوب الشرقى وسار الى لندن مباشرة ففتحت له ابوابها .
والآن وقد شعر بقوة لدرجة يتقبل معها الاشتباك في معركة خرج للملاقاة متعقبيه ، الذين
خدعهم كل هذه المدة عند وصولهم الى "بارنت" واشتبك في معركة سادها الضباب والفضوى
انتهت في صالحه .

وفي نفس اليوم نزلت "مارجاريت أنجو" ، ملكة لانكستر الى البر في "ويموث" ومعها
بعض ماجورى الفرنسيين . وبعد أن جمعت أتباعها في الغرب سارت لتنضم الى الجيش الذى
كان إيرل "مبوك" قد جمعه في بلاد "الويلز" . فاستعان "ادوارد" بالسرعة مرة أخرى
ووصل الى حافة تلال "كوتسولدس" بينما كانت جيشها سائرا نحو الشمال على جانب طريق
"برستول" و "جلوستر" في الوادى أسفل منه . وأخذ الجيشان يتسابقان طول اليوم .
أحدهما في بطن الوادى ، والآخر فوق المرتفعات المشرفة عليه . فلحق هو بجيشها مساء
في "تويكربرى" ، بعد أن منعه من عبور نهر "السفرن" في "جلوستر" بأن أرسل أمرا قبل
ذلك الى الكونستابل ليقفل الأبواب . وقد قطع في ذلك اليوم نحو أربعين ميلا منذ الفجر
الى أن حل الليل . وفي تلك الليلة عسكر قريبا من اللانكستريين بحيث لا يستطيعون الفرار .
وكان موقعهم قويا من الوجهة الدفاعية . على أن "ادوارد" استخدم القذائف الثقيلة والنبال
لمضايقتهم حتى يخرجوا للهجوم . وبهذه الوسيلة اكتسب ميزة كانت حاسمة في المعركة التى
نسبت في الصباح .

فاستراتيجية "ادوارد" كانت تمتاز بخفة الحركة بصفة خصوصية ، ولكنها من حيث
نقص الخيلة والدهاء كانت على مثال طراز ذلك العصر . لأن استراتيجية الأعصر الوسطى كان
من عاداتها أن تجعل غايتها الوصول الى معركة بالطرق البسيطة المباشرة . فان لم تكن النتيجة
غير حاسمة ، فانها في العادة تكون حاسمة ضد من يسعى لها الا اذا أمكنه أن يستدرج المدافع
لأن يكون هو المعتدى تكتيكيا .

وأحسن أمثلة الاستراتيجية في الأعصر الوسطى هو ما جاء من الشرق لا ما جاء من الغرب
لأن القرن الثالث عشر ، الذى كان ممتازا في الغرب ، أصبح بارزا بين العصور بسبب
الدروس المدهشة التى لقيتها استراتيجية المغول لعهد الفروسية الأوربية . فان حملاتهم تنافس
ان لم تفق كل الحملات التى عرفها التاريخ ، سواء في نطاقها ، وفي صفاتها ، وفي المفاجأة ،
وخفة الحركة ، وفي الاقتراب الاستراتيجى والتكتيكى غير المباشر . فاننا نستطيع أن نتبع
استخدام "جنغيزخان" و "تايونج - فو" طعنا لسلسلة من الحبال التى نصبتها في فتحه بلاد
الصين ، كما استخدم "بونابارت" بعده قلعة "مانتاو" . ثم انه بحركاته المترامية النطاق وإشراكه
ثلاثة جيوش معا تمكن في آخر الأمر من تحطيم وحدة الأمبراطورية الصينية من الوجهتين

الأدبية والحربية . ولما غزى أمبراطورية "الخوارزم" في سنة ١٢٢٠ التي كان مركز قوتها في "تركستان" الحديثة أرسل قوة تستجلب نظر العدو وتحول فكره نحو الاقتراب من "قشغر" جنوبا . ثم ظهرت القوة الرئيسية في الشمال . أما هو فقد استر وراء عمليات هذه القوة ودار دورة شاسعه يجيشه الاحتياطي واختفى في صحراء "قيزيل - قوم" وخرج منها فجأة في "بخارا" وراء خطوط العدو الدفاعية ووراء جيوشه .

وفي سنة ١٢٤١ خرج "صابوتاي" ، أحد قواد "جنغيزخان" ليلقي دروسا على أوروبا . فسار جيش من جيوشه مخترقا "غاليسيا" بصفته حرسا جانبيا استراتيجيا فاستلفت أنظار أعدائه البولنديين والألمان والبهيميين واجتذبا اليه علاوة على انزال هزائم بهم كانت موفقة . في حين أن الجيش الرئيسي سار في ثلاث قولات كل منها منفصل عن الآخرين بمسافة واسعة واكتسح بلاد المجر (الهنگار) حتى وصل الى نهر "الدنوب" . فكانت القولان الخارجيان بمثابة وقاية وستر للقول الثالث الوسطى في بادئ الأمر الى أن اتسع المجال للقول الثالث فيما بعد ودهلت حركته . وبعد ذلك تجمع الجيش كله والتقى على نهر "الدنوب" بالقرب من "جران" ، ولم يعقه عن مواصلة الزحف الا تجمع الجيش المجرى على الشاطئ الآخر . فتقهقر المغول تدريجيا بمهارة فائقة مستدرجين عدوهم من ملجئه على النهر فأبعده عنه وعن وصول المدد اليه .

وأخيرا قام "صابوتاي" بمناورة ليلية سريعة وفاجأ الجيش المجرى على نهر "السوهر" فزحزحه من مكانه وأباده . فأصبح سيدا على سهول أوروبا الوسطى الى أن تنازل من تلقاء نفسه بعد ذلك بسنة عما فتحه من البلاد . وكان لانسحابه دهشة وارتياح في أوروبا التي عجزت عن اخراجه بالقوة (*) .

(*) قد عالج المؤلف في كتابة المسمى "كشف الستار عن كبار القادة" استراتيجية المغول وكتبها بهم بتفصيل واف ،

الباب الخامس

القرن السابع عشر - جوستافوس ، كرومول ، تورين

لقد جئنا الى أول "حرب عظمى" في التاريخ الحديث . فقد حصل عرضا أن الذين يستعملون هذا العنوان للحرب التي وقعت في سنة ١٩١٤ - ١٩١٨ جاؤا متأخرين في هذه التسمية التاريخية بعض التأخير . فان هذا الاسم حتى قبل ثلاثة قرون كان قد خلقت جدته من كثرة الاستعمال .

وحرب الثلاثين سنة لا تكشف عن حمله حربية يصح تسميتها حاسمة . وأقرب حملة فيها الى هذه التسمية هي المبارزة التي حصلت في نهاية الأمرين "جوستافوس" و"النشتاين" وهي التي بسبب موت "جوستافوس" في المعركة النهائية التي وقعت في "لوتسن" كانت حاسمة من وجهة أنها حالت دون امكان ، بل ودون احتمال قيام اتحاد بروتستانتى عظيم تحت زعامة سويدية . ولولا تدخل الفرنسيين واغتيال "والتشتاين" لكان من المحتمل أن تكون حاسمة في تأسيس اتحاد ألماني قبل حصوله بما ينوف على ثلاثة قرون . فهذه النتائج والاحتمالات التي كان بعضها حاسما ، لاشك في أنها اكتسبت بطرق غير مباشرة . لأن المعركة النهائية وهي المعركة الحقيقية الوحيدة التي دارت رحاها ، انتهت بهزيمة الذين رجحت كفتهم في الحرب بسببها ، وان كانت المعركة في حد ذاتها ما زالت غير حاسمة . ومع ذلك فان هذه الهزيمة وان كانت ناشئة عن ضعف آلة "والتشتاين" الحربية بالنسبة لآلة السويديين من جهة ، فقد كانت من جهة أخرى بسبب عجز "والتشتاين" عن الانتفاع تكتيكيا بالفرصة الاستراتيجية التي كانت لديه . اذ لاشك أنه كان قد حصل على ميزة حقيقية جدا قبل المعركة . ومما هو جدير بالذكر أن ما تم كان نتيجة لا لاقتراب واحد غير مباشر فقط ، بل كان نتيجة لثلاثة اقترابات متوالية غير مباشرة - كانت في الواقع سببا لتغيير مجرى الحرب بأجمعه . فان "والتشتاين" لما استدعاه ثانيا العاهل الذي كان أساء اليه ، ونزل الى أسفل درك في استعطافه ورجائه لأن يتولى قيادة جيش لاوجود له ، جمع في ظرف ثلاثة أسابيع نحو ٤٠,٠٠٠ جندي ممن يسمون مقاليد أمورهم للأقدار ، اجتذبتهم أبهة اسمه . ثم انه بالرغم من التماس "بافاريا" العون منه اذ كان ، اذ ذاك جيش جوستافوس الظافر يكتسح أراضيها ، اتجه نحو الشمال قاصدا "السكسونيين" حلفاء "جوستافوس" الضعفاء . وبعد أن طردهم من "بوهيميا" تحرك نحو سكسونيا نفسها . حتى أرغم أمير "بافاريا" ، على غير رضاه منه لأن يضم جيشه الى جيشه . وبذا كان يظهر أنه ترك "بافاريا" أعجز ما تكون عن الدفاع عن نفسها .

ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . وقد بررت الحوادث ما حسبه "والنشتاين" لأن "جوستافوس" لما أصبح مهددا بفقد حليفه الأصغر اضطر لأن يهجر "بافاريا" ويسرع لجددة حليفه . غير أنه قبل أن يصل كان "والنشتاين" والأمير قد اجتمعا معا . فلما واجههما "جوستافوس" اضطر لأن يتقهقر الى "نورنبورج" ، فبعسه والنشتاين اليها . ولكنه لما رأى السويديين مستحكين في مواقع قوية قال لنفسه : « لقد وقع من المعارك ما فيه الكفاية . فقد آن الأوان لأن نجرب طريقة أخرى » . فبدلا من أن يضع جنوده الجديدة أمام السويديين الذين بقوا زمنا طويلا لم يغلبوا ، خندق في موقع آمن يستريح فيه جيشه فيزداد ثقة يوما عن يوم بينما تستطيع فرسانه الخفيفة التحكم في الخط التي يتمون منه "جوستافوس" . فلازم هذه الطريقة وهذا الغرض ولم يتحول عنهما .

وكلما طلبه "جوستافوس" الى التزال في معركة أعاره أذنا صماء الى أن لاح شبح المجاعة أمام عين ملك السويد فحاول اقتحام موقع والنشتاين ولكنه أخفق وارتد خائبا . فكان هذا الاخفاق حادثا سيئ الطالع من الوجهة العسكرية لا غير . أما من الوجهة السياسية فان جميع أنحاء أوروبا تجاوبت بأصدائه . لأنه وإن لم يرحح "جوستافوس" فقد أضر بتفوقه الأدبي الذي ناله بانهتصاراته الكثيرة . وكان سببا في افلات الولايات الألمانية من قبضته . أما "والنشتاين" فكان يجمع بين ادراك حقيقة قلة ما لديه من الوسائل ، وبعد النظر في حساب الغاية « الاستراتيجية العظمى » .

فسار "جوستافوس" من "نورنبورج" نحو الجنوب قاصدا "بافاريا" مرة أخرى — أما والنشتاين فانه اتجه نحو الشمال قاصدا سكسونيا . فكان من شأن هذه الحركة الدالة على المقدرة أن أرجعت "جوستافوس" على عقبيه لقوره كما فعلت سابقتهما . غير أنه جد في سيره بهمة كبيرة فوصل قبل أن يتمكن "والنشتاين" من ارهاب السكسونيين وعقد صلح منفصل معهم . فشبت بين الفريقين معركة طاحنة قاتل فيها كل منهما قتال اليأس وانتهت بأن استرد الجيش السويدي هزيمته الاستراتيجية بفوز تكتيكي . على أن ثمن هذا الفوز كان موت قائده وسقوط مشروعه وهو ايجاد اتحاد بروتستانتي تحت ادارة سويدية . واستمرت الحرب بعد ذلك ست عشرة سنة أخرى بلغ فيها الاعياء والملل منهاهما وتركت ألمانيا صحراء قاحلة . وأسلمت فرنسا زمام قياد أوروبا السياسي .

والتناقض البارز بين الحروب الأهلية التي وقعت في بريطانيا العظمى سنة ١٦٤٢ — ٥٢

وحروب القرن السابع عشر في قارة أوروبا ، الذي اعتاد المؤرخون أن يشيروا اليه ، هو فيما امتازت به الأولى من تلك الروح التي كانت ترغم على البت والحسم . فالروح التي كانت سائدة في بلاد الانجليز مدة دوام هذا النضال العظيم الأخير هي التي عبرت عنها خير تعبير « مذكرات

فارس» (كافالير) حيث جاء فيها — «اتنا لم نقم في معسكر ولم نتحصن مطلقا ولم تقبع وراء سياج من الأنهر أو المضائق ، والقول المشهور في مدة تلك الحرب هو — أين العدو ؟ دعنا نسير اليه ونقاتله »

ومع ذلك فإن الحرب الأهلية الأولى استطال أمدها مدة أربع سنين دون أن تقع فيها معركة حاسمة حقيقية ، إلا من الوجهة التكتيكية . ولما آذنت بالانتهاء في سنة ١٦٤٦ غادرت جمر الملوكة خابيا تحت الرماد الى أن وقع الشقاق بين الظافرين فأذكى أوارها وأوقد لهيبها من جديد فنارت مرة ثانية بعد الأولى بسنتين بأشد مما كانت عليه الأولى من العنف .

وإذا بحثنا عن سبب انعدام الحسم بالرغم من أن روح الحسم كانت بادية فأننا نلاحظ أن الحملات العسكرية كانت عبارة عن زحف مباشر متكرر يقوم به هذا الفريق أو ذاك على الآخر يتخلله أحيانا ما قد يسمى في عرف الاصطلاح الحديث عمليات ”التشطيب“ التي لم يكن لها سوى أثر زائل — كل ذلك يثنى هو استنزاف القوى .

ففي بادئ الأمر كانت قوات الحزب الملكي متخذة قواعد في البلاد الغربية والمتوسطة . أما الحزب البرلماني فكانت قاعدته لندن . وأول زحف على لندن قام به الملوكيون انتهى بخيبة ليس بعدها خيبة في ”تورنهام جرين“ وعار ما بعده عار . حتى أن هذه الخاتمة كثيرا ما وسمت باسم ”قالمى“ الحرب الأهلية . وهي نتيجة أدبية لمعركة ”إدجهل“ التي سالت فيها الدماء أنهارا ولم تكن حاسمة ، وهي المعركة التي نشبت بين الجيشين الرئيسيين أثناء الطريق . ومن ذلك الحين أصبحت ”أكسفورد“ وما حوالها من المدن هي المحور المستحكم الذي تدور حوله جنود الملوكيين . وبقى الجيشان المتحاربان على حافة هذه المنطقة مدة طويلة يواجه أحدهما الآخر بلا أثر يذكر ، بينما كان النضال سجالا بين القوات المحلية والأقسام المنفصلة الموجودة غربا وشمالا . وأخيرا اضطر الجيش البرلماني الذي كان تحت إمرة ”إسكس“ أن يزحف في شهر سبتمبر سنة ١٦٤٣ لخلاص ”جلوستر“ وفك الحصار عنها لما أصابها من الضيق . فدار دورة ضيقة مارا بجناح منطقة ”أكسفورد“ . فتمكن بذلك الملوكيون من سد الطريق أمامه . فعاد الجيشان واصطدما اصطداما مباشرا في ”نيو برى“ لم يسفر عن نتيجة حاسمة . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن ينتهي هذا النضال المتعب على أثر ذلك الاصطدام لولا الخطأ السياسي الذي وقع فيه ”شارلس“ بعقده هدنة مع العصاة الإيرلنديين كانت في ظاهرها ترمي الى اخضاع إنجلترا البروتستانتية لكاثوليك إيرلنده . بغايات على العكس إذ أتت من الجهة الأخرى بأسكولنده البرسبتيرية وألقته في جانب البروتستانت ضد الملوكيين . ولما زحف جيش اسكتلندا لقتال الملوكيين الموجودين بالشمال ، عاد البرلمان وحشد قواته للزحف على منطقة ”أكسفورد“ مباشرة . فلم يأت هذا الزحف بنتيجة أكثر من احتلال بعض قلاع ، تطرفة . وفي الحقيقة فإن الملك استطاع أن يبعث ”روبرت“ ليحشد

مع الملوكن الموجدون بالشمال على جناح السرعة لمقاومة الاسكتنديين . ولكن لسوء حظه جاءت الهزيمة التكتيكية التي حلت بجنوده في "مارستون مور" فأبطلت تأثير هذه الفرصة الاستراتيجية وزيادة . على أن الظافرين لم يستفيدوا الا قليلا . فان عدم تأثير الحركة الرئيسية التي وجهت الى "أكسفورد" مباشرة أحدث الفزع والفرار بين جنودهم ، حتى انه لولا وجود رجال صادق العزيمة من أمثال "كرومول" لانتهدت بعقد صلح بدافع السامة من الحرب . ولكن من حسن حظ البرلمان كانت قضية الملوكن آخذة في التدهور والسقوط من الداخل أكثر بكثير مما كانت بسبب الضربات الموجهة اليها من الخارج ، وعلى ذلك فانها أصبحت عدوا ضعيفا أدبيا وماديا من الوجهة العددية . ولم يحفظها من السقوط كل هذه المدة سوى خطأ استراتيجية البرلمان ، الى أن جاء "فيرفاكس" و "كرومول" يجيشهما الحديث الذي كان نموذجا يقتدى به فتغلبا عليها في "ناسبي" في سنة ١٦٤٥ وبالرغم من ذلك فان هذا الانتصار التكتيكي الحاسم لم يمنع الحرب من البقاء سنة أخرى .

وعند ما تنتقل الى الحرب الأهلية الثانية نجد صورة غير التي شاهدناها فيما مر ، تمثل فيها العبقريّة المسيطرة في شخص "كرومول" . فان "كرومول" و "فيرفاكس" بدلا من أن يزحفا على اسكتلندا ، بل وبدلا عن محاولتهما لقاء جيش اسكتلندا الغازي ، أسرعا بالحركة ليقضيا على الثورات الداخلية في بلاد الإنجليز . بينما بقي "لامبرت" أمام الاسكتنديين ليؤخر زحفهم ويتقهقروا أمامهم ببطء . والأمر الذي أصدره "كرومول" "بالمعالجة" جدير بالتنويه في هذا المقام نظرا للعقيدة القائلة ، ما دام ، وإذا كان ، العدو الرئيسي قد قضى عليه فلا بأس من ترك الأعداء الصغار ليسقطوا من تلقاء أنفسهم . لأن المرء يجد مع الدهشة أنه من الصعب وجود مبرر تاريخي يبرر هذه القاعدة ، المنطقية في ذاتها ، كما هو من السهل وجود أمثلة لعكسها كللت بالنجاح .

وأخيرا لما سقطت "ممبروك" في ١١ يولييه سنة ١٦٤٨ صار في استطاعة "كرومول" أن يتحرك شمالا . على أنه بدلا من أن يزحف لملاقاة الاسكتنديين مباشرة وهم هابطون بطريق الساحل الغربي ، سار على منحن واسع عن طريق "نوتنجهام" و "دونكاستر" ثم اتجه شمالا — بغرب ليلتي "بلامبرت" في "أونلي" على جناح الجيش الاسكتندي — الذي كان منتشرا بين "ويجان" و "برستون" ويسترجع جناحه الأيسر بفيلق مؤلف من ٣,٥٠٠ جندي تحت إمرة "لانجديل" . وكان لدى "كرومول" من الجنود ما لا يزيد عن ٨,٦٠٠ بما فيها فرسان "لامبرت" وميليشيه "يوركشير" مقابل ٢٠,٠٠٠ للعدو . ولكن هبوطه على مؤخرة قول الاسكتنديين في "برستون" زعزع موازنته واضطره لأن يدور ويقابل "كرومول" جزءا جزءا على التوالي . فانهزم فيلق "لانجديل" في "برستون مور" . وبعد ذلك ضغط "كرومول" على هذا القول متعقبا اياه بعنف فاكسحه أمامه وطرده من خلال "ويجان" ،

و"اتوكستر" و"اشبورن" . وهناك صادمته من الأمام مليشيا الأراضى الوسطى . فكان لتوقيف المايشياله من الأمام وضغط فرسان "كرومول" من الخلف من الأثر ما أبلجأه الى التسليم فى ١٥ أغسطس . وقد كانت هذا النصر حاسما . فانه لم يقتصر على سحق أعداء البرلمان ، بل مكن الجيش من "تطهير" البرلمان ، ومن محاكمة الملك واعدائه .

أما غزوا اسكتلندا ، بعد ذلك ، فهو فى الواقع حرب قائمة بذاتها شنتها السلطة الجديدة التى توطدت الآن ، لإفساد الخطة التى رسمها ابن الملك ، وهو "شارس الثانى" لاسترجاع العرش المفقود بمساعدة اسكتلندا وقتلها فى مهبها . فهى لذلك لا تدخل فى فئة الحملات التى كان لها أثر حاسم على مجرى التاريخ . وهى فى نفس الوقت تشتمل على أدلة تستحق الذكر على عظم درجة تشجيع كرومول باستراتيجية الاقتراب غير المباشر . فانه لما وجد الجيش الاسكتلندى تحت امره "ليزلى" متخذاً موقعا يعترض طريقه الى "ادنبره" ، اقتنع بأن موقف "ليزلى" كان قويا بمجرد مياوشة قام بها للاتصال به . ومع أنه كان على مرأى من غايته التى يقصدها كان لديه من ضبط النفس ما أدى به الى التقهقر الى "مسلبورو" . ولما تحرك "ليزلى" متقدما للقائه أبى أن يشتبك معه فى معركة . وبدلا من ذلك صرف لجنوده مؤونة ثلاثة أيام تمهيدا للمناورة واسعة النطاق يجتاز بها التلال الى "ادنبره" ويأتى على مؤخرة العدو . وعند ما توفى "ليزلى" الى التحرك وسد الطريق أمامه فى تل "كورستوربهان" فى ٢١ أغسطس سنة ١٦٥٠ اجتازا البلاد الى ذلك التل مباشرة ، ما كان من "كرومول" الا أن بحث عن طريق آخر يقترب منه ، مع أنه كان اذ ذاك بعيدا عن قاعدته فقام بمناورة الى يمينه فوجد "ليزلى" معترضا طريقه مرة أخرى فى "جوجبار" فى ٢٢ أغسطس . فمعظم الرجال كانوا فى تلك الحالة يجازفون بالاقدام على معركة مباشرة . ولكن "كرومول" لم يفعل ذلك . بل انه استبعد خسائره — من المرضى بسبب التقلبات الجوية والتعب — ثم رجع الى "مسلبورو" ومنها الى "دنبار" مجتذبا "ليزلى" وراءه . ومع ذلك فانه أبى أن يركب جيشه السفن كما ألح عليه كثير من ضباطه بل انه انتظر فى "دنبار" حتى تحرك أعداؤه فى ٢ سبتمبر ليقطعوا عليه خط رجعتهم الى "برويك" — وبذلك جاء عرضا أنهم أوجدوا "كرومول" على خط رجعتهم هم . وفى صبيحة اليوم التالى قام باقتراب تكتيكى غير مباشر فاجأ به العدو واكتسحه مع أن قوته كانت ضعف قوة "كرومول" . وبذا اختتم بالنصر حملة أبى فيها كل إغراء على ترك استراتيجيته المنطوية على الاقتراب غير المباشر مجازفا فى ذلك على ما يظهر حتى بطالعه وحظه .

وقد مكنت "دنبار" "كرومول" من السيطرة على جنوب اسكتلندا . وابتداء جيش الكنيسة وإزالة المتعاهدين من حساب الحرب باعتبارهم عاملا سياسيا . ولم يبق فى الحساب

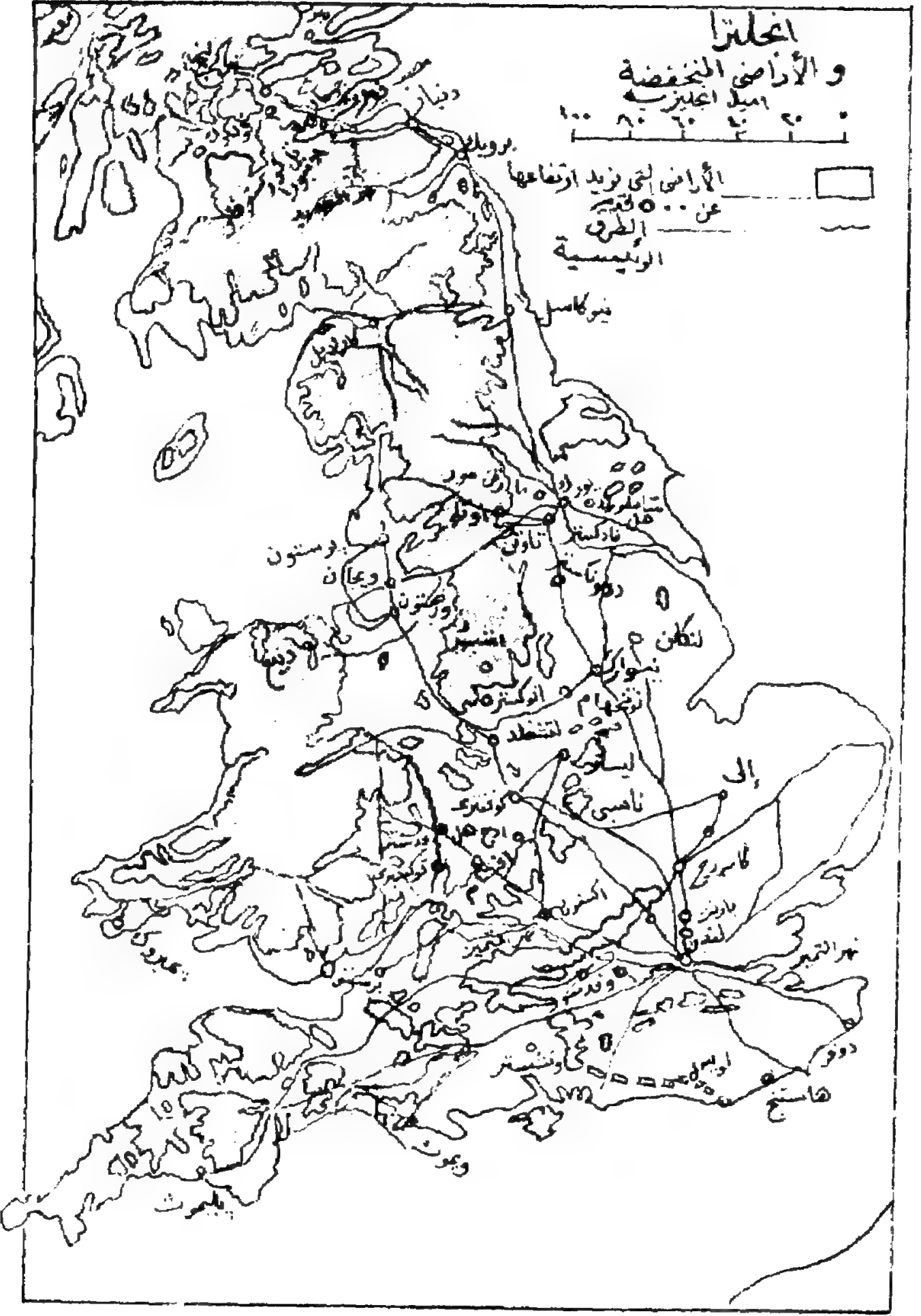
المقابل سوى العنصر المملوكى من "الهالند" (الأراضى المرتفعة) . وقد تأخرت إجراءات التسوية بسبب المرض العضال الذى أصاب "كرومول" . وفى نفس الوقت توفرت لدى "ليزلى" فرصة استغاق فيها ونظم الجيش المملوكى الحديث ودربه فيما وراء نهر "الفورث" .

وعند ما نفع "كرومول" من مرضه فى أواخر يونيه سنة ١٦٥١ وأصبح يستطيع استئناف العمليات واجهته معضلة . وحله للمسائل التى تنطوى على الدهاء ومهارة التقدير مما يقبل المقارنة مع أى تفصيلات استراتيجية رواها تاريخ الحرب . فهو الآن وإن كان التفوق قد أصبح فى جانبه لأول مرة أمامه خصم واسع الحيلة والدهاء مستقر فى جهة كثيرة المستنقعات تتوافر فيها كل المزايا الطبيعية التى تمكن الجانب الأضعف من سد طريق الاقتراب الى "ستيرلنج" . وما لم يتمكن "كرومول" من التغلب على المقاومة فى مدة قصيرة لا بد له من قضاء شتاء صارم آخر فى اسكتلندا فتكبد جنوده من الشقاء ما لا مفر منه ، مع احتمال ازدياد المصاعب فى بلاد الوطن . ثم إن اخراج العدو من مكانه لا يكفى لأن الفوز الذى لا يكون تاما لا ينتج عنه الا تشتت العدو فى النجود المرتفعة فيبقى له بمشابهة شوكة فى جنبه . فلتراقب تفصيلات خطة "كرومول" . فهو أولا يهدد "ليزلى" من الأمام ويقتحم "كالندر هاوس" بالقرب من "فولكرك" . ثم ينقل جيشه بأجمعه عبر خليج "فورت" الى جانبه الآخر مرحلة بعد أخرى ويسير الى "بيرث" . وبذا لا يقتصر على الالتفاف حول الحاجز الدفاعى الذى يعترض طريق الاقتراب المباشر الى "ستيرلنج" ، بل يستولى أيضا على مفتاح الاقليم الذى يستورد "ليزلى" منه مؤونته . على أنه بهذه المناورة قد ترك الطريق الى لندن مفتوحا . وهنا يظهر ما بلغت خطه "كرومول" من سمو التدبير ومنتهى اتساع الحيلة . فهو الآن على مؤخرة العدو المكشوفة وهذا العدو مهدد بالجماعة وفرار رجاله — فترك له منفذا واحدا مفتوحا . وقد قال واحد من الأعداء : "لا بد لنا من الموت جوعا ، أو التشتت والتفرق ، أو السير الى انجلترا بحفنة من الرجال . وهذا رأى الأخير أقلها ضررا ومع ذلك يظهر أنه مقطوع الأمل للغاية" . وقد اختاروا هذا رأى الأخير بطبيعة الحال ، ففى ٣١ يوليه شرعوا فى المسير جنوبا قاصدين بلاد الانجليز . أما "كرومول" فكان قد تنبأ بذلك وأعد ما يلزم للقائهم بمساعدة رجال الحكومة فى "وستمنستر" . فاستدعيت الميليشيا فى الحال . ووضع كل المشتبه فى أنهم ملوكيون تحت المراقبة ، وضبطت الأسلحة المخبأة . أما الاسكتلنديون فانهم استأنفوا المسير سالكين طريق الساحل الغربى . فأرسل "كرومول" فرسان "لامبرت" وراءهم بينما تحرك "هاريسون" بالميل من "نيوكاسل" الى "ورنجتون" . ثم تحرك "فليتوود" شمالا بمالشية البلاد الوسطى . فقتل "لامبرت" من حول جناح العدو ، وبعد أن التقى "هاريسون" فى ١٣ أغسطس شرع كلاهما فى مقاومة العدو الغازى مقاومة مرنة القصد منها تأخير تقدمه . وفى نفس الوقت كان "كرومول" يحصد السيرة هابطا

انجلترا والأراضي المنخفضة

مقياس ١:٠٠ ٠ ٢٠ ٤٠ ٦٠ ٨٠ ١٠٠

الأراضي التي تزيد ارتفاعها
عن ١٠٠ قدم
الطرق
الريسية



على طريق الساحل الشرقى ويقطع ٢٠ ميلا فى اليوم فى قىظ أغسطس . ثم انه تحول نحو الجنوب الغربى . وبهذه الوسيلة كانت أربع قوات مختلفة تتجمع لتتلاقى مع الفرقة الذين أصبحوا فى شرك . حتى ان تحول "شارلس" عن الطريق الموصل الى "لندن" واتجاهه نحو وادى "السفرن" لم يحدث الا تأخير بضعة أيام فلم يعق انضمام هذه القوات حاصرة بينها العدو كالفكين المنطيقين . وفى يوم ٣ سبتمبر وهو يوم ذكرى "دنبار" السنوية نشبت معركة "ورستر" وكانت نتيجةها « رحمة كرومول الختامية » .

أما سلسلة الحروب التى وقعت فى الفترة بين ختام حرب الثلاثين سنة وبدء حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وهى الحروب التى كانت جيوش "لويس الرابع عشر" تلاقى فيها معظم الجيوش الأوروبية الأخرى ، متجمعة أوبالدور ، فانها تمتاز بعدم حاسميتها . اذ كانت المقاصد فيها محدودة ، وكذلك أغراضها الحربية . على أن هناك سببين قويين من أسباب عدم الحاسمية والفصل فى تلك الحروب هما : أولا أن تطور الاستحكامات وتقدمها فاق تطور الأسلحة وزاد الدفاع قوة مثل القوة التى رجعت له فى القرن العشرين بتطور المدافع الرشاشة ورقمها . وثانيا أن الجيوش لم تكن اذ ذاك قد نظمت وقسمت الى أجزاء كل منها مستقل بذاته من حيث الكفاية . بل كانت تتحرك وتقاتل عادة قطعة واحدة . وتلك حالة تقال مقدرتها على "تشتيت" فكر العدو — وخدعه والتضييق على حرية حركاته . ولم تقع فى كل الحروب التى أعقب بعضها بعضا المسماة حرب "الفروند" و "حرب الانتقال" والحرب "المولندية" و "التحالف الكبير" كل هذه لم تقع فيها الا حملة واحدة كانت حاسمة وحسمها قاصر على محيطها . هى الحملة التى قام بها "تورين" فى شتاء ١٦٧٤ -- ١٦٧٥ وانتهت بانتصاره فى "توركهايم" . فقد كان الوقت غصيبا فى فرنسا لأن حلفاء "لويس" هجروه وتركوه الواحدة بعد الأخرى وانضم الأسبانيون ، والمولنديون ، والدمسركيون ، والنمساويون ، وأغلب أمراء الألمان ، الى دول الائتلاف المعادية له . وقد اضطر "تورين" لأن يرجع وراء نهر "الرين" بعد أن ترك بلاد "الهلاتينات" خرابا . وكان أمير "براندنبورج" يتجمع أى يسير للانضمام الى الجيش الامبراطورى تحت قيادة "يورنوفيل" . وبعد أن صد "يورنوفيل" فى إنسهام فى أكتوبر سنة ١٦٧٤ قبل أن ينضم اليه الأمير ، اضطر لأن يرجع الى "دتواينر" فى حين كان الألمان قد انشروا فى بلاد "الأزاس" ، واستقروا فى المدن الواقعة بين "ستراسبورج" و "بلنور" لقضاء فصل الشتاء فيها . وهنا تهيأ المسرح "لتورين" ينثل عليه أبداع أعماله . وأول ما فاجأ به عدوه هو أنه صمم على السير بجملته فى منتصف فصل الشتاء . ثم انه هيا القلاع الموجودة فى منتصف اقليم "الأزاس" للدفاع لى يخذع عدوه . وبعد ذلك سحب جيش الميدان بأجمعه الى اقليم "الاورين" فى سكون وبغير جلبه . ثم سار مسرعا نحو الجنوب واختفى وراء مرتفعات جبال "الفونج" آخذا معه كل ما كان موجودا

من جنود المدد . وفي آخر مرحلة من مراحل حركته فرق قوته وقسمها أقساما صغيرة ليضلل جواسيس العدو . وبعد سير شاق من خلال التلال وفي عواصف الثلوج أعاد جمع جيشه بالقرب من " بلفور " وأطلق جنوده تنساب متدفقة الى مقاطعة " الألزاس " من الجنوب . بعد أن كان خرج منها من جهة الشمال . وهنا أراد " بورنونفيل " أن يوقفه في " مولها وزن " في ٢٩ ديسمبر مستخدما لايقافه الجنود التي كانت موجودة بالقرب منه ولكن " تورين " اكتسحها أمامه وأزالها عن طريقه . ومن هناك اندفع سيل الفرنسيين صاعدا الى أعلى الحوض الكائن بين جبال القوزج ونهر " الرين " طاردين أقسام جنود الامبراطورين المتفرقين هنا وهناك . ودافع عنهم شمالا نحو " ستراسبورج " وكل قسم يبدى مقاومة يباد ويتلف . وفي " كولمار " . في منتصف الطريق الى " ستراسبورج " كان الأمير الذي صار الآن قائد الألمان قد أقام سدا نهائيا تحميه قوة تعادل قوة " تورين " . على أن القوة الدافعة كانت لدى " تورين " من الوجهتين المادية والأدبية وقد حافظ عليها بمهارة بأن اقترب اقترابا تكتيكيا غير مباشر في ميدان " توركهايم " . وكان " تورين " لا يرمى الى ائتلاف الجيش المقاوم وإبادته بقدر ما كان يرمى الى " تصفية " المقاومة المشتدة . وترك النتائج الطبيعية تكمل انحلال العدو . وقد نجح في ذلك الى درجة أنه استطاع أن يقول في تقريره بعد ذلك ببضع أيام انه لم يبق في الألزاس جندي واحد من جنود العدو . وبعد ذلك استراح الفرنسيون في ثكبات الشتاء في " ستراسبورج " وكانوا يستوردون مؤوتهم بكثرة من الشاطئ الألماني لنهر الرين . بل ومن بقية الأراضي حتى نهر " النكار " . أما الأمير فانه رجع الى " برندنبورج " مع من تبقى من جنوده ، واستدعى " مونتي كوكولي " ، منافس " تورين " القديم ، لتولى قيادة المقاومة الامبراطورية . وهذا أيضا استدراج بالمناورات الى موقع على نهر " الساسباخ " لم يكن في صالحه . على أن " تورين " أصابته طلقة مدفع في فاتحة القتال أردته قتيلا . وبسقوطه انقلبت كفة الحرب ثانيا .

فما هو السبب في كون هذه الحملة التي قام بها " تورين " في فصل الشتاء جاءت حاسمة . مخالفة لبقية حملات القرن السابع عشر في قارة أوروبا مخالفة تستوجب الدهشة ؟ السبب في ذلك هو أن قادة ذلك العصر ، بالرغم مما كانوا عليه من قصر مرمى النظر ، كانوا على مهارة تامة بالمناورات . ولكنهم كانوا أكفاء في هذا الفن حتى ان الحركات الجانبية التي كان يحتمل أنها تنجح في الأعصر الأخرى ، كانت تُتقى بحذق نادر فلم يحصل أن تزحج " نظام " الخصم إلا مرة واحدة . وقد اشتهر " تورين " بأنه القائد الكبير الوحيد الذي أخذ يتمشى في الرقي مع العصر . ومما لا شك فيه أن كونه قد توصل في آخر حملاته الى حل مسألة الحصول على الحسم والفصل في حروب القرن السابع عشر ، والكيفية التي توصل بها ، بعد أن تولى القيادة

في حملات أكثر من أى قائد آخر في التاريخ لها مغزى خاص . لأنه توصل الى ذلك دون أن يخرج على القاعدة « الذهبية » في تلك الأيام — وهى أن الجنود المدربين تدريباً عالياً لهم من القيمة ما لا يسمح بالاسراف فيهم .

فمن الواضح والحالة هذه أنه توصل الى ذلك بتجاربه التى دلت على أنه في مثل هذه الظروف لا يمكن الحصول على نتيجة حاسمة إلا بخطة استراتيجية يكون فيها الاقتراب غير مباشر ، من أوله ، بكيفية أكثر مما سبق التفكير فيه . أى بكيفية لم يسبق أن طرأت على فكر أحد . وعلى ذلك فهو في العصر الذى كانت فيه كل المناورات تؤسس على مراكز تتحرك حولها وهى القلاع التى كانت عبارة عن مستودعات محمية للمؤن التى تعيش عليها جيوش الميدان . في ذلك الوقت انفصل هو عن قاعدة عملياته ورجأ الى المفاجأة وخفة الحركة لا للحصول على الحسم فقط ، بل لضمان سلامته أيضاً . ولقد كان حسابه مصيباً ، لا مجازفة . لأن زحزحته للعدو من كل الوجوهات العقلية ، والأدبية ومن حيث علم تحركات الجيوش وتموينها ، كل هذه قد كفلت له السلامة المؤكدة في كل عملياته .

الباب السادس

القرن الثامن عشر — مارلبورو وفردريك

ان حرب ارتقاء عرش أسبانيا (سنة ١٧٠١ - ١٧١٣) هي الحرب الأوروبية العامة ، أى ”الحرب العظمى“ الثانية فى التاريخ الحديث . ومن الغريب أن هذه الحروب العظمى كانت تتكرر وبين الواحدة منها والأخرى مدى قرن واحد . فان أوائل القرن السابع عشر شهدت بدء حرب الثلاثين سنة ، وأوائل القرن الثامن عشر شهدت حرب ارتقاء عرش أسبانيا . وفى ختام هذا القرن أضرمت الثورة الفرنسية النار فى أوروبا . على أن الذى أوصل النضال الى حده انما هو تهديد نابليون فى العشرين الأولى من سنى القرن التاسع عشر . وفى العشر السنين الثانية من القرن العشرين جاءت أشد الحروب هولا فى هذه ”الحروب العظمى“ .

فحرب ارتقاء عرش أسبانيا تمتاز بغرابتها بأن كانت بين فريقين اثنين . فهى سياسيا كانت حالة متطرفة من حالات ”الحرب المحدودة الغاية“ من جهة . ونضالا حاسما لتأييد سيادة الدولة الفرنسية تحت حكم لويس الرابع عشر أو تحطيمها من جهة أخرى . أما من الوجهة الاستراتيجية فكانت تستعمل بصفة رئيسية على سلسلة من الاقتراب المباشر التى لا طائل تحتها . أو تكاد تكون تحركات غير مباشرة لا تزيد نتائجها عن تلك . ومع ذلك فكانت تتخللها عدة من حالات الاقتراب غير المباشر الباهرة . وهذه كان يقترن أغلبها باسم ”مارلبورو“ الذائع الصيت . والمهم فى هذه الحالات هو أنها كانت تبين مواضع الانقلابات التى كانت تطرأ على الحرب .

والدول التى ائتلفت ضد فرنسا وتآلبت عليها كانت تشمل النمسا ، وبريطانيا العظمى ، وعدة من الولايات الألمانية ، وهولندا ، والدانمارك ، والبرتغال ، فى حين ان التعضيد الرئيسى الذى لقيه ”لويس“ الرابع عشر جاء من أسبانيا ، وبافاريا ، ومن سافوى فى بادئ الأمر . وافتتحت الحرب فى ايطاليا الشمالية بينما كانت الجيوش الأخرى تتأهب وتستعد . أما النمساويون فقد تجمعوا تحت قيادة ”أوجين“ فى مقاطعة ”التيرول“ . وقام ”أوجين“ بالاستعدادات لزحف مباشر مع التظاهر والفتخفة ، كانت نتيجه أن قام الجيش المقاوم له الذى كان تحت قيادة ”كاتينات“ باتخاذ وضع يسد به طريق ”أوجين“ فى مضيق ”ريفولى“ . على أن أوجين كان قد استكشف سرا ممرا وعرا بين الجبال لم تسلكه جنود منذ زمن طويل ، وهبط الى السهول بعد ان دار دورة واسعة نحو الشرق . فحافظ على ميزته

واستمر في الضغط بعدة مناورات كان من شأنها ان شتت أفكار خصمه وجولتها عما كان يرى اليه . وأخيرا استجلبه للهجوم عليه في "يكارى" هجوما كان كارثة على الخصم فوطد مركزه في إيطاليا الشمالية . ونتيجة هذا الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على زيادة القوة المعنوية لدى الحلفاء بوجه عام في أوائل نضالهم مع جيوش "الملك العظيم" التي "لا تغلب" فحسب ، بل انها كانت ضربة على قوة فرنسا واسبانيا في إيطاليا لم يستفقا منها . وكانت لها نتيجة من الأهمية بمكان هي أن دوق "سافوى" الذي كان بطبيعته تتبع الجانب الأقوى تحول الى جانب الحلفاء .

وفي سنة ١٧٠٢ ابتدأ النضال الرئيسى . فتجمع أكبر الجيوش الفرنسية في "فلاندرز" حيث كانت الفرنسيون قد حصنوا "خطوط برابانت" البالغة ٧٠ ميلا طولا من "انتورب" الى "هوى" بالقرب من "لياج" ليؤمنوا مؤخرة زحفهم الذى نوهه . أما الهولنديون فبمجرد ما رأوا أن الغزو يهددهم لم يفكروا في شيء سوى الإقامة في قلاعهم فلا يبارحونها . على أن "مارلبورو" كانت له فكرة عن الحرب تخالف هذه . فهو لم يقتصر على استبدال هذه المدافعة السلبية بحركة تعرضية مباشرة ضد الجيش الفرنسى الذى تحت قيادة "بوفلير" الذى كان سائرا اذ ذاك الى نهر الرين . بل انه بدلا من ذلك كشف القلاع وأسرع بالحركة قاصدا "خطوط برابانت" وخط رجعة "بوفلير" . فما كان من "بوفلير" الا أن شعر يجذب هذه "الأشواط" الأدبية فأسرع بالرجوع . ولما كان الجيش الفرنسى قد أعياه التعب جثمانيا وتزعزعت قواه المعنوية فانه كان قد أوشك أن يقع فريسة "مارلبورو" الذى كان على استعداد لأن يتفاه بين ذراعيه أولا أن نواب الهولنديين داخلهم الفزع واكتفوا بنهضة بلادهم من الغزو . فتموا عن الاشتباك في معركة لإنهاء النضال . وقد أوقع "مارلبورو" "بوفلير" في شرك مرتين أخريين في هذه السنة وفي كل مرة منهما كان الهولنديون يخلصون "بوفلير" من الشرك . وفي السنة التالية وضع "مارلبورو" خطة تدل على الدهاء لمناورة يستولى بها على "انتورب" فيحطم ذلك الحاجز المنيع . فانه استدرج الجيش الفرنسى الى شرق "انتورب" ثم تخلص منه وأسرع يتسابق نحو الغرب الى "انتورب" - ولكنه وجد أن القواد الهولنديين قد أهملوا الاحتشاد في الوقت المقرر - فأفسدوا عليه كل تصميمه . فاشماز "مارلبورو" واكتفى بحرب الحصارات الصغيرة التى توافق أمزجة الهولنديين . غير أنه في سنة ١٧٠٤ أبرز أسى اقترابه غير المباشر .

وكانت جيوش العدو هكذا : واحد في "فلاندرز" تحت قيادة "فيلايوى" . وواحد تحت قيادة "تالارد" على نهر "الرين" الأعلى بين "مانهايم" و"ستراسبورج" وبينهما قوات صغيرة للاتصال . وواحد مؤلف من البافاريين والفرنسيين تحت قيادة أمير "بافاريا" "ومارسين" بالقرب من "أولم" ونهر الدنوب . وهذا الجيش الأخير كان مندفعاً الى الأمام من بافاريا يهدد "فيينا" . فرسم "مارلبورو" خطة تنطوى على تحويل القسم الانجليزى من

جيشه عن وجهته من نهر "الموز" الى نهر "الدنوب" ، تاركا الهولنديين وراءه . ثم انزال ضربة حاسمة بالبافاريين الذين هم الشريك الأصغر في العدو . فهذه الحركة البعيدة المرمى المتجهة نحو نقطة تبعد عن قاعدته هذه المسافة الشاسعة ، كما تبعد عن المصالح المباشرة التي كان يحافظ عليها جهة الشمال . كانت حركة جريئة بموجب كل قاعدة . ولكنها كانت أكثر جرأة بموجب الاستراتيجية المبنية على الحذر التي كانت متبعة في ذلك الوقت . أما سلامتها فكانت منحصرة في التأثير الذي أحدثته مفاجأتها للعدو فزحزحته . ولما تحرك نحو الجنوب هابطا نهر "الرين" كان الظاهر أنه يقصد الجنود الفرنسية الموجودة في ذلك الميدان . وقد أيد هذا الايهام الطبيعي بأن قام باستعدادات تدل في ظاهرها على اقامة (أى بناء) جسر (كوبري) على نهر "الرين" في "فيليبسبورج" . ولكن عند وصوله الى "مانهايم" حيث يكون من الواضح أنه يتجه منها نحو الجنوب الغربي ، خالف ذلك الاتجاه واتجه نحو الجنوب الشرقي ثم اختفى في وادي "النكار" صعدا . ومن هناك عبر قاعدة المثلث المكون من نهري "الرين" و"الدنوب" متجها نحو "أولم" . وبعد أن اتصل "بمارجراف" "بادن" و"أوجين" ، تحرك مع قوات الأول منهما بينما عاد الثاني ليعوق تقدم الفرنسيين أو ، على الأقل ، ليؤخرهم على نهر "الرين" — حيث كان "فيلدروي" قد اقضى أثر "ماربورو" من "فلاندرز" متأخرا .

على أن "مارلبورو" ولو أنه كان قد وضع نفسه على مؤخرة الجيش الفرنسي — البافاري بالنسبة لفرنسا ، فانه كان ما يزال أمام ذلك الجيش بالنسبة "لبافاريا" . فهذا الجوار الجغرافي الذي يكاد يكون تماسا هو وظروف ذلك العهد حالا دون استثماره مزايَا خطته الاستراتيجية . وأحد هذه الظروف هو صلابة التنظيم التكتيكي للجيش ، التي تجعل أمام المناورة الاستراتيجية أمرا صعبا . فان القائد في استطاعته أن يجر العدو الى الماء ولكنه لا يستطيع أن يرغمه على الشرب — أى انه لا يمكنه أن يرغمه على قبول المعركة على غير ارادته . وظرف آخر هو أن "مارلبورو" كان عليه أن يتبادل القيادة ، يوما بعد يوم ، مع "مارجراف" "بادن" الشديد الحذر .

وكان العدو مستحكما في موقع قوى في "أولم" على نهر الدنوب . فأراد "مارلبورو" في بادئ الأمر أن يحدد مزايا هذا الموقع يكون بغير حراسة ليرمنه ويأتي من وراء العدو . ولكنه بدلا من أن يحازف بزيادة التأخير بسبب حذر "مارجراف" اختار اليوم الذي يتولى فيه القيادة وقام فيه باقتحام أقسام العدو التي كانت تستر معبر "دوناو ويرث" اقتحاما كلل بالفوز وان كان غالى الثمن . على أن جيش العدو الرئيسي رجع سالما الى "أوجسبورج" . وعندها أخذ "مارلبورو" يخرب البلاد ليكون تحريبه لها دافعا لأمير بافاريا لقبول الشروط التي يفرضها عليه ، أو أن يقبل دخول معركة في ظروف ليست في صالحه . وهذه النية أفسدها ظرف آخر

من ظروف تلك الأزمات — ذلك هو أن الحرب من شؤون الحكام لا من شؤون الإهالي ، ولم يهتم الأمير بالمضايقات التي هي في الدرجة الثانية . وعلى ذلك توافر الوقت لدى "تالارد" ليصل قادما من "الرين" . على أن وصوله قابله وصول "أوجين" الذي تجرأ وتسلل من أمام "فيليروي" لينضم الى "مارلبورو" . فتحرك كل من "مارلبورو" و "أوجين" زاحفين على الجيش المشترك بين "تالارد" و "مارسين" والأمير على غير انتظار . ومع أن المفاجأة لم تكن تامة ، إلا أنهما صادفاهم في "بلنهايم" وهم بأوضاع مرتبكة كان من شأنها أن أتاحا "مارلبورو" الفرصة لرحلتهم تكتيكية . فكان من ثمة هذا النصر أن استبعد الشريك الأصفر الذي هو "بافاريا" من الحرب نهائيا . فضلا عن تشتت جيشين فرنسيين وتمزيق "مناعة" جنودهم .

وبعد ذلك رجع "مارلبورو" الى "فلندرز" فانسحب منها الجيش الفرنسي الى ماوراء "خطوط جيت" الجديدة — من "انتورب" الى "نامور" . وفي سنة ١٧٠٥ أيضا جر الجيش الفرنسي وأبعده في اتجاه ضال ثم رجع مسرعا واخترق قطاعا ضعيفا ولم يحل بينه وبين النصر سوى تناقل الهولنديين . وفي حملة السنة التالية ابتكر "مارلبورو" اقترابا غير مباشر أبعد غورا من سابقه — لينضم الى "أوجين" في ايطاليا ولكن جبن الهولنديين قيده في "فلاندرز" . ومع ذلك فإن نوبة الجراءة التي استولت على "فيليروي" بغاة فدفعته الى المغامرة بالخروج من خطوطه المستحكمة قد مكنت "مارلبورو" من مقاطعته في الطريق قبل أن يتمكن من الالتجاء الى قلاع "الموز" . وقد فعل ذلك "مارلبورو" دون أن ينتظر جنود حلفائه ايجرجوا معه . وفاز بالنصر في "راميليز" بفضل اقتراب تكتيكي غير مباشر باهر . واستغل هذا النصر بأن تعقب العدو تعقبا أدى الى سقوط كل بلاد "فلاندرز" و "برابانت" في قبضة يده . وفي نفس هذه السنة انتهى الحرب في ايطاليا فعلا بمثال آخر من الاقتراب غير المباشر . ذلك أن "أوجين" أرغم في بادئ الأمر على التقهقر حتى وصل الى بحيرة "جاردا" ومنها الى الجبال ، بينما كان حليفه ، دوق "سافوي" محصورا في "تورينو" . "أوجين" بدلا من أن يحاول أن يشق طريقة حربا تفوق على خصمه في المناورات وتسلل منه وانفصل من قاعدته وتركها ثم والى الضغط حتى نفذ من "لومبارديا" الى "بيمنت" . وفي "تورينو" أنزل بالعدو هزيمة حاسمة مع أنه كان متفوقا عددا على "أوجين" ولكن عقليته كانت قد ترعزعت .

وفي ذلك الحين كانت الحرب قد انكششت واقتصرت على الحدود الفرنسية اوية شمالا وجنوبا غير أنه في سنة ١٧٠٧ قام الخلاف بين الحلفاء فتوافر الوقت لدى فرنسا لتستجمع قواها . وفي السنة التالية حشدت قواتها الرئيسية ضد "مارلبورو" . ولما كان "مارلبورو" مقدما في "فلاندرز" وكان العدو يتفوق عليه عددا بكثير ، فانه تبادل مع "أوجين" عكس حركة "الدنوب" بأن تحول جيش "أوجين" من الرين لينضم الى "مارلبورو" . على أن الفرنسيين

كان يقودهم الآن قائد قدير هو "فيدوم" فتقدموا قبل أن يصل "أوجين" . وبعد أن أغرى "فيدوم مارلبورو" على التقهقر الى "لوفان" بهذا التهديد المباشر ، تذرع بالحيلة لأول مرة وتحول بجأة نحو الغرب فاسترجع "ثغنت" و "بروجز" وفي الواقع كل "فلاندرز" غربي نهر "الثلث" دون أن يكلفه ذلك شيئا . على أن "مارلبورو" بدلا من أن يسير اليه ويقاومه مباشرة جازف بالاندفاع نحو الجنوب الغربي ليحول بينه وبين الحدود الفرنسية . وفي "أودينار" والى الضغط الى نهايته فزحح العدو تكتيكيا على أثر الميزة الأولى التي اكتسبها بزحزحته استراتيجيا .

فلو أن "مارلبورو" كان في استطاعته أن ينفذ رغبته في التحرك الى باريس على الفور لكان من المحتمل أن تنتهى الحرب . فان "لويس" حتى مع ما كانت عليه الحالة اضطر لأن يطالب الصلح في ذلك الشتاء وعرض على الحلفاء شروطا فيها مايكفى مقاصدهم . ولكنهم رفضوها فرفضوا المساعدة في سبيل الخيال الذي هو اتمام اذلاله . ولهذا الأسباب تجدد الحرب ثانيا في سنة ١٧٠٩ . فكان مشروع "مارلبورو" عبارة عن اقتراب عسكري غير مباشر الى غرض سياسى فيه الحل المطلوب - وكانت فكرته تتطوى على التسلسل من وراء قوات العدو وتغطية قلاعهم ثم اتخاذ "باريس" هدفا . على أن هذه الحركة تتجاوز الحد في الجرأة حتى عند أوجين وعلى ذلك فانها عدلت الى خطة تتطوى على التفادى من الهجوم المباشر على "الخطوط" المستحكمة التي تستر الحدود بين "دوواي" و "يتون" . ولكنها بدلا من ذلك كانت ترمى الى الحصول على القلعتين الجانبيتين "طورناي" و "مون" تمهيدا للزحف الى داخل فرنسا على طريق شرق المنطقة المستحكمة . وهنا أيضا تمكنت عبقرية "مارلبورو" من خداع العدو . فان تهديده بالهجوم المباشر على الخطوط أدى بهم الى سحب معظم جنود حامية "طورناي" لتعزيزها . وعند ذلك رجع "مارلبورو" على جناح السرعة وضيق على "طورناي" ولكنها مع ذلك استبسلت في المقاومة حتى آخرته مدة شهرين . غير أنه تمكن بهجمة جديدة صوبها الى « خطوط لاباسيه » من الانقضاض على "مون" ومحاصرتها دون أن يعوقه عائق . على أن الفرنسيين تحركوا مجتازين الفضاء بدرجة من السرعة كافية لسد طريقه والحيلولة دون تنفيذ خطته . وهنا تورط "مارلبورو" لأول مرة في اقتراب مباشر ، أقل حكمة من اقتراب "كرومول" من "دنيار" . ومع أن اقتحامه العدو الذي كان مستعدا في متاريس جيدة وكان يحافظ على « بوابة » "مالپلاكيت" انتهى بالنصر فانه كلفه من الأنفس ما جعل "فيلارد" القائد المهزوم يكتب الى لويس يقول : « لو أن الله أعطانا هزيمة أخرى مثل هذه لأبىد أعداء جلالكم » وقد كان لقوله صدق النبوة فان انتصار "مالپلاكيت" كلف الحلفاء آمالهم في النصر في تلك الحرب .

وفي سنة ١٧١٠ سادت حالة « مات الشاه » وأصبح "مارلبورو" محبوبا كأنه في قفص وراء الخطوط « النهائية » التي كان الفرنسيون أقاموها من "فالنسين" الى البحر

فكانت فرصة لأعدائه السياسيين في وطنه اتخذوها حجة لتقويض مركزه . ثم ان الحظ تنكر أيضا للذين فقدوا رعايته ، ففي سنة ١٧١١ استدعى جيش أوجين الى بلاده بسبب موقفها السياسي وبقى مارلبورو مواجه العدو يتفوق عليه كثيرا . ولما كان بدرجة من الضعف لا يستطيع معها أن يحاول أو ينفذ أى عملية حاسمة فإنه استطاع على الأقل أن يثبت مقدراته بتفنيده ما كان الفرنسيون يفتخرون به مما أسموه الخطوط « التي ليس بعدها خطوط » وقد فعل ذلك باقترابه غير المباشر الذي كان أكثر دهاء وأبعد حيلة من كل ما قام به من الاقتراب فأخذ يخدع العدو ، ويحول أفكاره . ويسرع في السير مرارا متوالية حتى تمكن من الانسلاخ من الخطوط ونفذ منها دون أن يطلق طلقة . ولكنه استدعى بعد ذلك بشهرين الى انجلترا ليلقى الاذلال والعار . وفي سنة ١٧١٢ هجرت انجلترا حلفاءها وتركهم يقاتلون وحدهم . فبقى النمساويون والهولنديون تحت قيادة أوجين محافظين على موقفهم مدة من الزمن ثم أخذ التعب والاعياء يستوليان على كلا الفريقين المتحاربين . غير أنه في سنة ١٧١٢ قام « فيلار » ببنائورة مشتركة كان ما انطوت عليه من الخداع ، والتكتم ، والسرعة مما يليق « بمارلبورو » . وفي نهاية الأمر فاز بنصر حاسم على كل الحلفاء في « دينين » لم يكلفه الا القليل . وبذلك تم انحلال الائتلاف وتمكن « لويس » من عقد صلح يختلف كل الاختلاف عما كان يكون من نصيبه قبل معركة « مالبلاركيت » . ففيها حصل اقتراب مباشر أضاع كل الفوائد التي اكتسبتها الاقترابات غير المباشرة . والأمر الذي لا يقل عن ذلك مغزى هو أن النضال انتهى أخيرا بعكس ما انتهت اليه تلك المعركة . وكان ذلك بمثابة آثر من الاقتراب غير المباشر .

ومع أن الحلفاء حرموا من غرضهم الأصلي وهو منع « لويس » الرابع عشر من ايجاد اتحاد فعلي بين فرنسا وأسبانيا فإن انجلترا خرجت من الحرب رابحة في الممتلكات . والفضل في ذلك يرجع الى بعد نظر « مارلبورو » وامتداده الى ما وراء حدود مسرح عملياته الضيق . فإنه جمع بين العمليات البعيدة المدى في البحر الأبيض المتوسط والعمليات الخاصة به في « فلاندرز » كوسيلة لتشتيت فكر العدو من الواجهة العسكرية ، وميزة تبقى في جانبه من الواجهة السياسية . فتجريدتا سنة ١٧٠٢ وسنة ١٨٠٣ ساعدتا على استبعاد بلاد البرتغال « وسافوي » من جانب العدو ومهدتا الطريق لحركة موجهة ضد « سنده » الأكبر وهو اسبانيا وتجريدة سنة ١٧٠٤ التالية ربحت جبل طارق . ثم ان « بيتر بورو » قام بدور مشتمت لفكر العدو في اسبانيا يدل على المقدرة ، وفي سنة ١٧٠٨ استولت تجريدة أخرى على جزيرة « مينورقة » . فإذا كانت العمليات التي أجريت في اسبانيا بعد ذلك أسست ادارتها وكانت أقل حظا في نتائجها ، فانجلترا خرجت من الحرب تملك جبل طارق وجزيرة مينورقة وهما مفتاحان لسيادة البحر الأبيض المتوسط ، « ونوفاسكوشيا » و « نيفونداند » في المحيط الاطلنطي الشان .

ثم ان نتائج حرب ارتقاء عرش النمسا التي وقعت في سنة ١٧٤٠ — ١٧٤٨ ولم تكن حاسمة ، لا يمكن التعبير عنها بأفصح من العبارة التي أصبحت دارجة بين الأمة التي كانت أكثر الأمم فلاحا من الوجهة العسكرية — الأمة الفرنسية — وهي قولهم ”نك لبلید بلادہ الصالح“ فهذه الكلمة كانت توجه الى المواطنين الذين هم موضع الكراهية . والحاكم الوحيد الذي استفاد منها بالوسائل المشروعة أو غير المشروعة هو فردريك الأكبر . فانه ربح ”سليسيا“ مبكرا ثم انسحب من المباراة . ومع أنه عاد اليها فيما بعد فانه جازف بخسارة الشيء الكثير دون أن يربح أ لثربا ربحه سوى حق تطريز بنوده بأسماء بعض الانتصارات الشهيرة . غير أن هذه الحرب علاوة على ذلك وطدت نفوذ بروسيا كدولة عظمى . والحوادث التي قضت بترك ”سليسيا“ لبروسيا في معاهدة الصلح الأولى التي عقدت في ”برسلاو“ سنة ١٧٤٢ هي من الحوادث التي تستحق الذكر لأن الآمال في بدء هذا العام كان يظهر أنها قريبة من الخيبة . فقد تم الاتفاق بين الفرنسيين والبروسيين على الزحف على الجيش النمساوي الرئيسي بالاشتراك معا . ولكن سرعان ما أرغم الفرنسيون على التوقف في أما كنهم . فما كان من ”فردريك“ الا أنه بدلا من موالاة السير غربا لينضم على حليفته اتجه بقاءة نحو الجنوب قاصدا ”فيينا“ . ومع أن مقدمة جنوده ظهرت أمام عاصمة العدو فانه أسرع بالرجعة وسار جيش العدو ليقطع عليه رجعته ويفصله عن قاعدته . وهذا الزحف الذي زحفه ”فردريك“ اعتاد الناس أن يعيروه عليه بأنه مجرد مظاهر طائشة . ومع ذلك فقد تكون هذه التهمة قاسية اذا روعيت نتيجة هذا الزحف . فانه بهذا التقهقر السريع ، الذي كان في ظاهره طلبا للنجاة . جرن النمساويين ورائه متعقبين الى مسافة بعيدة حتى توغلوا في سليسيا . وعندها انقلب كارا عليهم فهزمهم ثم استغل الهزيمة بشدة تعقبه لهم . ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أسابيع حتى عقد النمساويون صلحا منفصلا مع ”فردريك“ من شرائطه تنازلهم له عن سليسيا . وقد لا يكون من الحكمة التبسط في الاستنتاج من هذا الحادث . ولكن أقل ما هناك هو أن الشيء العجيب في ذلك أن هذا الميل الفجائي لعقد صلح مع التضحية قد جاء على أثر الاقتراب الوحيد غير المباشر الذي حصل في هذا المسرح مدة الحرب . مع أن هذا الاقتراب لا يتضمن شيئا أكثر من مجرد الظهور أمام ”فيينا“ ونصر تكتيكي صغير استخلص ، على ما يظهر ، من بين أنياب الهزيمة . فضلا عن أنه كان أقل تظاهرا من انتصارات ”فردريك“ الكثيرة الأخرى .

واذا كانت حرب ارتقاء عرش النمسا ليست حاسمة في نتائجها العامة ، فان الحرب الكبرى الأخرى التي وقعت بعدها في منتصف القرن الثامن عشر لم تكن أحسن منها — من وجهة نظر السياسة الأوروبية . فان المملكة الوحيدة التي أحرزت نتائج وكانت حاسمة في التأثير على مجرى التاريخ الأوربي هي انجلترا . ولم تكن انجلترا اذ ذاك شريكا غير مباشر في حرب السبع السنين (١٧٥٦ — ١٧٦٣) فحسب ، بل انها ساهمت فيها وحصلت على ربحها منها

بطرق غير مباشرة أيضا . لأنه في الحين الذي كانت فيه جيوش أوروبا تنهك قواها وتستنفد موارد بلادها في قتال مباشر . كانت أقسام صغيرة من الجنود المرسلة من إنجلترا تستغل ذلك الضعف لفائدتها بأن أوجدت الامبراطورية البريطانية . فضلا عن ذلك فإن حصول بروسيا على صلح غير حاسم بدلا من صلح مذل ، وهى مشرفة على التضعف ، كان الفضل فيه لزحمة قوة فرنسا الهجومية زحمة غير مباشرة بسبب ما حل بمستعمراتها من الكوارث ، وزحمة "الضربة القاضية" التى كان فى نية روسيا أن تنزلها بروسيا ، بسبب وفاة زوجة القيصر فإن سلسلة الانتصارات الباهرة الكثيرة التى أحرزها فريدريك الأكبر فى المعارك لم يكن من نتائجها الا أنها تركته وقد تجرد من موارده بوجه التقريب ، فأصبح فى سنة ١٧٦٢ عاجزا عن موالاة المقاومة .

وعلى ذلك فليس فى الحملات الأوربية التى توالى وراء بعضها بعضا بين الجنود الأوربية فى هذه السلسلة الطويلة ما يسمى حاسما بحق ، سواء فى نتائجها العسكرية والسياسية ، الاحملة "كويك" . وهذه الحملة لم تكن أقصر الحملات أجلا لحسب . بل انها وقعت فى مسرح ثانوى . فكما أن الاستيلاء على "كويك" والتغلب على السيادة الفرنسية "بكندا" صارا فى حيز الامكان بفضل المقدرة على الاقتراب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى ، المتوفرة فى القوة البحرية ، كذلك كان الحسم والفصل فى الحملة من وجهة مجراها الحربى راجعا الى الاقتراب الاستراتيجى غير المباشر . فضلا عن ذلك فأن الدرس المستفاد له مغزى أكبر بسبب أن هذا الاقتراب غير المباشر الذى يظهر أنه مخوف بالأخطار لم ينتهج الا بعد أن أخفق الاقتراب المباشر الى خط نهر "المونثورانسى" بخسائر فادحة فى الانفس وأكثر منها فى القوة المعنوية . وانصافا "وولف" لا بد من التنويه بأنه لم يستسلم لهذا الاقتراب المباشر الا بعد أن فشل الطعم الذى ألقاه للعدو — من ضرب "كويك" — بالمدافع وتعرض أقسام منفصلة فى "بوينت ليفى" وبالقرب من شلالات "مونثورانسى" — فى استدراج الفرنسيين للخروج من موقعهم القوى . على أن هناك درسا يستفاد من اخفاق هذه الوسائل متى قورنت بالنجاح الذى صادفته أخيرا المخاطرة بانزال جنوده الى البر على مؤخرة الفرنسيين صعدا من "كويك" . فاستدراج العدو لم يكف . وكان من الضرورى أن يجره الى الخارج . وكذا أيضا اخفاق الهجمات الكاذبة التى حاول "وولف" بها أن يهيئ اقترابه المباشر . فان تضليل العدو لم يكن كافيا . فلا بد من تحويل أفكاره — وذلك معناه الجمع بين مخادعة عقل العدو ، وحرمانه من حرية التحرك ليقوم بعمل مضاد ، وانتشار جنوده . ومع أن حركة "وولف" النهائية كانت تظهر للناظر اليها سطوحيا انها آخرمية يلقىها المقامر ، فان كل هذه الشروط قد توفرت فيها — وكانت النتيجة النصر . وحتى عند الذين من عادتهم أن يدرسوا التاريخ الحربى من وجهة مقدار القوة المساحة يظهر أن درجة

ما أصاب القوات الفرنسية من الزحمة لم تكن مبررة لدرجة سقوطهم . ولقد كتبت عجالات كثيرة تبين ما كان في استطاعتهم أن يعملوه . وكيف كان يتسنى لهم أن يصلحوا موقفهم . ولكن معركة "كويك" هي مثال بارز على صدق القول بأن الجسم يحصل بزحمة جيش عقليا ومعنويا أكثر مما يحصل بزحمة جنوده جثانيا . وهذه النتائج تفوق على التقديرات الجغرافية والاحصائية التي تملأ تسعة أعشار كتاب عادى في موضوع التاريخ الحربى .

ولكن اذا كان المحررى الرئيسى للحرب السبع السنين فى أوربا لم يكن ثابتا فى سيره ، كما يدلنا التاريخ ، بالرغم من كثرة الانتصارات التكتيكية . فان البحث عن السبب أمر يستحق العناية . فاذا كان عدد أعداء "فردريك" هو التفسير المعتاد لذلك فان جملة ما أحرزه من المزايا يقابله ويزيد عليه بدرجة تجعل هذا التفسير غير واف . فعلى اذن أن نتعمق فى البحث .

"فردريك" مثل "الاسكندر" و"نابليون" وعلى عكس "مارلبورو" كان غير مقيد بالمسئولية ولا بالحدود الملزم بهما الاستراتيجى بالمعنى الصحيح . وكان يجمع فى شخصه وظائف الاستراتيجية والاستراتيجية العظمى . فضلا عن ذلك فان اجتماعه بجيشه على الدوام بصفته ملكا أمكنه من إعداد وسائله والتوسع فيها لتلائم الغاية التى يختارها . ثم ان قلة القلاع نسبيا فى مسارح حربه كان ميزة أخرى له .

ومع أن "فردريك" كان يواجه دول الائتلاف المكون من النمسا ، وفرنسا ، وروسيا ، والسويد ، وسكسونيا وليس له حليف سوى انجلترا فانه كان متفوقا على أعدائه من حيث عدد الجنود الموجودة فعلا من أول الحرب الى منتصف الحملة الثانية . وزيادة على ذلك كانت له ميزتان عظيمتان الأولى آتته التكتيكية (جيشه) التى كانت تفوق آلة أى عدو من أعدائه . والثانية مركزه المتوسط وهذا المركز مكنه من ممارسة ما يسمى عادة استراتيجية "الخطوط الداخلية" فينزله ضرباته من مركزه المتوسط الى الخارج موجها اياها الى احدى القوات الموجودة على المحيط . وينتفع بأقصر مسافة فيسير للاحتشاد ضد احدى قوات أعدائه قبل أن تستمد العون من الآخر . فبحسب الظاهر يلوح أنه كلما بعدت بعض هذه القوات المعادية عن بعض سهل الحصول على نجاح حاسم . وهذه حقيقة لا شك فيها متى روعى الزمن والمسافة وعدد الجنود على أن العنصر المعنوى يدخل هنا أيضا . فعند ما تكون قوات الأعداء متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يكون كل منها فيه كفايته ويميل لأن يتوطد بالضغط . واذا كانت منظمة معا فانها تميل الى الاتحاد "ويصير كل منها عضوا من الآخر" وتعتمد كل منها على الأخرى بالتبادل عقليا ، ومعنويا ، وماديا ، فتتأثر عقول القادة بعضها ببعض والتأثيرات الأدبية السريعة الانتقال من شخص الى آخر . حتى انه يبقى من السهل أن حركات كل قوة تفوق حركات القوات الأخرى أو تفكك نظامها . وعلى ذلك

فان كان الوقت والمسافة عند الخصم أقل مما يلزمه للقيام بعمله ، فان نتائج زحزحته تظهر بدرجة أسرع وأسهل . وأيضا عندما تكون القوات متقاربة بعضها من بعض فان مجرد تحول اقتراب العدو من واحدة منها قد لا تتوقعه الأخرى وحينئذ يصير في الحقيقة اقترابا غير مباشر بالنسبة لها . وعلى النقيض من ذلك اذا كانت القوات متباعدة بعضها عن بعض بمسافات كبيرة يتوافر لديها الوقت للاستعداد للملاقاة الضربة الثانية التي يريد الجيش الذي يستغل مركزه المتوسط انزالها أو للتفادى منها .

فاستخدام "الخطوط الداخلية" كما استخدمها "مارلبورو" في سيره الى نهر الدنوب هي صورة أخرى للاقتراب غير المباشر . ولكن ولو انه اقتراب غير مباشر بالنسبة للقوات المعادية بأجمعها فانه ليس كذلك بالنسبة للقوة التي هي الهدف المقصود فعلا الا اذا أخذت على غرة منها . والا فلا بد من اتمامه باقتراب غير مباشر آخر - للغرض نفسه .

وكان فردريك يستخدم مركزه المتوسط دائما ليحشد جنوده ضد جزء من العدو . وكان دائما يستخدم تكتيكات الاقتراب غير المباشر . وبهذه الوسيلة فاز بانتصارات كثيرة . على أن اقترابه التكتيكي غير المباشر كان من نوع هندسى لا من نوع مؤسس على دراسة علم النفس - أى لم يسبقه تمهيد من نوع صور المفاجأة التي هي أكثر دهاء والتي كان "سيبو" يميل اليها - فكانت مناوراته ضيقة النطاق وان كان تنفيذها يشف عن المهارة . فقد يكون العدو عاجزا عن تلقى الضربة لقلة مرونته العقلية أو لقلة مرونة تشكيلاته . ولكن الضربة ذاتها لم تكن غير مستطرة عند العدو .

ففى "پراج" ابتدأ الاقتراب بصورة غير مباشرة ولكنه صار مباشرا قبل أن تتم المناورة ولم يرجح كفته في المعركة الا وصول فرسان "تسايتن" الذين كانوا داروا دورة شاسعة . ولم يكن وصولهم منتظرا عند النمساويين . وفى "كولن" كانت المناورة ضيقة بدرجة أن جنود فردريك لما ضايقتهم النيران غيروا طريق سيرهم وهجموا هجوما مباشرا فأخفقوا بعد أن تكبدوا خسائر فادحة . وفى "روسباخ" كانت قوة الفرنسيين وحلفائهم ضعف قوة فردريك فحاولوا أن يقلدوا مناوره فردريك ويقابلوه بها . فلم يكن من ضيق المناورة أن أشعره بها في وقت كاف فحسب ، بل ان افتراضهم ، على عجل ، أنه كان منقهما قبل ضياع الوقت أدى بهم الى تشتيت أفكار جنودهم و"تحويلها" لى يلاحقوا به حتى انه لما قام بمناورة مضادة ليقع على جناحهم الأبعد ، لايقلبهم وجها لوجه ، ترحلوا حالا . وهنا أحرز فردريك اقترابا حقيقيا غير مباشر بواسطة المفاجأة . وليس فقط بواسطة خفة الحركة . وقد كان هذا الانتصار أكثر كل انتصاراته اقتصادا . لأنه في مقابل خسارة ٥٠٠ جندي بين قليل وجريح أوقع بالعدو خسارة ٧٧٠٠ وشتت جيشا يبلغ عدده ٦٤,٠٠٠ . ولسوء حظه كان قد استنفد قوته بدرجة كبيرة في المعارك السابقة حالت يده وبين جنى ثمار هذا النصر

بالكامل . وصار عليه الآن أن يعالج الجيش النمساوى الذى عجز عن تسوية حسابه معه فى "براج" و"كولن" . ومع أنه فاز فى "لويش" فإن النصر الذى أحرزه فيها بواسطة اقتراب باهر ، وإن كان غير مباشر فى ظاهره ، كلفه ما لا طاقة له به . وعلى هذا المنوال استمر استخدام فردريك "للخطوط الداخلية" فى سنة ١٧٥٨ وكان الطالع يزداد عبوسا . فابتدأ باقتراب غير مباشر حقيقى . بأن سار أمام جبهة النمساويين واجتاز جناحهم حتى وصل إلى "أولتس" أى مسافة ٢٠ ميلا فى أراضي العدو . ولم يتقهقر حتى بعد أن ضاعت له قافلة تحمل عزيمة كانت تحمل مؤنا ، بل استمر فى سيره مجتازا "بوهيميا" دائرا حوا . مؤخرة النمساويين إلى أن دخل قاعدتهم المحصنة "كونيجراتس" . ولكنه صار الآن ملزما مرة أخرى لأن يتحمل غرم الفرص التى أضاعها فى "براج" و"كولن" لأن "الآلة البخارية الساحقة" الروسية كانت الآن قد استعدت وتقدمت سائرة إلى "بوزن" فى طريقها إلى "برلين" . فقرّر فرديريك على أن يتجاوز عن الكمال حملته البوهيمية ويسير شمالا لوقف الروسين . وقد نجح فى ذلك إلا أن "تسورندورف" كانت "براج" أخرى ولعبت فرسان "سيدلتس" دور الملاك الحارس وهو الدور الذى سبق أن لعبه "تسايتن" بصورة غير مباشرة . وعلى ذلك اضطر فرديريك لأن يترك الروسين وشأنهم يستعيدوا قواهم وقفل راجعا للقاء النمساويين . وقد قل رأس ماله فى الرجال أكثر مما كان — فلا قاهم فى "هوخكرش" وكانت جنوده لم تزد نقصا فحسب بل أنه لاقى الهزيمة بسبب تجاوزه الحد فى الثقة بأن خصمه النمساوى القديم "داون" لا يبادره بقوته الانشائية مطلقا (أى أنه لا يكون البادئ بالعمل) . وعلى هذه الصورة فوجئ فرديريك مفاجأة مزدوجة وحوصر ليلا فلم ينجمه من الهلاك سوى فرسان "تسايتن" إذ أبقوا ممرا مفتوحا ليتقهقر منه . وعلى هذا المثال استمرت الحرب فى سنة ١٧٥٩ وفرديريك أخذ فى التدهور . وفى "كويزدورف" لاقى أشد هزيمة عرفها فى حياته ، على يد الروسين . ولاقى فى "ماكسن" هزيمة أخرى من "داون" — وهذه أيضا كانت بسبب وضع الثقة فى غير موضعها — ومن ذلك الحين لم يعمل شيئا سوى مقاومة العدو مقاومة سلبية بسد الطريق أمامه . على أنه فى الوقت الذى كان فيه نجم بروسيا آخذا فى الأفول كان نجم السعد آخذا فى الاشراف فى "كويك" . وكان النصر الذى أحرزه "وولف" مشجعا لانبجاسترا ومساعدتها على ارسال جنود إلى ألمانيا مباشرة . وهذه الجنود عوضت المصائب التى حلت بفردريك بانتصارها على الفرنسيين فى "مندن" . ومع ذلك ففى سنة ١٧٦٠ ظهر ضعف فرديريك أكثر مما فى أى وقت آخر . واستراح فترة من الضغط الواقع عليه من الشرق بحيلة دبرها بأن أوقع فى أيدي الروس رسالة منه منطوقها أن "النمساويين قد انهزموا اليوم هزيمة تامة . والآن لتجه نحو الروسين . فافعلوا ما اتفقنا عليه" . ومع أن الروسين دخلت عليهم الحيلة وتقهقروا فإن الهزيمة التى أصابت النمساويين فيما بعد فى "طورجاو" كانت نصرا آخر لفردريك من نوع المقامرة . ولما ارتبك فكره من جراء ما أصابه من الخسائر ولم يبق لديه

سوى ٦٠,٠٠٠ جندي . لم يجرؤ على الاشتباك في معركة ، حتى أصبح منقطعا في سويسيا وايس بينه وبين بروسيا اتصال . فن حسن حظه كانت استراتيجية الجيش النمساوي على أشد ما هو معهود فيها من الجمود . ثم ان خدمات مؤخرة الجيش الروسي أخفقت وأصابها العطل كما هي عادت . وفي ابان هذه الأزمة توفيت القيصرية (زوجة القيصر) وجاءت التي أخلفتها فلم تكتف بعقد الصلح بل أخذت أيضا تفكر في معاونة فردريك . وبقيت كل من فرنسا والنمسا مدة بضعة أشهر في حرب متقطعة . على أن قوة فرنسا كانت قد تقوضت بسبب ما حل بمستعمراتها من المصائب . وأصبحت النمسا فضلا عن فتور الهمة في حالة من الاعياء عجالت عقد الصلح . فكانت كل البلاد التي اشتركت في الحرب في غاية الضعف . وهذه السنين السبع التي انقضت في سفك الدماء لم يستفد منها سوى انجلترا .

واذا كان في حملات فردريك الكثير من نخبه الدروس فإن الدرس الرئيسى منها على ما يظهر هو أنه كان يعتبر الافتراق غير المباشر مسألة خفية في الحركة فقط بدلا من اشراك خفة الحركة مع المفاجأة . ولذلك فان اقتصاده في القوى خاب بالرغم مما كان عليه من النباهة والذكاء .

الباب السابع

الثورة الفرنسية و نابليون بونابرت

انسلخت فترة ثلاثين سنة ثم رفع الستار عن "الحرب العظمى" التي أضاعها عبقرية نابليون بونابرت . فكما كانت فرنسا منذ قرن ، كانت في ذلك الحين أيضا الخطر المهدد الذي تألبت عليه دول أوروبا . ولكن مجرى النضال في هذه المرة كان مخالفا لما كان عليه منذ قرن . فان فرنسا النائرة قد يكون لها كثيرون من المشاركين لها في احساسها ولكنهم ليسوا بحكومات الأمم ، وليسوا هم المسيطرين على قوات دولهم المسلحة . ومع ذلك فانها لما بدأت الحرب بمفردها وهي منفصلة قهرا عن غيرها من الدول كما لو كانت تحمل جرائم مرض معد تمكنت لامن صد المساعي المشتركة التي بذلت في سبيل انقاذ أنفاسها فحسب ، بل انها بعد أن غيرت صورتها أصبحت تهدد كل بقية أوروبا تهديدا عسكريا متزايدا . وانتهت أخيرا بأن صارت السائدة حربيا على القسم الأعظم من أوروبا . والسرفى ذلك يرجع بعضه الى ظروف طبيعية وبعضه الى ظروف شخصية . فاما الأولى فقد نشأت عن الروح الوطنية والثورية التي كانت مستولية على جيوش فرنسا الوطنية . وهي التي أطلقت العنان للشعور التكتيكي والقوة الانشائية في الأفراد ليحلا محل التدريب الدقيق الذي أصبح غير ممكن مع وجود تلك . وهذه التكتيكات الحديثة السائلة كانت قائمة على أساس بسيط ولكنه حيوى وهو أن الفرنسيين صاروا الآن يعيشون ويقاثلون بسرعة تبلغ ١٢٠ خطوة في الدقيقة في حين أن اعدادهم كانوا ما يزالون محافظين على طريقهم الأصولية وهي ٧٠ خطوة في الدقيقة . وهذا الفرق الأساسى فى الوقت الذى سبق ما قدمه العلم الميكانيكى للجيش من وسائل التنقل بسرعة تزيد على سرعة السير على الأقدام ، صير سرعة انتقال قوة انزال الضربة واعادة حشدتها مع "تغيير أوضاع" الوحدات والتشكيلات أمرا فى حيز الامكان . وبذا تمكن الفرنسيون ، على قول نابليون ، من عملية ضرب "الككلة فى السرعة" استراتيجيا وتكتيكا .

والظرف الطبيعى الثانى هو تنظيم الجيش الى فرق مستديمة . أى تجزئته الى أقسام كل منها به كفايته ، مستقل بذاته ويعمل على حدة . وهذا التجديد ابتكره "دو-بروجلى" وكان موجودا حتى قبل الثورة . ولكن فى ذلك الحين ابتكر "كارنو" وجوب تعاون هذه الفرق معا بينما تقوم كل منها بعملياتها على حدة بأن ترمى كلها الى غاية واحد مشتركة وجاء "بونابرت" فتوسع فى هذه الفكرة وتطورت على يديه .

والظرف الثالث ، المرتبط بالثانى ، هو أن فوضى طريقة التموين ، وعدم النظام (الضبط والربط) فى جيوش الثورة الموروثة من طبيعة تكوينها قد صيرا الرجوع الى العادة القديمة

أمراً ضرورياً وهي "اعاشة الجنود من البلاد". فكان توزيع الجيش الى فرق معناه أن هذه العادة كانت تنقص من فعالية الجيش مقداراً أقل مما كانت تنقصه في الأيام السالفة فبينما كانت هذه الأجزاء في الزمن الماضي مضطرة الى التجمع قبل أن تستطيع القيام بعملية ما صارت الآن تؤدي خدمة عسكرية أثناء اعاشتها لنفسها أى اطعام نفسها بنفسها .

وفضلاً عن ذلك "فإن السير بدون أنقال" كان من شأنه أن يزيد سرعة حركاتها، ويمكنها من حرية التحرك في البلاد الجبلية أو ذات الغابات . وكذلك لما كانت لا تستطيع الاعتماد على المخازن والمستودعات وقوافل أى قطر نقل المؤن لتأخذ منها حاجتها من الطعام واللوازم (المهمات) كان الجياع من الجنود والذين بهم حاجة الى الملابس يجردون حافراً يدفعهم للانقضاض على مؤنحة العدو الذى يعتمد على ما لديه من وسائل اتخوين المباشر .

أما الظروف الشخصية فكان محورها الذى تدور حوله هو عبقرية قائد — نابليون بونابرت — تغذت قدرته العقلية بدراسة التاريخ الحربى دراسة عميقة وأجال فيه نظره مستقصياً فلما كان متحصناً بهذه الدراسة تمكن من استغلال قوة نظام "الفرق" الجديد استغلالاً تاماً . وأهم ماأداه نابليون لفن الاستراتيجية ينحصر في ترقية المجال الأوسع لاستخدام الاشتراكات الاستراتيجية ترقية صارت ممكنة بوجود هذا النظام .

أما الدهشة التى سببها فشل الغزو الجزئى الأول الذى حصل في سنة ١٧٩٢ وهزيمته في "فاني" و "سباب" فكان من شأنها أن أخفت عن الفرنسيين حقيقة الخطر الذى كان يهدد كلا من فرنسا والنشورة فيما بعد لأن أول ائتلاف تكون ضد فرنسا — من إنجلترا ، وهولندا ، وفرنسا ، وبروسيا ، وإسبانيا ، وسردينيا — لم يتم الا بعد اعدام لويس السادس عشر . ولم تنق هذه الدول ما لديها من صدق العزيمة وموارد الرجال والمواد في كفة الحرب الا في ذلك الحين . وإذا كانت إدارة الحرب من جانب الغزاة كان ينقصها الارشاد المنمى المقرون بالمهارة . فإن موقف الفرنسيين كان يزداد حرجاً على تهادى الأيام الى أن تغير الحظ بجاء في سنة ١٧٩٤ وأخذ سيل الغزاة يتراجع الى الوراء . ومن ذلك الحين أصبحت فرنسا هى الجانب المعتدى بعد أن كانت الفريق المقاوم . فما هى أسباب هذا الجزر بعد المد . من المؤكد أنها لم تكن براعة استراتيجية . ومع كل فان مغزى هذه الحادثة ، مع ما كانت عليه من الابهام وبالرغم من انحصار غايتها في نطاق محدود هو أن الجسم الذى حصل فيها نشأ عن اقتراب استراتيجى لا شك في أنه كان غير مباشر . ففي الحين الذى كان فيه الجيشان الرئيسيان يناضل أحدهما الآخر بالقرب من "ليل" نضالاً تسيل فيه الدماء من غير فصل أو بت ، صدر الأمر للجيش "الموز" الذى يقوده "جوردان" وهو على مسافة بعيدة جداً أن يحشد على ميسرته قوة للهجوم وبعد أن يزحف نحو الغرب مجتازاً مقاطعة "الاردين" يقوم بالعمليات في اتجاه "لياج" و "نامور" . ولما وصل "جوردان" الى "نامور" عقب سير جاع

في أثناءه جنوده فكانوا يعيشون على ما يستطيعون الحصول عليه من المؤن أثناء الطريق . سمع دوى المدافع وجاءته رسالة تنبهه بأن الجناح الأيمن من الجيش "الرئيسي" مستنكب في قتال لا نجاح فيه أمام "شارلوا" . ومع ذلك فإنه بدلا من أن يحاصر "مور" تحرك نحو الجنوب الغربي في اتجاه "شارلوا" والجناح الخلفى للعدو . فأرهب وصوله القلعة فسأمت . على أن الضاهر أن "جوردان" لم يكن يرمى إلى غرض أبعد . وعلى كل حال فإن التأثير الأدبي الذى أحدثته هذه الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو أنه ما كان نابليون وغيره من كبار القادة يسعى اليه كنتيجة مقصودة . فما كان من "كو بورج" القائد العام لجيش العدو إلا أن أسرع بالرجوع نحو الشرق وأخذ في جمع ما وجدته من الجنود في طريقه ثم هجم بهم على "جوردان" وهو مستحکم في متاريس يغطى بها "شارلوا" . ومع أن القتال الذى نشب بينهما كان عنيفا حتى اشتهر باسم معركة "فلوروس" فإن الفرنسيين كانت في جانبهم تلك الميزة التى لا تقدر وهى ميزة زحزحة العدو استراتيجيا وجره الى الهجوم بجزء من قوته . فانهزم هذا الجزء وعلى أثر هزيمته تقهقر الحلفاء .

ولكن لما جاء دور الفرنسيين وكانوا هم الغزاة فانهم بالرغم من تنويعهم العددي عجزوا عن الحصول على أية نتيجة حاسمة في الحملة الرئيسية عبر نهر "الرين" . وفي الواقع كانت حملة ليست عقيمة الخاتمة فحسب ، بل كانت سيئة العاقبة — وذلك نتيجة اقتراب غير مباشر . ففي يولييه سنة ١٧٩٦ لما وجد الأرشدوق "تشارلس" نفسه مجابها للزحف الذى استأنفه كل من الجيشين المتفوقين عاياه وهما جيشا "جوردان" و "مورو" قرر قراره بحسب أقواله ، على « أن يقهقر الجيشين (جيشه وجيش وارتزلين) خطوة بخطوة دون أن يتورط في معركة ثم ينتهز أول فرصة تسنح لضمهما معا لكي يلقي بنفسه على أحد جيشي العدو وهو متفوق عليه أو مساو له على الأقل » . على أن ضغط هذين الجيشين لم يسمح له بفرصة ينفذ فيها هذه الاستراتيجية « الخطوط الداخلية » التى هى عادية ومباشرة الا اذا كانت بفكرة ترك أراضى — الى أن تحولت الى اقتراب غير مباشر حقيقى بفعل بريحا ديرالفرسان "نويندرف" الذى قام به من تلقاء نفسه . فان استطلاع هذا الضابط الذى توسع فيه أراه أن الفرنسيين يقومون بحركة تحول ليتلاقوا بعدها ويتجمعوا على "وارتزلين" ليبيدوه . فأرسل الرسالة الإلهامية القائلة « اذا شاء سموكم الملوكى أو استطاع أن يرسل ١٢,٠٠٠ جندي ليزحفوا على مؤخرة جوردان لكان في ذلك ضياعه » . واذا كان تنفيذ الأرشدوق لم يكن بالجرأة التى قامت عليها فكرة مرعوسه فانها كانت كافية لاحباط حركة الفرنسيين التعرضية . وكان من أثر تقهقر جيش "جوردان" الذى تمزق شمله ورجوعه بغير انتظام الى نهر "الرين" وعبره الى الجانب الآخر ، أن اضطر "مورو" لأن يترك أعماله الموفقة في "بافاريا" ويرجع كما رجع هو .

ولكن بينما خاب المسعى الرئيسى على نهر "الرين". وخاب ايضا مرة أخرى فيما بعد ، فان الحسم جاء من مسرح ثانوى — هو ايطاليا — حيث تمكن بونا بارت من تحويل حركات دوعية مشكوك فيها الى اقتراب حاسم غير مباشر أدى الى اختتام الحرب بالنصر. والخطة التي انتهجها كانت جاهزة في عقله منذ سنتين حينما كان من ضباط أركان الحرب في هذه المنطقة وصارت بعدها جزءا في نظريته عن الحرب لما كان في باريس . فقد كان كبار المتنبيين يعبر عن أفكاره الهادئة بالأحاجى وكان أتباعه كأتباعهم من عاداتهم أن يفسروا هذه الأحاجى على غير حقيقتها . فمثلا قال فيما قال من أقواله المأثورة ، وربما كان أكثرها مغزى : « مبادئ فن الحرب هي نفس مبادئ الحصار . فيجب فيها تركيز النيران (أى جمعها) في نقطة واحدة ويجرد شق ثغرة يختل التوازن . أما الباقي فهو لاشيء » . أما النظرية العسكرية التي أتت بعده فقد وضعت نبرة التوكيد على الشطر الأول من هذه العبارة بدلا عن الشطر الثانى . وعلى الخصوص على كلمة « نقطة واحدة » بدلا من « التوازن » فالأول لا يخرج من كونه كناية ، في حين ان الثانى يعبر عن النتيجة النفسية التي تحقق « ان الباقي لاشيء » . وهذا التوكيد يشاهد في المجرى الاستراتيجى لحملاته الحربية .

أما لفظة « نقطة » فقد بلغت بها الحالة أن أصبحت منشا ارتباك كثير وجدل أكثر . فطائفة تقول ان الذى يقصده نابليون هو أن الصربة المركزة يجب أن توجه الى أقوى نقطة لدى العدو بحجة أن هذا ، وهذا وحده . هو الذى يكفل النتائج الحاسمة . لانه متى انكسرت مقاومة العدو الرئيسية فان انكسارها يسرى على أية مقاومة أقل منها . وهذا القول يغفل عامل الكلفة كما يغفل الواقع . وهو أن المنتصر قد يكون من الضعف في درجة لا يستطيع معها استغلال ما ناله من الفوز . حتى ان المقاومة التي هي أقل قد تتطلب قوة مقاومة أعظم مما تتطلبه المقاومة الأصلية . والطائفة الأخرى وهى المتابعة بفكرة الاقتصاد في القوة أكثر من الفريق الأول ولكن بدرجة محدودة فيما يختص بالشكليف الأولى فقط . (هذه الطائفة تقول ان الغرض المقصود يجب أن يكون هو أضعف نقطة عند العدو . على أن النقطة التي يظهر أنها تركت في حالة ضعف تكون عادة تركت كذلك لبعدها عن أى شريان حيوى أو أى مركز حساس . أو أنها تركت ضعيفة قصدا لتجر العدو الى شرك منصوب .

وهنا أيضا نجد التفسير في الحملة التي نفذ فيها نابليون هذا القول فعلا . وذهب يتفجع بجلاء أن الذى قصده نابليون ليس في الحقيقة كلمة « نقطة » بل « مفصل » أى نقطة الاتصال . وأنه في هذه المرحلة من مراحل حياته العسكرية كان متشعبا بفكرة الاقتصاد في القوة بدرجة لا يستطيع معها التفريط في قوته المحدودة فيستخدمها كالمطرق يطرף بها نقطة العدو القوية . أما المفصل فهو حيوى من جهة . وعرضة للأضرار من جهة أخرى .

وفي ذلك الحين ايضا قال نابليون عبارة أخرى اعتبرت فيما بعد مبررا لأكثر الطرائق تهورا وطيشا وهي تركيز الجهود ضد قوات العدو المسلحة الرئيسية . تلك هي قوله : ”النمسا هي العدو الكبير فتي سحقت النمسا سقط كل من ألمانيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا من تلقاء نفسها . فيجب علينا ألا نتفرق . بل نركز هجومنا “ . غير أن تنفيذ هذه الفكرة يبين لنا أنه لم يقصد بها الهجوم على النمسا مباشرة . بل قصد بها اقترابا غير مباشر عن طريق إيطاليا . وحتى في هذا المسرح الثانوى جعل هدفه ضرب الشريك الأصغر وهو جيش سردينيا . وإخراجه من الحرب قبل أن ياتفت الى الشريك الأكبر .

وكان بوناپارت في ”رفيريا“ و”جنوا“ . والنساويون والسردينيون على الجانب الآخر من الجبال الواقعة شمالا . فربح بوناپارت الميزة الافتتاحية . وكان الفضل في ذلك للحظ وللتصميم سواء بسواء ، وعلى كل حال فإن ذلك لم ينقص من مغزاها ، فانه غرر بالنساويين فحولهم الى جهة الشرق وبالسردنيين فحولهم الى جهة الغرب . ثم أنزل ضربته بالمفصل . أى مكان اتصال الجيشين ، الذى أصبح ضعيفا . ثم ضغط النساويين فأرجعهم مرة أخرى نحو الشرق فتوافر لديه الوقت والمسافة اللازمين لحشد جنوده نحو الغرب ضد السردنيين . ”فاختلت الموازنة“ فكان لذلك من التأثير النفسانى على السردنيين أكثر من تأثير المزيمة المادية فرفعوا أصواتهم طالبين عقد هدنة أخرجهتهم من الحرب .

فأصبح الآن متفوقا على النساويين عددا وهم بمفردهم (٣٥٠.٠٠٠ مقابل ٢٥٠.٠٠٠) . فهل هو زحف عليهم مباشرة ؟ كلا . فانه في اليوم التالى لعقد الهدنة مع السردنيين اتخذ ”ميلانو“ غرضاً له . غير أن طريقه اليها غير المباشر كان طريق ”تورتونا“ و”بياشترا“ . أو هو الطريق الموصل الى مؤخرتها في الحقيقة . وبعد أن خدع النساويين وجعلهم يحتشدون في ”فالترزا“ لمقاومة زحفه المنتظر شمالا — بشرق ، سار شرقا بدلا من سيره على طول الشاطئ الجنوبى انهر ”البو“ . وبذا عند ما وصل الى ”بياشترا“ كان قد دار حول كل خطوط المقاومة التى كان فى امكان النساويين أن يهيئوها . غير أن عدم وجود معدات إنشاء الجسور (قطر الكبارى) معه أخره في ”بياشترا“ حينما اتجه شمالا . فأسرع النساويون بالرجعة ونجوا والتجأوا الى ”ماتتاو“ وصرع القلاع المشهور قبل أن يتمكن بوناپارت من استخدام نهر ”الادا“ لسد خط رجعتهم . وحتى في هذه الحالة كان قد استولى على ”ميلانو“ وسهول لومبارديا الغنية واكتسبها بلا ثمن لجنوده الذين كانوا جوعا عراة .

وبعد ذلك أنف وترفع عن الزحف نحو النمسا مباشرة التى هي العدو الرئيسى ، كما كانت تستوجبه الدواعى العسكرية الأصولية . ثم أبى أن يسير الى إيطاليا الوسطى امتثالا لأمر (الديركتوار) الذى صدر له ، لأسباب سياسية . وبدلا من هذا أو ذاك وفق بين الغاية التى يقصدها والوسائل التى لديه توفيقا يشف عن الدهاء واستخدم ”ماتتاو“ وبمناوبة طعم لجر قوات الانتقاذ

النمساوية التي كانت تتوارد على التوالي . وابعادها عن قاعدتها لتقع في يده . ومما هو جدير بالذكر أنه لم يستحكم في متاريس ينشئها في موقع ساتركما كانت عادة القادة التقليدية . بل أبقى قوائمه جواله خفيفة الحركة متخذة من الأوضاع مجموعات طليقة الارتباط مترامية الأبعاد . استطاع حشدها في أى اتجاه كان . ففي أول محاولة قام بها النمساويون لخلاص "مانتاو" تعرضت طريقة "بونابارت" لخطر بسبب عدم رغبته في ترك حصار "مانتاو" والتجاوز عنه . ولذلك فهو لم يتمكن من استخدام خفة حركاته للتغلب على النمساويين في "كاستليونى" إلا بعد أن تخلص من هذه الربطة . وفي ذلك الحين صدر له أمر (الديركتور) بالزحف واحتياز مقاطعة "التيرول" والتعاون مع جيش "الرين" الرئيسى . فانتفع النمساويون بهذا الزحف المباشر وانسلوا متجهين شرقا بكثلة قوتهم يختازين وادى "سوجانا" وهبطوا سهل فينيسيا (البندقية) ثم اتجهوا غربا الى "مانتاو" . على أن بونابارت بدلا من موالاته الزحف نحو الشمال . أو رجوعه ليحرس "مانتاو" . انقلب وراء النمساويين وطاردهم مؤخرتهم مطاردة حارة من خلال الجبال . وبذلك أجاب على اقتراب العدو غير المباشر بمثله ولكن اقترابه هو كان له غاية حاسمة ، في حين أن الآخر كانت غايته محدودة . فلاحق مؤخرتهم وبحثها في "باسانو" ولما برز الى سهل فينيسيا متعقبا بقيتهم كان مما هو جدير بالذكر أنه أرشد المطاردين الى الحيلولة بين العدو "وترستا" ، وقطع خط رجعتهم الى النمسا . وأن لا يمنعهم من المسير الى "مانتاو" . وبهذه الوسيلة انضموا الى الموجودين بمستودع "بونابارت" في "مانتاو" . فحس هذا المقدار من رأس مال النمسا العسكرية اضطرها الى البذل من جديد . وفي هذه المرة . وهى ليست المرة الأخيرة كان من شأن اقتراب تكتيكات "بونابارت" اقترابا مباشرا ، ان جعل اقترابه الاستراتيجى غير المباشر في خطر بعد ان صادف نجاحا . فلما قرب النمساويون من "فيرونا" وهى المركز الذى كان يحرس منه "مانتاو" ألقي بنفسه على طليعة قولاتهم الرئيسية فصدمته صدمة عنيفة . ولكنه بدلا من أن يتقهقر اختار القيام بمنارة متسعة ، منطوية على الجراحة ، حول جناحهم الجنوبي لياتى على مؤخرتهم . وقد زاد الخطر على مناورته بسبب المستنقعات ومجارى المياه التى أخرت سيره . ولكن اتجاهها ، على الأقل ، أوقع العدو في حيرة . ولما كانت كفتا المعركة معلقين بالميزان في "اركولا" ، لجأ بونابارت الى حيلة تكتيكية حاسمة ، ندر أن استعملها — هى أنه أرسل بضعة من ناخى الأبواق (بروجية) الى مؤخرة النمساويين لينفخوا نوبة الهجوم . وبعدها ببضع دقائق اندفعت الجنود النمساوية التى كانت نابتة القدم في القتال ، وانساب كالسيل لاجئة للفرار ، وبعد ذلك شهرين في يناير سنة ١٧٩٧ حاول النمساويون للمرة الرابعة والأخيرة أن ينقذوا "مانتاو" ، ولكنها خابت في "ريفولى" حيث أدت جنود بونابارت بتشكيلها المؤلف من مجموعات غير مرتبط بعضها ببعض ، عملها على وجه يكاد يبلغ غاية الدقة ، فكانت كشبكة منتشرة . أركانها مثقلة بأحجار . متى اصطدم بها قول من قول العدو انضمت حول

نقطة الضغط واصطدمت الأحجار ببعضها على العدو . وهذا التشكيل الواقع لنفسه بنفسه الذى يصير تشكيلا هجوما مركزا عند الاصطدام كما مر بيانه . كان نتيجة ترقية بونا بارت لنظام الفرق الحديث الذى بموجبه ينقسم الجيش دائما الى أجزاء يتحرك كل منها مستقلا عن غيره ، بدلا من بقائه كتلة واحدة كما كان سابقا ، تفصل عنه الأقسام الصغيرة مؤقتا فقط . أما تشكيل المجموعات فى حملات بونا بارت الايطالية فقد صار عبارة عن "مربعات الأورط" التى تطورت بدرجة أرقى . ثم حل الفيلق محل الفرقة فى حروبه التى جاءت بعدها . ولكن بالرغم من أن هذه الشبكة كانت هى الوسيلة التى سحقت جناح النمساويين الذى كان يقوم بالمناورة فإن مما يستحق التنويه هو أن قهر مقاومتهم الرئيسية جاء من جرأة بونا بارت وارساله آلايا واحدا مؤلفا من ٢٠٠٠ جندي فعبر بحيرة "جاردا" فى القوارب واستقر على خط رجسه جيش بأ كمله . فعند ذلك سلمت "مانتاو" . ثم ان النمساويين الذين أضاعوا جيوشهم فى المجهود الذى بذلوه لانقاذ هذا الباب انهار جى لبلادهم اضطروا الآن ، ولا حيلة فى يدهم ، أن يراقبوا اقتراب "بونا بارت" السريع من الباب الداخلى المجرد من وسائل الدفاع . فادى هذا الحال الى اغتصاب الصلح من النمسا بينما كانت الجيوش الفرنسية مازالت لم تتجاوز الجانب الآخر من نهر "الرين" الا ببضع أميال .

وفى خريف سنة ١٧٩٨ تكوّن الائتلاف الثانى من روسيا ، والنمسا ، وانجلترا ، وتركيا ، والبرتغال ، و نابولى . والبابا . لفك قيود معاهدة هذا الصلح . وكان بونا بارت غائبا فى مصر ولما عاد كانت فرنسا قد أفل نجم سعتها . فكانت جيوش الميدان ناقصة نقصا كبيرا . وكانت الخزينة خاوية . وأفواج المجندين آخذة فى التناقص . أما "بونا بارت" فانه بعد أن قلب الديركتوار على أثر عودته وصار أول قنصل فانه أمر بتشكيل جيش من الجنود الاحتياطية فى "ديجون" يتألف ممن يستطيع جمعهم من الجنود الموجودين بأرض الوطن . فهل هو استخدم هذا الجيش لتعزيز مسرح الحرب الرئيسى والجيش الرئيسى على نهر "الرين" ؟ كلا . فانه بدلا من ذلك رسم خطة هى أكثر كل اقتراباته غير المباشرة جرأة — هى حركة كاسحة على قوس مهول تصل الى مؤخرة الجيش النمساوى بايطاليا . فان هذا الجيش كان قد طرد الجيش الفرنسى الصغير «جيش ايطاليا» وأرجعه الى الحدود الفرنسية بوجه التقريب ثم حمزه فى الركن الشمالى الغربى من ايطاليا . وكان بونا بارت ينوى أن يحتاز "سويسرا" الى "لوسيرن" أو "زوريخ" ثم يهبط الى ايطاليا فى مكان يبعد نحو الشرق بعد ممر "سان جوتارد" بل وبعد التيرول . غير أن أخبار مضايقة جيش ايطاليا مضايقة شديدة أدت به لأن يسلك طريق "سان برنار" الذى هو الطريق الأقصر . وعلى ذلك فانه لما برز من جبال "الألب" فى "ايفريا" فى آخر أسبوع من شهر مايو سنة ١٨٠٠ كان ما يزال على جبهة الجيش النمساوى الحقيقية . فبدلا من أن يتدفع نحو الجنوب الشرقى لنجدة "ماسينا" مباشرة اذ كان منحسبا

في "جنووا" ، أرسل حرسه الأمامي جنوبا الى "شيراسكو" ثم استتر هو بنفسه ومعه الجيش الرئيسي وراء هذا «التحويل» وتسلل نحو الشرق الى "ميلانو" . وعلى ذلك فانه بدلا من أن يزحف لملاقاة العدو «في موقعه الطبيعي» ، اتجه نحو الغرب في "الساندرية" وتوصل الى «موقع طبيعي» يعترض مؤخرة النمساويين — وذلك هو الحاجز الاستراتيجي الذي كان الغرض الافتتاحي في أشد مناوراته خطرا على مؤخرة العدو . لأن هذا الموقع بما فيه من الموانع الطبيعية يهيئ له مركزا آمنا يستعد منه لتلقى العدو بين ذراعيه ، ذلك العدو الذي يكون ميله «الطبيعي» حينما ينقطع عليه خط رجعتة وتموينه أن يتقلب راجعا نحوه في جماعات صغيرة بحكم العادة . وقد كانت هذه الفكرة ، فكرة الحاجز الاستراتيجي ، أعظم ما قدمه بونا بارت لاستراتيجية الاقتراب غير المباشر .

وفي "ميلانو" كان قد سد أحد طريق رجعة النمساويين . والآن بعد أن مَدَّ حاجزة جنوبى نهر "البو" حتى مضيق "سترادلا" فانه سد الطريق الآخر . على أن فكرته هنا كانت قد تجاوزت حدود وسائله في ذلك الحين بعض التجاوز . لأنه كان لديه ٣٤.٠٠٠ جندي فقط وبسبب عدم رضا "مورو" تأخر وصول الفيلق البالغ عدده ١٥.٠٠٠ جندي الذي كان "بونا بارت" أمر جيش "الرين" بإرساله اليه عن طريق "سان جوتارد" . فازداد القلق من جراء رقة هذا الحاجز . وفي ذلك الحين سلمت "جنووا" فزال بسقوطها العامل "الثابت" ثم ان عدم التأكد من الطريق الذي قد يسلكه النمساويون الآن ، وخصوصا الخوف من أنهم قد يكون محصورين في "جنووا" حيث تستطيع البحرية البريطانية تجديدهم تموينهم كانا سببا في ضياع قسم كبير من الميزة التي كان حصل عليها . لأنه قدّر لأعدائه من القوة الانشائية أكثر مما لهم . فترك "موقعه الطبيعي" في "استرادلا" واندفع نحو الغرب ليستطلع طلعمهم . ويقطع الطريق من "الساندرية" الى "جنووا" . فباغته العدو في ظرف ليس في صالحه ولم يكن معه اذ ذاك الا جزء من جيشه حينما خرج النمساويون من "الساندرية" بغاة وزحفوا لملاقاته في سهول "مارنجو" (في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠) وبقيت المعركة بينهما في شك مدة طويلة وحتى حينما رجع القسم الذي كان تحت قيادة "دسيه" الذي كان أرسل الى طريق "جنووا" لم يزد التأثير عن ارجاع النمساويين الى الوراء . على أن موقع بونا بارت الاستراتيجي ظهر تأثيره ومكانه من انتزاع الهدنة من القائد النمساوي الذي خارت قواه المعنوية ، من شروطها جلاء النمساويين عن "لومباديا" ورجوعهم الى ما وراء نهر "المنشيو" . ومع أن الحرب استؤنفت واستمرت متقطعة وراء "المنشيو" فان رد الفعل الذي أحدثته معركة "مارنجو" ظهرت آثاره في شروط الهدنة التي اختتمت بها حرب الائتلاف الثانية بعدها بستة أشهر .

وبعد انقضاء عدة سنين في صلح مزعزع ارتفع الستار الذي كان أسدل على حروب الثورة الفرنسية عن فصل جديد — هو الحروب النابليونية . ففي سنة ١٨٠٥ تجمع جيش نابليون

البالغ عدده ٢٠٠,٠٠٠ جندي في "بولونية" مهددا بالهبوط على الشاطئ الانجليزى ، واذا هو يتجه بغاة نحو نهر "الرين" بالسير الجبرى . ولم يتأكد بعد ، ما اذا كان نابليون ينوى غزو بلاد الانجليز مباشرة بصورة جدية . أو أن تهديده كان مجرد الحركة الأولى في اقترابه الى النمسا اقترابا غير مباشر . فكان حسابه أن النمساويين يرسلون جيشا الى "بافاريا" ، كما هي عادتهم . لسد منافذ الخروج من الغابة السوداء . وعلى هذا الأساس رسم خطة مناورته المتسعة النطاق للانتفاف حول جناحهم الشمالى عبر نهر "الدنوب" ومنه الى نهر "المنخ" — الذى هو الحاجز الاستراتيجى الذى ينوى ايجاده ليعترض مؤخرتهم . فكان تكرارا للمناورة "استرادالا" ، فى نطاق أعظم . وقد أكد ذلك نابليون نفسه لجنوده . وفضلا عن ذلك فان تفوقه فى القوة مكنه من تحويل هذا الحاجز بمجرد تأسيسه الى حاجز متحرك . وهذا الحاجز بتضييقه على مؤخرة الجيش النمساوى أدى الى تسليمه فى "أولم" تسليما يكاد يكون دون سفك دماء . وبعد أن أجهز نابليون على هذا "الشريك الأضعف" اضطر أن يعالج الجيش الروسى الذى كان تحت قيادة "كوتوزوف" الذى كان قد وصل اذ ذاك الى نهر "الإن" بعد أن اجتاز بلاد النمسا وجمع أقساما نمساوية صغيرة . وكان هناك اذ ذاك تهديد آخر يقل قربا عن تهديد الروس . ذلك هو عودة الجيوش النمساوية الأخرى من ايطاليا "والتيرول" . وفى ذلك الحين صار حجم قوات نابليون ، لأول مرة وان لم تكن الأخيرة ، مما يسلبه راحة البال . فان المسافة الكائنة بين نهر الدنوب والجبال الواقعة الى الجنوب الغربى كانت تضيق بجيوشه الحرارة لدرجة تعوق اقترابه من العدو محليا اقترابا غير مباشر . ولم يكن لديه وقت كاف للقيام بحركة متسعة النطاق كمناورته فى "أولم" . غير أنه طالما أن الروس يبتقون على نهر "الإن" فهم فى «موقع طبيعى» لا يدرأون منه عن الأراضي النمساوية فحسب ، بل يكونون بمثابة وقاية تستمر وراءها الجيوش النمساوية الأخرى وهى قادمة من الجنوب مختقة "كارنثيا" لتنضم اليهم فيتعاونون معا على اقامة سد منيع يقاوم نابليون . فلما رأى نابليون نفسه أمام هذه المسألة قام بمسلسلة من التغيرات الدالة على منتهى الدهاء فى الاقتراب غير المباشر . فكانت غايته الأولى دفع الروس الى جهة الشرق بقدر ما فى امكانه حتى يفصلهم عن الجيوش النمساوية التى كانت عائدة اذ ذاك من ايطاليا . وعلى ذلك بينما كان هو يزحف نحو الشرق تماما فى اتجاه "كوتوزوف" و"فينا" أرسل فيلق "مورتيير" ليسير على طول الشاطئ الشمالى لنهر الدنوب . فهذا التهديد الموجه الى مواصلات "كوتوزوف" مع بلاد روسيا كان كافيا لتحريض "كوتوزوف" على التقهقر بالميل نحو الشمال الشرقى الى "كرمز" على الدنوب . وعند ذلك بعث نابليون قائده "موراث" ليسرع فى سيره فاصدا "فينا" مارا أمام الجبهة الجديدة التى اتخذها "كوتوزوف" .

ولما وصل "موراث" الى فينا جاءت تعليمات بالتوجه شمالا نحو "هولابرون" . وبهذه الكيفية بعد أن هدد نابليون جناح الروس الأيمن فى بادئ الأمر أصبح مهددا لميسرة مؤخرتهم .

فهذه الحركة وان كانت قد اخفقت في فصل الروس عن بلادهم وقطع مواصلاتهم اليها بسبب الخطأ الذي وقع فيه "موراث" واتفاقه معهم على عقد هدنة وقتية ، إلا أنها طردتهم فتقهقروا مسرعين نحو الشمال الشرقي ، أكثر مما كانوا ، حتى وصلوا الى "أولتس" بالقرب من حدودهم . على أنهم وان كانوا الآن قد "تحولوا" عن الامدادات المتساوية وابتعدوا عنها ، فانهم ازدادوا قريبا من امداداتهم الروسية وجاءهم قسم كبير منها في أولتس فعلا . فزيادة الضغط عليهم وارجاعهم الى الوراء لا تؤدي الا الى توطيد قوتهم فضلا عن أن الوقت قد أزف وأصبح دخول بروسيا الحرب قريبا . ولذلك فان نابليون لجأ الى "اقترب" غير مباشر هو اغراء الروس على انتهاز خطة التعرض بأن يستعمل الدهاء وتظاهر بمظهر الضعف . فحشد ٥٠,٠٠٠ جندي في "برون" لمواجهة ٨٠,٠٠٠ من جيش العدو . ومنها بعث أقساما منفصلة نحو أولتس . ثم انه عزز الاعتقاد بضعفه بأن أرسل "رسل الصلح" الى كل من قيصر روسيا وامبراطور النمسا . ولما جازت هذه الحيلة على العدو ارتد من أمامه ورجع الى موقع في "أوستراتز" هيئته الطبيعية للشرك الذي نصبه . وفي المعركة التي نشبت على أثر ذلك استخدم ضربا من أمثلته النادرة في الاقتراب التكتيكي غير المباشر ليستعويض به عن ضعفه العددي الذي كان هو أيضا نادرا في ميدان المعركة . واستدرج العدو لأن يمد يده ليهجم على خط رجعته ثم دار حول مركزه وقابل "المفصل" الضعيف ففاز بنصر حاسم لدرجة أن امبراطور النمسا طلب الصلح في ظرف ٢٤ ساعة .

ولما التفت نابليون الى بروسيا بعد ذلك ببضعة أشهر ليناقشها الحساب كانت لديه الكثرة العددية بنسبة اثنين الى واحد تقريبا ، اذ كان لديه جيش «عظيم» من وجهتي الكم والنوع ، يقابله جيش ناقص التعليم ذو منظر عتيق مهجور . فكان تأثير هذا التفوق المضمون لنابليون ظاهر الأثر في استراتيجيته وكان لهذا الأثر مفعول أخذ يزداد وضوحا في ادارة حملاته الأخيرة . ففي سنة ١٨٠٦ كان ما يزال يبحث عن مزية المفاجأة الافتتاحية وقد أحرزها . فهو لهذه الغاية كان قد أسكن جنوده بالقرب من نهر الدنوب . ومن هناك حشدوها على عجل الى جهة الشمال وراء الستار الطبيعي المكون من غابة تورنجن . ثم خرج بغاة من منطقة الغابات وبرز الى الأرض الفضاء الواقعة وراءها . واندفعت جنوده وهي بتشكيل «سربعات الأورط» قاصدة قلب بلاد العدو . وبهذه الكيفية وجد نابليون نفسه — لا وضع نفسه — وراء قوات البروسيين . ولما دار دورته ليسحقها في "جينا" كان يظهر أنه اعتمد مبدئيا على مجرد قوته الدافعة . أما التأثير الأدبي لموقعه الذي كان فيه فقد جاء عرضا عن غير قصد وان كان من الأهمية بمكان .

وكذلك أيضا في الحملة التي قام بها ضد الروسين في بولندا ، وفي بروسيا الشرقية كان هم نابليون الرئيسي والغاية الوحيدة التي كان يرمى اليها . على ما يظهر . هو استدراج عدوه الى

الاشتباك في معركة ، انقته بأنه لو تم له ذلك كان في امكان الله (أى جيشه) أن تغلب على العدو . فكان ما يزال يستخدم المناورات التي يتصدها مؤخره العدو . على أن ذلك كان وسيلة يرمى بها الى توثيق قبضته على العدو حتى يجذبه ويجعله بين فكيه أكثر منه وسيلة لاذابة قوته المعنوية حتى يسهل ازدراده .

فالاقتراب غير المباشر هنا هو وسيلة لتشتيت أفكار العدو وتحويلها الى جهة غير الجهة المقصودة ، ووسيلة « لجره » من الوجهة المادية أكثر من كونه لتشتيت أفكاره وزحزحته من الوجهة المعنوية .

وهكذا كان يقصد بالمناورة التي قام بها في «بولتوسك» أن يجر الروس نحو الغرب حتى انه متى زحف شمالا من بولندا يتيسر له أن يقطع خط رجعتهم الى روسية ويفصلهم عنها . ولكن الروس أفلتوا من بين فكيه . وفي يناير سنة ١٨٠٧ تحرك الروسيون نحو الغرب بحض ارادتهم ، توجهين نحوالبقية الباقية من حلفائهم البروسيين الموجودين «بدانتسج» فأسرع نابليون واتهم هذه الفرصة لقطع مواصلاتهم مع بروسيا . على أن التعليقات التي أصدرها وقعت في أيدي جنود القوزاق فتقهقر الجيش الروسى قبل فوات الأوان . وعند ذلك اتبعهم نابليون في الحال . فلما وجدهم متخذين موقعا جيبيا في «إيلاو» ومستعدين لقبول المعركة لجأ الى مناورة تكتيكية بحثة وجهها الى مؤخرتهم . على أن العواصف الثلجية تدخلت في أعمال جيشه وأعاقتها فلم يزدرد الروسيين بالرغم مما تكبدوه من الأضرار . وبعد ذلك بأربعة أشهر كان كل من الفريقين قد استعاد نشاطه وتحرك الروسيون بخاة نحو الجنوب قاصدين «هايلزبورج» زاحفين عليها . فما كان من نابليون الا أن أدار «ممرعات أورطة» نحو الشرق ليحول بينهم وبين «كويجز برح» التي كانت قاعدتهم القريية . ولكنه على ما يظهر كان في تلك المرة متشبعا بفكرة المعركة لدرجة أنه لما جاءه بلاغ من فرسانه الذين كانوا يقومون باستطلاع جناح طريقه بأن الروس موجودون في موقع قوى في «فريد لند» . أدار قوته نحوهم وقصدهم في الحال . ففاز بالنصر التكتيكي لا بفضل المفاجأة أو خفة الحركة بل بالقوة الهجومية المحض .

والذى يفسر ذلك هو حشد كتلة من المدافع في نقطة مختارة طبق تكتيكات المدفعية التي وضعها نابليون حديثا . وكان مقدرا لهذه التكتيكات أن تصير القوة الدافعة لآله التكتيكية أكثر فاعلا على مدى الأيام . وهى وان كانت قد كفلت النصر في «فريد لند» كما كفله مرارا عددا الا أنها لم تكن ذات أثر يذكر في نجاة الأتفس . ومن الغريب أن مفعول السلطة المطلقة في تجنيد الجنود في سنة ١٨٠٧ — ١٨١٤ وجد له شبيها في سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ومن الغريب أيضا أن كلتا هاتين الحالتين كانت مقترنة بطريقة استخدام ضرب المدافع بشدة متناهية .

فهو الذى يفسر ذلك هو أن التبذير يؤدى الى الطيش وتجاوز الحد، على نقيض الاقتصاد فى القوة من الوجهة العقلية — الاقتصاد الذى يقوم على وسيلتين هما المفاجأة وخفة الحركة؛ هذه الفكرة يؤيدها تشابه النتائج، كما شوهد فى سياسة نابليون .

فقد تمكن نابليون من استخدام أبهة النصر الذى أحرزه فى "فريدلند" لتعزيز أبعته الشخصية فى التغرير بقيصر روسيا وفصله عن رفقاته فى الائتلاف الرابع . على أنه جازف حينذاك بالميزة التى كانت له وأخيرا جازف بامبراطوريته بتجاوزه الحد فى استغلاله ذلك الحادث . ذلك أن صرامة الشروط التى وضعها لروسيا قوضت أركان السلم . أما سياسته مع انجلترا فكانت لا ترمى الى شىء أقل من دمارها . ثم ان اعتدائه أضافت كلالا من اسبانيا والبرتغال الى أعدائه . وانه لجدير بالذكر فى هذا المقام أن "الهجمات المتقطعة" التى قام بها "سيرجون مور" القصيرة الأجل الموجهة الى "بورغوس" ومواصلات القوات الفرنسية فى أسبانيا كانت اقترابا غير مباشر فزحزحت خطط نابليون فى أسبانيا ومهدت السبيل للثورة الوطنية وأوجدت لها الزمان والمكان لاستجماع قوتها . ومن ثم جعلت شبه جزيرة "إيبيريا" شوكة فى خصرة نابليون من ذلك الحين فما بعد . وفوق كل ذلك فإن التأثير الأدبى لهذه الخيبة التى صادفها نابليون لأول مرة بعد ان كان لا يقاوم ، كان لها معنى خاص . أما نابليون فلم يكن لديه أقل أمل فى استرجاع مركزه لأنه رجع بسبب تهديد روسيا بالثورة والنمسا بدخول الحرب من جديد . أما تهديد النمسا فقد صار أمرا واقعا . وابتدأ نابليون فى حملة سنة ١٨٠٩ يحاول مرة أخرى القيام بمعاودة ليصل بها الى مؤخرة العدو فى "لاندسهوت" و"فيينا" غير أن نابليون اذا صادفته عوائق أثناء تنفيذ هذه المناورات ينقد صبره ويغامر باقتراب مباشر تتلوه معركة . وهكذا أصابته أول هزيمة كبرى فى "أسبيرن-إسلنج" من جراء ذلك . واذا كان نابليون قد انتقم لها بالنصر الذى أحرزه فى "واغرام" فى نفس النقطة بعد ستة أسابيع فانه دفع ثمنها غالبا فضلا عن أن الصلح الذى أعقبه لم يستقر على أساس ثابت .

حرب شبه الجزيرة

على أن نابليون توافرت لديه مهلة سنتين قضاهما فى معالجة تلك "الفرحة الاسبانية" وكما أن تدخل "مور" خيب مساعى نابليون لانحداد نار الثورة فى أوائل مراحلها ، كذلك أعاق "ولنجتون" فى السنين التى أعقبت ذلك كل تدابير علاجها حتى تتيح الجرح ودب فيه الفساد ويمر منه السم الى سائر أجسام النظام النابليونى . نعم ان الفرنسيين كانوا قد تغلبوا وما زالوا يتعلمون على أية قوة نظامية أسبانية . على أن شدة هذه المزايم جاءت بأعظم الفوائد — للمهزومين . لأنها كففت تحول مساعى الاسبانين الرئيسية الى حرب العصابات حتى تغيرت الحال وحلت محل الجنود النظامية التى كانت تؤلف أهدافا عسكرية عرضة للاصابات . عصابات كان يقودها قادة ممتثلون نشاطا لا يذعنون لنظم خاصة فكانوا يقومون بالعمليات بدلا عن الجنرالات

الاسبانيين الذين كانوا يخضعون لأشد درجات التقييد . أما كارثة الكوارث التي نزلت بأسبانيا ، وبانجلترا بالنال ، فكانت في النجاح الموقت الذي صادفته محاولة تشكيل قوات نظامية من جديد . ولكن لحسن الحظ لم يلبث الفرنسيون أن تغلبوا على هذه القوات وشتوا شتمها فشتوا معها حسن حظهم وانتشر السم مرة أخرى بدلا من تجمعه في نقطة واحدة . وفي هذه الحروب العجيبة بذلت انجلترا أقصى ما لها من النفوذ في مضاعفة هذه المتاعب وتشجيع بواعثها . فقد ندر أن سببت لخصومها ”تسيتا“ لأفكارهم أكثر مما سببته لهم في هذه الحرب بمنزل هذا الثمن الضئيل من المجهود العسكى . ثم ان النتائج التي حصلت في أسبانيا كانت ذات مغزى خاص متى قورنت بالنتائج التي جاءت على نقيضها . تلك النتائج الضئيلة ، بل النتائج السيئة ، التي نتجت عن محاولة انجلترا التعاون مباشرة مع حلفائها في القارة الأوروبية من جهة . ومن تجريداتها التي أرسلتها الى نقط غير المحيط الالتئطى من جهة أخرى . فقد كانت تلك النقط بعيدة بدرجة لا تؤثر على خصمها من الوجهتين الجغرافية والنفسية . ومع ذلك فقد كان لتجريدات النوع الثانى ما يبررها من وجهة نظر السياسة القومية والرخاء فانها أضافت لامبراطورية البريطانية مستعمرة الكاب ، وجزيرة موريتيوس ، وسيلان ، وعدة جزائر من جزر الهند الغربية .

على ان النتيجة الحقيقية للاقترب غير المباشر المؤسس على الاستراتيجية العظمى الذي قامت به انجلترا في اسبانيا قد ألقى عليها المؤرخون حجبا من الغموض بسبب نزعاتهم التقليدية . اذ كان الذى يملك عليهم مشاعرهم انما هى المعارك . وفي الواقع فانهم بمعالجتهم حرب شبه الجزيرة بصفتها بيانا تاريخيا لمعارك ”ولنجتون“ وحصاراته قد جعلوها عديمة المعنى . ولقد جاهد سير ”جون فورتسكيو“ في اصلاح هذه النزعة وهذه السفسطة بالرغم من أن مهمته الرئيسية كانت قاصرة على وضع ”تاريخ الجيش البريطانى“ . ومما له مغزى خاص أنه حينما تعمق في أبحاثه أخذ ينوه بلهجة التأكد ، أكثر فأكثر ، بما كان للعصابات الأسبانية من الأثر الظاهر في النتيجة التي انتهى اليها النضال .

فاذا كان وجود قوة التجريدة البريطانية هو الأساس الجوهرى لذلك الأثر ، فمن المحتمل أن معارك ”ولنجتون“ كانت هى القسم الذى كان أقل أثرا في عملياته . أى الشطر الذى كان أقل تأثيرا في تلك العمليات . فهو بهذه العمليات قد أوقع بالفرنسيين خسائر لا تزيد على ٤٥,٠٠٠ بين قتيل وجريح وأسير في مدة السنين الخمس التي قضاها في الحملة الى أن طردهم من أسبانيا ، في حين أن الجنرال ”ماربوت“ قدر عدد الموتي فقط من الفرنسيين في تلك المدة بمعدل مائة في اليوم . ومن ثم يستنتج استنتاجا لا غموض فيه ولا ابهام أن الكثرة الساحقة من الخسائر التي استنزفت قوة الفرنسيين العددية وأكثر منها قوتهم المعنوية ترجع الى عمليات حرب العصابات والى ”ولنجتون“ نفسه باستعجاله الفرنسيين واتلافه كل شىء في البلاد حتى أصبحت

صحراء لا يلقون بها سوى الموت جوعا لو بقوا . وما لا يقل عن ذلك مغزى هو أن "ولنجتون" في كل هذه الحملات الطويلة لم يشبك الا في قليل من المعارك . فهل كان ذلك يرجع الى ما انتصف به من "سلامة الذوق" التي قال عنها كاتبو تاريخ حياته انها كانت سر أخلاقه وأمانيه . فقد قال عنه أحدث واضعي تاريخه "ان الاعتقاد بالحقائق الثابتة اعتقادا مباشرا ضيق الحدود كان روح ولنجتون الخلق . واليه ترجع عيوبه ومناقضه . ولكنه في المراحل الكبرى من حياته العامة بلغ حد العبقرية " فهذا التشخيص يتفق تمام الاتفاق مع الأعراض التي ظهرت على استراتيجيته ولنجتون في شبه الجزيرة ، جيدة كانت أو سيئة .

ثم ان التجربة التي قُدر لها من النتائج ما بلغ هذا الشاؤ البعيد كانت في حد ذاتها قسما من القوة التي وجهت عبنا للقيام بالمجهود الرئيسي على نهر "السلت" ، وكان الباعث على المجهود هو الأمل في انقاذ بلاد البرتغال أكثر من مراعاة ماله من القيمة من وجهة الاستراتيجية العظمى وما تستطيع أن تؤديه مما يزيد "الفرحة الاسبانية" وخامة . فان الدفاع الشاق الذي قام به "كاسلريه" (وزير الحربية) أيده الرأي الذي أبداه "وليزلي" وهو أنه لو أن الجيش والمليشيا البرتغاليين عززتا بـ ٢٠,٠٠٠ من الجنود البريطانية لاحتاج الفرنسيون الى ١٠٠,٠٠٠ جندي لفتح البرتغال . وليس في استطاعتهم الاستغناء عن هذا العدد اذا استمر الاسبانيون على المقاومة . وبعبارة أخرى معنى ذلك هو أن ٢٠,٠٠٠ من البريطانيين تكفي (لشئت) أي تحويل ما يقرب من ١٠٠,٠٠٠ من الفرنسيين قسم منهم على أقل تقدير يأتي من المسرح الرئيسي للحرب في بلاد النمسا .

فأما من وجهة معاونة النمسا فقد كانت هذه التجربة على غير جدوى . وأما بصفتها وقاية تي البرتغال فلم تكن مقبولة ومرضيا عنها تماما من وجهة نظر البرتغاليين . وأما من وجهة كونها مضايقة لنابليون ومفيدة لانجلترا فانها قد أثمرت عشرة أضعاف ما كان مقدرا لها .

فأخذ "وليزلي" ٢٦,٠٠٠ جندي وفي أبريل سنة ١٨٠٩ وصل الى "لزابون" . وكان الفرنسيون مشتتين في كل أنحاء شبه الجزيرة بسبب الثورة الاسبانية من جهة . وبسبب زحف "مور" على "بورغوس" ثم رجوعه الى "كورونا" ، من جهة أخرى . وكان "ني" يحاول عبثا اخضاع "غاليسيا" في منتهى الركن الشمالي - الغربي . وكان "صولت" في "اوبورتو" الواقعة جنوبي "ني" ولكنها في شمال البرتغال وكان جيشه ذاته مقسما أقساما مشتتا بعضها عن بعض . أما "فكتور" فكان حوالى "مريدة" متجها نحو الطريق الجنوبي الموصل الى البرتغال .

أما "وليزلي" فانه استفاد من موقعه المتوسط ، ومن حضوره على غير انتظار ، ومن تشتت العدو ، وتحرك نحو الشمال قاصدا "صولت" . ومع أنه أخفق في فصل أبعد أقسام "صولت" الى جهة الجنوب عن بقية جيشه طبقا للخطة التي رسمها ، الا أنه فاجأ "صولت"

نفسه قبل أن يتمكن من جمع قوته . فلقب أوضاعه رأس على عقب بأن عبر نهر "الدورو" في مكان أعلى . ثم توسع في هذه الزحمة الابتدائية بأن أبعد "صولت" عن خط رجعته الطبيعي . وتمثل "بتورين" في سنة ١٦٧٥ فكان يذيب المقاومة دون أن يتيح لها فرصة تتجمد فيها وتتصاب . وفي نهاية الرجعة التي رجعها "صولت" مرغما مجازا الجبال السوداء شمالا الى "غاليسيا" تكبد جيشه من الخسائر والمشاق ما لا يتعادل مع ما قام به من القتال .

على أن العملية الثانية التي قام بها "وليزلى" لم تعد بالفائدة المرجوة كما لم تكن قائمة على فكرة صائبة من وجهة التوفيق بين الغاية والوسائل . أما "فكتور" الذي بقى "بمريدة" لا يبدى حرا كما فانه استدعى الى "طالافيرا" بعد (اختفاء) "صولت" ، لتغطية طريق الاقتراب المباشر الى "مدريد" . وبعد ذلك بشهر صمم "وليزلى" على السير الى "مدريد" من هذا الطريق مندفعاً في قلب أسبانيا ومقياً بنفسه بين فكي الأسد . لأنه كان هدفاً تستطيع كل الجيوش الفرنسية أن تتجمع عليه بسلوكها أسهل الطرق . وفضلاً عن ذلك فان هذه الجيوش بتجمعها على مركزها المتوسط بهذه الكيفية توفرت لديها الفرصة لربط المواصلات بين بعضها بعد أن كادت تكون أعظم أسباب ضعفها وهي متفرقة . فزحف "وليزلى" ومعاه ٢٣,٠٠٠ جندي مضافا اليها مثلها من الأسبانيين تحت قيادة "كويستا" الضعيف في حين أن "فكتور" أثناء رجعته كان قد اقترب من المدد الذي يصله من قوتين فرنسيتين آخريين قريبتين من "مدريد" ثم انه من جهة أخرى كان المتوقع أن يبلغ حشد العدو ماينوف على ١٠٠,٠٠٠ لأنه كما قال "فورتسكيو" (قد حصل عرضاً لا قصداً) أن قوات "ني" و "صولت" و "مورتييه" كانت قد انحدرت من الشمال نحو "مدريد" . واذا كان الحظ يلهم للحاسب الجسور ، فانه يتذكر أحيانا للطائش . أما "وليزلى" فانه لم يتمكن من الاتصال "بفكتور" الا بعد أن انضم اليه "جوسف بونا بارت" قادما من مدريد . والسبب في ذلك هو أن "وليزلى" كان مثقلا بمؤنه من جهة وتردد "كويستا" من جهة أخرى . ولما اضطر "وليزلى" لأن يتقهقر هو الآخر بدوره كان خارجا بشيء من الحظ من معركة دفاعية نشبت في "طالافيرا" ولكنه كان ينوى أن يزحف مرة أخرى لولا امتناع "كويستا" . فكان ذلك من حسن حظه لأن "صولت" كان هابطا على مؤخرته . فلما انفصل "وايزلى" عن الطريق الذي سلكه في زحفه نجيا بالتسلل جنوبى نهر "التاجوس" ولكنه لم يتمكن من الوصول الى حى الحدود البرتغالية الا بعد مقاساة رجعة كلفته كثيرا وزعزعت قوى جنوده المعنوية ونهكتهم . أما الفرنسيون فان قلة الطعام شلت حركة تعقبهم . وهذه كانت خاتمة حملة سنة ١٨٠٩ التي علمت "وليزلى" أن الجنود الأسبانية النظامية عديمة القيمة — وهو درس كان يحذر به أن يتعلمه من تجارب "مور" . وقد كوفئ على ذلك بأن صار "فيكونت ولنجتون" . وكان مقدرا له أن يحرز هذا اللقب بدرجة أكثر جدارة في السنة المقبلة .

ففى سنة ١٨١٠ بعد أن أرغمت النمسا على الصلح انطلقت يد نابليون واستطاع أن يحول كل انتفاته الى أسبانيا وبرتغال حتى سنة ١٨١٢ ، وهاتان السنتان هما أشد الأوقات حرجا فى حرب شبه الجزيرة . فعجز الفرنسيين عن ادراك مقصدهم له مغزى من الوجهة التاريخية أكثر بكثير مما أصابهم من الهزائم فيما بعد ، ومن الانتصارات التى أحرزها ولنجنون فى سنتي ١٨١٢ و ١٨١٣ . أما أساس ما أحرزه البريطانيون من الفوز فهو الحساب الدقيق المبني على الفطنة والدهاء الذى حسبه ” ولنجنون “ للعامل الاقتصادى — وهو قلة ما لدى الفرنسيين من وسائل المعاشة — ثم انشاؤه خطوط ” طورس فدراس “ . فكانت استراتيجيته فى جوهرها عبارة عن اقتراب غير مباشر الى قصد وغرض عسكريين اقتصاديين . ففى الفصل الأول من الرواية عاونته القوات الأسبانية النظامية على طريقها المعنادة . فابتدأوا بحملة فى فصل الشتاء وسحقهم الفرنسيون سحقاً بدد شملهم لدرجة أن الفرنسيين لما لم يجدوا هدفاً يتزلون به ضرباتهم تدرجوا الى الانتشار فى كل أنحاء أسبانيا وغزوا أقاليم ” اندلوسيا “ النهرى الواقع جهة الجنوب .

وهنا تسلم نابليون السيطرة ولو أنه كان يمارسها عن بعد ، ولم يحل آخر فبراير من سنة ١٨١٠ حتى كان قد حشد فى أسبانيا ما يقرب من ٣٠٠.٠٠٠ جندي يأتى بعدهم غيرهم . فتخصص من هؤلاء الجنود ” مسينا “ ٦٥.٠٠٠ مهمتهم طرد البريطانيين من بلاد البرتغال . مهتة العدد وإن كان كبيراً يتفوق على جنود ” ولنجنون “ إلا أن صغره بالنسبة للجموع فيه الدليل القاطع على ما لحرب العصابات فى أسبانيا من الخطر . ثم إن ” ولنجنون “ أخذ يدمج معه البرتغاليين ويدربهم على التعليم البريطانى حتى أوجد قوة يبلغ عددها ٥٠.٠٠٠

أما غزو ” مسينا “ بغناء من الشمال مارا ” بكويداد رودريجو “ فهى ” ولنجنون “ أطول وقت وأبعد مسافة تعمل فيها استراتيجيته . وأصبحت الخطة التى احتاطها بتجريد البلاد من كل ما بها من المأوى بمثابة ” فرمالة توريل “ لرحف ” مسينا “ بينما كانت وقفته التى وقفها فى منتصف الطريق فى ” بوساكو “ بمثابة فرمالة القدم . وهذه الفرمالة قواها ” مسينا “ بحاقته أذ ورط جنوده فى اقتحام مباشر لا مبرر له . وبعد ذلك تفهقر ” ولنجنون “ الى خطوط ” طورس فدراس “ التى كان قد أنشأها بعرض شبه الجزيرة الجبلية المكونة من نهر ” التاجوس “ والبحر لتستر ” لزبون “ وفى ١٤ أكتوبر أشرف ” مسينا “ على هذه الخطوط بعد أن قضى أربعة أشهر قطع فيها ما لا يزيد عن مائتى ميل . فلما شاهدها وقع منظرها لديه موقع الدهشة . ولما كان عاجزاً عن اقتحامها بقي يحوم بالقرب منها مدة شهر إلى أن اضطره الجوع الى الرجوع الى ” سانتارم “ الواقعة على نهر ” التاجوس “ على مسافة ثلاثين ميلاً الى الراء . أما ” ولنجنون “ فانه التزم الدهاء ولم يحاول الضغط عليه أثناء رجعه أو يتسبب فى نشوب معركة ، بل جعل همه التطبيق على ” مسينا “ وحصره فى حدود أقل مساحة ممكنة حتى يجد أشد الصعوبات

في الحصول على طعام الجنوده . وقد حافظ "ولنجتون" على هذه الاستراتيجية بكل ثبات بالرغم من خطر غير مباشر هو تغير الحكومة في بلاده . وخطر آخر مباشر هو زحف "صولت" في الجنوب بطريق "باداجوس" في حركة تحويلية يخفف بها عن "مسينا" ثم انه قاوم كل مساعي "مسينا" لاستدراجه للهجوم . وقد بررت الحوادث سلوكه وكوفئ عليه لأن "مسينا" اضطر أخيرا الى الرجوع في شهر مارس . ولما أعادت انقاض جيشه الجائع اجتياز الحدود كان قد خسر ٢٥٠٠٠ لم يزد عدد من سقط منهم في القتال عن ٢٠٠٠

وفي نفس الوقت كانت العصابات الأسبانية تزداد نشاطا وعددا . ففى "أراجون وقطالونيا" وحدهما شل بضعة آلاف من رجال العصابات والجنود المستخدمة في قتال العصابات حركات فيلقين فرنسيين كاملين يبلغ مجموع رجالهما ٦٠٠٠٠ شلا تماما بدلا من أن يعاون هذان الفيلقان جيش مسينا في البرتغال ، واستمر ذلك عدة أشهر . وفي الجنوب أيضا حيث كان الفرنسيون يحاصرون مدينة "قادس" قصر الحلفاء في استغلال النصر الذي أحرزوه في "باروسا" ولم يفكوا الحصار . فعاد ذلك عليهم بفائدة اذ بقي المحاصرون حيث كانوا في مهمة لا طائل تحتها . وفي أثناء تلك السنين كان هناك عامل مستديم يشنت الأفكار ويجوها هو تهديد البريطانيين بانزال جنودهم الى البر ونزولهم فعلا مرارا عديدة في نقط على السواحل المترامية الأطراف بفضل قوتهم البحرية .

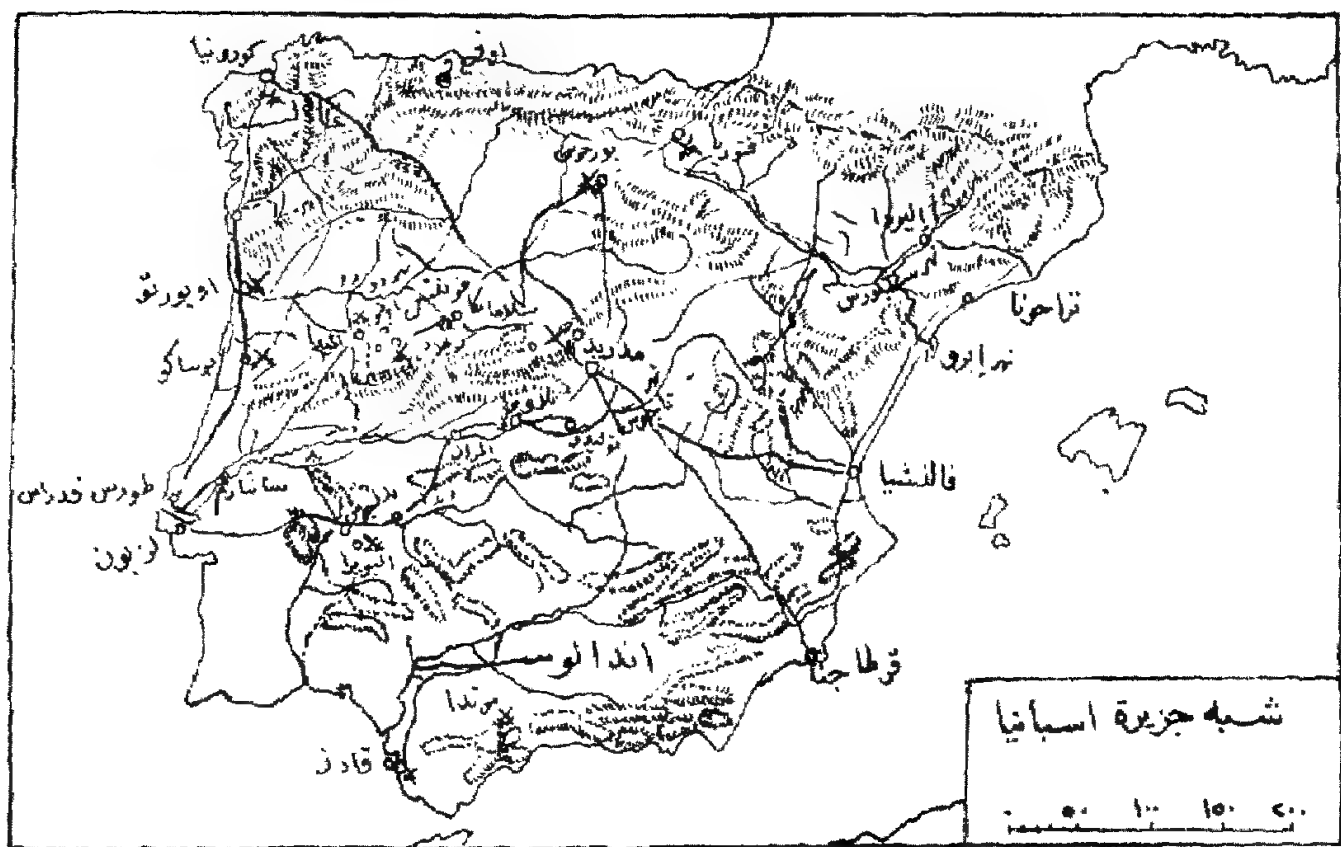
ومن ثم كان أعظم نفوذ ناله "ولنجتون" ناشئا عن تهديده أكثر منه عن ضرباته . لأنه كلما هدد نقطة اضطر الفرنسيون لأن يسحبوا جنودا من جهات أخرى ليوجهوهم اليها فيتسع بذلك المجال أمام العصابات في تلك الجهات . ومع كل فان "ولنجتون" لم يكتف بالتهديد بل انه اتبع "مسينا" في تفهقره الى "سلامانكا" واستخدم جيشه لتغطية الحصر المضروب على قلعة "المبضا" على الحدود من جهة الشمال بينما بعث "بيرزفورد" يحاصر "باداجوس" في الجنوب . فهو بذلك قيد حركاته وقسم قوته الى شطرين متساويين تقريبا . على أن الحظ ابتسم له . فان "مسينا" بعد أن جمع شتات جيشه وعزز به بشيء من الامداد رجع ليخلص "المبضا" ويفك عنها الحصار . ولكن "ولنجتون" تمكن في "فيونتس - دو - أونورو" من صد الهجوم مع أن قوته أقل فضلا عما كان يحيط به من الأخطار الجسيمة . وكذلك خرج "بيرزفورد" ليلاقى قوة الخلاص التي كانت قادمة تحت قيادة "صولت" الذي بعد أن أساء ادارة القتال واعترف بالهزيمة في "البويرا" (البحيرة) كان الفضل في انقاذه لمرؤوسيه وجنوده بعد أن كلفهم ذلك ثمنا فاحشا . وعند ذلك صمم "ولنجتون" على محاصرة "باداجوز" دون أن يكون معه معدات الحصار (قطار الحصار) الى أن اضطر الى رفع الحصار بسبب تحرك جيش "مسينا" نحو الجنوب من غير أن يلقى معارضة . وكان هذا الجيش حينذاك

تحت قيادة "مارمونت" لينضم الى "صولت" فوضع الاثنان خطة للزحف معا على "ولنجتون" ولكن لحسن الحظ لما اجتماعا دب بينهما ديب الشقاق وداخل "صولت" الفرع بسبب اشتداد حرب العصابات واضطرام لهيها من جديد في مقاطعة "اندلوسيا" فرجع اليها بقسم من جيشه تاركا السيطرة "لمارمونت" وبفضل تطرف "مارمونت" في التزام الحيلة والحذر انتهت حملة سنة ١٨١١ في سكون .

"فولنجتون" باشتباكه في المعارك كان يحازف بشيء كثير ، بل كان في الواقع مجازفا بكل شيء . ومن الصعب أن يقال ان هذه المعارك أكسبته مزية فوق المزية التي أوجدتها استراتيجيته السابقة والتي كانت مؤلمة منها . فهي لم تكن من قبيل البذل المثمر اذا روعي ما كانت عليه قوته الاحتياطية من رقة الحال . فان خسائره فيها كانت أقل من خسائر الفرنسيين بشيء يسير ولكنما كانت أعظم منها كثيرا اذا روعيت النسبة العددية . غير أنه قد تدارك الفترة التي كانت أشد الأوقات حروجة . أما الآن فان نابليون والأسبانيين جاؤوه بالعون وساعدوه على احراز ميزته . أما نابليون فكان يتأهب لغزو روسيا . فحول اليها التفاته وقوته ابتداء من ذلك الحين . فهذا التطور الحديث والموقف الذي أكسبته أعمال العصابات شدة كانا سببا في تغيير الخطة في أسبانيا حيث غير الفرنسيون خط مساعيهم الرئيسية الى محاولة اخضاع اقليمى "فالشيا واندلوسيا" تماما قبل أن يمتشدوا من جديد للزحف على البرتغال . فالجنود الفرنسية نقص عددها ٧٠٠٠٠ عما كانت عليه في سنة ١٨١٠ والذين بقوا استخدم منهم ما لا يقل عن ٩٠٠٠٠ جندي في خدمة قاصرة في الواقع على المحافظة على خط المواصلات مع فرنسا ، كانوا موزعين من "طاراجونا" على ساحل البحر الأبيض المتوسط الى "أوفيدا" على ساحل المحيط الاطلنطي نصياتها من العصابات .

فلما أصبح المجال حرا أمام "ولنجتون" وضعفت أمامه المقاومة وثب بخافة الى "كويداد رودريجو" واقتحمها بينما كان قسم تحت قيادة "هل" يحرس جناحه ومؤخرته الاستراتيجية . أما "مارمونت" فكان عاجزا عن التدخل ، عاجزا عن استرجاع القلعة لأن معدات حصاره (قطار حصاره) كان قد سبق الاستيلاء عليها هناك ، عاجزا عن اقتفاء أثر "ولنجتون" بسبب قلة البلاد الواقعة بينهما التي سبق تجريدها من كل مواد الغذاء . فانهز "ولنجتون" فرصة وجود هذا الساتر الذي أقامه الجوع وتسلسل جنوبا واقتحم "باداجوز" واستولى عليها بدورها وان كان استيلاؤه عليها كلفه أكثر مما كلفه استيلاؤه على الأولى بكثير ولم يترك له من الوقت الا شيئا يسيرا . وفي "باداجوز" استولى على معدات الفرنسيين لانشاء الجسور (قطر الكبارى الطافية) . ثم انه لم يتمهل بل أعقب هذا الرجح باتلاف الجسر (الكوبري) الفرنسى المؤلف من قوارب مصفوفة عبر نهر "التاجوس" في (المعرض) "الاراز" ففصل بذلك جيش "مارمونت" عن جيش "صولت" فصلا استراتيجيا قطعيا

فأصبحت أقرب مواصلات "صولت" عن طريق الجسر (الكوبرى) الموجود في "توليدو" (طليطلة) وهى تربو مسافتها على ثلثائة ميل من مصب نهر التاجوس . وبتقطع النظر عن ذلك فان "صولت" صار مقيدا في "اندلوسيا" بسبب قلة المزن من جهة وازدياد العصابات ازديادا فوق الصافة من جهة أخرى . وغدا "ولنجتون" حرا يستطيع القيام بالعمديات وهو آمن شر التدخل . فحشد ثلثي قوته للزحف على "مارمونت" في "سلامانكا" على أن اقتربه من "مارمونت" اقترابا مباشرا رد "مارمونت" نحو مورد امداداته فتعادلت بينهما بالموازنة العددية . فشرع "مارمونت" في المناورات فاصدا مواصلات "ولنجتون" ولديه الميزة الكبرى بسبب عدم وجود مواصلات له تعلق باله وتسغله . على أن افراطه في الثقة أدى به الى هذوة زحزحت قوته موقتا فاتتهزها "ولنجتون" على الفور واستغلها وعززها باقتراب تكتيكي غير مباشر كان سببا في هزيمة الجيش الفرنسى هزيمة صارمة قبل أن تصله امدادات أخرى . على أن ولنجتون لم يتمكن من تشتيته تماما وكان ما يزال أضعف من الفرنسيين في شبه الجزيرة بأجمعها . وقد وجه اليه اللوم بسبب عدم تعقبه للفرنسيين الذين صاروا الآن تحت قيادة "كلاوزل" ولكن بما أن الفرصة الوقتية أفلتت من يده فلم يكن محتملا أنه كان يتمكن من تشتيته قبل أن يصلوا الى "بورغوس" فليجأون اليها . فضلا عن أن مثل هذه الحركة كانت تعرضه الى خطر هبوط "جوسف" (بونابارت) في أية لحظة على مؤخرته ومواصلاته قادما من "مدريد" ولكنه بدلا عن ذلك صمم أن يزحف على "مدريد" لما لهذه الحركة من التأثير المعنوى والسياسى . فكان دخوله عاصمة أسبانيا رمزا مشجعا للأسبانيين ، وخرج "جوسف" منها خروجا الهارب . على أن عيب هذه الضربة هو في أن بقاء "ولنجتون" في "مدريد" لا يكون الا التجاء اذا تجمعت قوة الفرنسيين . وليس هناك شيء أكثر احتمالا لأن يدعو جيوشهم المتفرقة في شكل محيط دائرة الى التجمع على الوسط من ضياع "مدريد" أما "ولنجتون" فانه جعل اقامته في "مدريد" قصيرة وخرج منها طائعا مختارا وسار الى "بورغوس" . غير أن الطريقة الفرنسية وهى "اعاشة الجنود من البلاد" كانت لا تجعل لأية ضربة توجه الى مواصلاتهم مع فرنسا تأثيرا على موقفهم . وحتى التأثير الضعيف كان متعديا نظرا لعدم كفاية طرائق الحصار ووسائله الموجودة مع "ولنجتون" فانها كانت تقتضى استغراق وقت ليس في مقدوره أن يضيعه . لأن ما أحرزه من الفوز في معركة "سلامانكا" وبعدها حرض الفرنسيين على ترك مهامهم وأراضيهم في أسبانيا لكي يتجمعوا عليه من كل حذب وصوب . فوقفه بالنسبة لجيوشهم كان أشد خطرا من موقف "مور" الذى سبقه . على أنه تفهقر قبل فوات الأوان . وما انضم اليه "هل" حتى شعر بالاطمئنان بدرجة جعلته يدعو الجيوش الفرنسية المتحدة الى نزاله في معركة "سلامانكا" أما ميزتهم العددية فكانت طفيفة اذا قورنت بما كانت عليه في الأيام الماضية . اذ كانت ٩٠٠٠٠ مقابل ٦٨٠٠٠ فلم



يشعروا بميل الى قبول تحديه اياهم الى معركة في ميدان اختاره "ولنجتون" ولذلك والى "ولنجتون" تفهقره الى "كويداد رودريجو" وبوصوله أسدل الستار على حملة سنة ١٨١٢ .

فع أنه رجع بالشانى الى الحدود البرتغالية ولم يتجاوزها الى الأمام بحسب الظواهر ، الا أن حرب شبه الجزيرة كانت قد فصل فيها فعلا . لأن الفرنسيين بتركهم القسم الأعظم من أسبانيا ليتجمعوا عليه أخلوها للعصابات ولم يبق لديهم أى أمل فى زحزحتها . ثم زاد الطين بلة أن جاءت فوق هذه الكارثة أخبار رجوع نابليون من "موسكو" وما ترتب عليها من انسحاب جنود فرنسية أخرى من أسبانيا . وعلى ذلك لما افتتحت الحملة التالية كان الموقف قد تغير تغيرا كبيرا . فالآن جاء المدد الى "ولنجتون" حتى بلغ عدد جنوده ١٠٠٠٠٠ أقل من نصفهم بريطانيون . فبادر بالعداء والتحدى وكان هو المتفوق فى حين أن الفرنسيين بعد أن زعزعت حرب العصابات التى لم تنقطع قواهم المعنوية أكثر مما زعزعتها الهزائم العسكرية اضطروا لأن يسرعوا بالرجوع الى ماوراء نهر "الابرو" واكتفوا بمحاولة البقاء بأطراف أسبانيا الشمالية . بل حتى فى هذه الأطراف رجحت كفة العصابات على كفتهم فانها كانت تضغط عليهم من الخلف فى نواحي "بسكاي" "والبرينيس" ، واضطر الفرنسيون لأن يفصلوا من قوتهم الضعيفة أربع فرق لمقاومة الضغط الآتى من الخلف ، ثم ان زحف ولنجتون تدريجيا على جبال "البرينيس" ومنها على فرنسا ، وان كان لا يخلو من حوادث سيئة كانت تقع أحيانا ويؤخذ ثأرها بنجاح . كل ذلك لم يكن سوى خاتمة استراتيجية لقصة حرب شبه الجزيرة .

فهذه النتيجة المبهونة ما كان من السهل أن تتأتى اولا العون الأدبى والمادى الذى كان الفضل فيه لوجود "ولنجتون" فى شبه الجزيرة . فان نشاطه فى استجلاب انتباه الفرنسيين وتحويل أفكارهم نحوه بقدر ما ، كثيرا ما سهل انتشار حرب العصابات . ومع ذلك فهناك مسألة موضوع تضارب آراء يهتم لها أصحابها . تلك هى : ألم تكن انتصاراته التى أحرزها فى سنة ١ٸ١٢ وكان من شأنها أن تستحث الفرنسيين على تركه أو فقدوه وتضييق منطقة أعمالهم ، مما جعل آمالهم أقرب من التحقيق ، وزادت زحفه صعوبة فى سنة ١٨١٣ ؟ لأنهم كلما اتسعوا فى الانتشار فى جميع أنحاء اسبانيا وبقوا مشتبكين فيها كانت هزيمتهم فى نهاية الأمر تامة ومحقة . فحرب شبه الجزيرة كانت مثالا تاريخيا بارزا لشدته سلامة الذوق الغريزية أكثر مما نفذ عن قصد ، باستراتيجية من الطراز الذى أخرجه "لورنس" (الكولونيل لورنس) وحوله الى نظرية معقولة طبقت فعلا وان كانت لم تتم على وجه قطعى .

ولندع الآن "القرحة الأسبانية" ونرجع الى شخص طراز آخر من طرز الاستراتيجية كان ينمو فى محلة نابليون بصورة خادعة .

نابليون من "فلنا" الى "ووترلو"

كانت الحملة الروسية في سنة ١٨١٢ هي الغاية الطبيعية التي انتهت اليها النزعات التي شوهت تطورها وازديادها في استراتيجية نابليون — وهي اعتماده بالأكثر على الكتلة لا على خفة الحركة . وعلى التشكيل الاستراتيجي أكثر من اعتماده على المفاجأة . ثم جاءت الظروف الجغرافية فأبانت أوجه ضعفها وأكدها .

فحجم قوات نابليون التي بلغ عددها ٤٥٠,٠٠٠ يدعو الى اتخاذ توزيع خطي بوجه التقريب . وهذا التوزيع يستلزم اقترابا مباشرا على طول خط الانتظار الطبيعي . نعم انه فعل ما فعله الألمان في سنة ١٩١٤ ، فقوى أحد طرفي خطه — الطرف الأيسر — وأراد أن يدور به دورة واسعة النطاق فيكتسح الروس الموجودين في فلنا . ولكن هذه المناورة كانت متعبة وفي اتجاه مباشر بدرجة متجاوزة الحد تجعلها لا تصلح لأن تكون وسيلة مؤثرة في تثبيت أفكار العدو وزحزحته الا اذا كان غيبا بدرجة فوق المعتاد ، حتى يقطع النظر عن ضعف همه أخيه "جيروم" وعجزه عن الدور الذي كلف به وهو تثبيت العدو في مكانه . وفي هذه الحالة ظهر ضعفها باتجاه الروس استراتيجية التفادي والالتواء . ولما تمادى نابليون وتوغل في بلاد روسيا بعد أن ضرب ضربته الأولى "في الهواء" ضم خطه واتخذ تشكيل "مربعات الأورط" وحاول أن يدور به تكتيكيا الى مؤخرة العدو . ولكن حتى حينما استبدل الروس بخطتهم الأولى سياسة قبول "المعارك" وأظهروا حماقتهم بأن دفعوا رؤوسهم نحو فكي نابليون فان هذين الفكين انطبقا في "سمولنسك" ، على ما يظهر ، حتى ان الروس أفنوا منهما ، في حين أن في "بورودينو" حطم الفكان أسنانهما . فكان ذلك أحسن مثال لاظهار عيوب حركة التجمع والتلاقي من اتجاهات مختلفة اذا قورنت باقتراب غير مباشر حقا . أما النتائج الأليمة التي كانت لرجوعه من موسكو على أثر ذلك فكانت بسبب خور قوى الجيش الفرنسي المعنوية ، أكثر من كونها مسببة عن صرامة الطقس — لأن الصقيع في تلك السنة جاء متأخرا عن المعتاد — والذي سبب ذلك هو أن الروس باتهاجهم استراتيجية التفادي من المعارك قد أفسدوا استراتيجية الفرنسيين التي كانت ترمي الى نشوب المعارك مباشرة . فكانت خطة الروس عبارة عن طريقة استراتيجية اتبعوها في تنفيذ سياسة حربية تنطوي على اقتراب غير مباشر .

وفضلا عن ذلك فان ما أصاب نابليون من سوء الطالع بسبب هزيمته في روسيا زاد اضعافا بسبب النتائج الأدبية والمادية التي نتجت عن اخفاق جيوشه في أسبانيا . ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام مع تقدير التأثير المهلك الذي كان لعمل انجلترا ، هو ان انجلترا بهذا العمل كانت متبعة سياستها الحربية التقليدية التي هي عبارة عن استئصال الجذور .

وفي سنة ١٨١٢ لما وجد نابليون نفسه بقواته الجديدة التي كانت أكبر حجما وأنقل حركة من كل ما سبقها ، أمام ثورة بروسيا ، والجيش الروسية الغازية ، أراد أن يسحق أعداءه بطريقته التي أصبحت الآن عادة له أي بثقل ” مربعات أورطه “ المتجمعة من اتجاهات مختلفة متلاقية في نقطة واحدة . ولكن لامعركة ” لوتسن “ ولا معركة ” باوتسن “ كانت حاسمة في نتائجها . ولذلك فإن الحلفاء خيخوا كل مساعي نابليون لاستدراجهم الى الاشتباك في معركة ، إذ أخذوا يتقهقرون تقهقرا يزداد طولاً مرة بعد أخرى . وهذا ” التفادي “ دعا نابليون لأن يطلب وقف الحرب لمدة ستة أسابيع وفي نهاية هذه المدة انضمت النمسا أيضا الى أعدائه . ثم ان حملة الخريف التي أعقبت ذلك ألقت ضوءا عجيبا على ما طرأ على عقلية نابليون من التغير . فكان معه ٤٠٠,٠٠٠ جندي وهذا العدد يعادل مجموع جنود أعدائه بوجه التقريب . فاستخدم منهم ١٠٠,٠٠٠ في الزحف على برلين من طرق متفرقة بحيث يلتقون في برلين . غير أن هذا الضغط المباشر لم يؤد الا الى توطيد المقاومة التي أبدتها قوات ” برنادوت “ في تلك الساحة وارتد الفرنسيون مدحورين . وفي نفس الوقت كان نابليون نفسه قد أخذ موقعا متوسطا ساترا ” درزدن “ في ” سكسونيا “ بالجيش الرئيسي . ولكنه لم يصبر وشرع بغاة في الزحف نحو الشرق مباشرة قاصدا قوة ” بلوخر “ البالغ عددها ٩٥,٠٠٠ فتقهقر ” بلوخر “ أمامه خدعة واستدرجه الى داخل ” سليسيا “ في حين أن ” شوارتسبيرج “ ومعه ١٨٥,٠٠٠ شرع في التحرك شمالا هابطا على نهر ” الإلبه “ من ” بوهيميا “ واجتاز جبال ” بوهيميا “ ودخل ” سكسونيا “ وأتى على مؤخرة نابليون في ” درزدن “ . فترك نابليون قسما من جيشه في موقعه وأسرع بالرجوع بنية مقابلة هذا الاقتراب غير المباشر بآخر من مثله أشد منه خطرا . فكانت خطته أن يتحرك جنوبا - غربا ، ويختار جبال ” بوهيميا “ ثم يضع نفسه في حاجز (أي سد) استراتيجي بالغ حد الكمال يعرض خط رجعة ” شوارتسبيرج “ حينما يحترق الجبال متقهقرا . غير أن أخبار قرب العدو منه أهاجته فصمم في آخر لحظة على أن يستبدل خطته باقتراب مباشر على ” درزدن “ و ” شوارتسبيرج “ . فأدى هذا التصميم الى معركة انتصر فيها . ولكن هذا النصر لم يكن حاسما الا من الوجهة التكتيكية ورجع ” شوارتسبيرج “ نحو الجنوب في أمان مجتازا الجبال . وبعد ذلك بشهر شرعت الجيوش الثلاثة المتحالفة تطبق على نابليون وكان قد رجع من ” درزدن “ الى ” دوين “ بالقرب من ” لايسج “ بعد أن أضعفته المعارك . أما ” شوارتسبيرج “ فكان في الجنوب ” وبلوخر “ كان في الشمال . ثم ان ” برنادوت “ كان قد دار حول جناح نابليون الواقع الى جهة الشمال وأتى ورائه بوجه التقريب دون أن يعلم به نابليون . فصمم نابليون على أن يقترب اقترابا مباشرا يعقبه اقتراب غير مباشر -- ليسحق ” بلوخر “ أولا ثم يقطع مواصلات ” شوارتسبيرج “ مع ” بوهيميا “ . فالذي يظهر على ضوء التجارب التاريخية بحسب ما مر بيانه في هذا الكتاب هو أن هذا الترتيب خطأ . فان حركة زحف نابليون على ” بلوخر “ مباشرة لم تؤد الى ارغامه

على الدخول في معركة. ومع ذلك فقد كانت لها نتيجة عجيبة ومما يجعل لهذه النتيجة مغزى خاصا هو أنها جاءت عفوا لا قصدا . لأن الزحف على بلوخر مباشرة تصادف أنه كان زحفا غير مباشر على مؤخرة "برنادوت" . فلما شعر "برنادوت" بضعف مركزه أسرع بالتقهقر نحو الشمال فانزاح عن خط رجعة نابليون . وبهذه الكيفية نجح نابليون من كارثة جاثمة تامة بعد ذلك ببضع أيام والذي نجاه منها هي ضربته التي قصد بها "بلوخر" وجاءت في الهواء . لأنه لما أطبق عليه كل من "بلوخر" و "شوارتسبرج" في "لايسج" قبل تحديهما والتبكت معهما في معركة انهزم فيها . ولكنه لما ضاق به الحال وجد أمامه طريقا للنجاة فانسحب في سلام وعاد الى فرنسا .

وفي سنة ١٨١٤ لما كان الحلفاء متفوقين عددا بدرجة كبيرة وقاموا بغزو فرنسا متلاقين في نقطة واحدة بعد تفرق ، اضطر نابليون لأن يلجأ الى سلاحه القديم وهما المناجاة وخفة الحركة ، بسبب قلة جنوده التي كان قد استهلكها — بثقته الامبراطورية في قوة الكتل — ومع أنه قد أحسن استخدامهما الا أن لهجة التوكيد يجب وضعها على كلمة « سلاحه » لأنه كان قليل الصبر وقد تملك فكرة المعارك عليه مشاعره بدرجة كان لا يستطيع معها استخدام هذين السلاحين بدهاء "هانبال" أو "سيو" أو "كرومول" أو "مارابورو" . وعلى كل حال فانه باستخدامهما أجل ما كان مكتوبا له في لوح القدر ، فترة طويلة . ولما استخدمهما وفق بين غايته ووسائله بما ينف عن بعد النظر . فانه لما أدرك أن وسائله قد تضعفت بدرجة لا يستطيع معها الحصول على حسم عسكري ، وجه مساعيه الى زعزعة التعاون بين الحلفاء واستغل خفة الحركة لهذه الغاية بدرجة مدهشة ليس لها نظير في أعماله السابقة . ومع كل فان نجاحه في اعاقه العدو عن بلوغ غايته وان كان يستحق التنويه ، الا أنه من المحتمل أنه كان يبق أعظم أثرا وأكثر ثباتا لولا أن مقدرته على الاستمرار في هذه الاستراتيجية قد نقصت بسبب نزعه الطبيعية لأن يتم كل فوز استراتيجي بأخر تكتيكي . فهو بحشده جنوده عدة مرات ليلاقى بها أقسام العدو المتفرقة — وقد امتازت خمس من هذه المرات بمناورات « أصابت » الهدف من الخلف — قد أنزل بها سلسلة من الهزائم الى أن داخله الطيش لدرجة أنه قام باقترب وهجوم مباشرين على "بلوخر" في "لاون" فانهزم هزيمة لا طاقة له بها . ثم انه بعد ان لم يبق معه سوى ٣٠,٠٠٠ جندي صمم على أن يطلق آخر سهم في كنانته وتحرك شرقا الى "سان دزيبه" وجمع ما استطاع جمعه من الحاميات التي وجدها وأثار أهالي البلاد على الغزاة . فهذه الحركة كان يصبح معترضا مواصلات "شوارتسبرج" . ولكنه كان مضطرا لأن لا يكتفى بأن يكون على مؤخرة العدو ، بل لا بد له من تأليف جيش وهو في مكانه قبل أن يشرع في العمل . ثم ان المسألة تعقدت لا من جراء قلة الجنود وقلة الوقت لحسب بل بسبب ما للقاعدة التي كشفها بحركته من الحساسية الأدبية

الخاصة أيضا . لأن باريس ليست كبقية قواعد التمرين العادية . وزاد الطين بلة أن وقعت تعاليمه في يد العدو فضاغت منه كل من المفاجأة والوقت . ومع ذلك فقد بلغ « المجهود » الاستراتيجية لحركته درجة جعلت الحلفاء يتناقشون مناقشة حادة قرارهم بعدها على أن يسيروا إلى باريس — لينزلوا ضربتهم الأدبية « القاضية » — بدلا عن أن يرجعوا للملاقاة نابليون . ولقد قيل ان العامل الذي أثر عليهم في هذا القرار هو خشية أن يتحرك « ولنجتون » من الحدود الأسبانية فيصل باريس قبلهم . فاذا كان ما قيل هو الحقيقة فيالها من خاتمة ساحرة مؤيدة لانتصار استراتيجية الاقتراب غير المباشر « ومجهوده » الحاسم .

وفي سنة ١٨١٥ بعد أن رجع نابليون من جزيرة « إلبا » كان يظهر أن قواته قد بلغت حجا أثار « الدم » إلى رأسه مرة ثانية على ما يظهر . ومع ذلك فإنه كان يستخدم كلا من المفاجأة وخفة الحركة ، على طريقته الخاصة وبسبب ذلك كان على مقربة من احراز نتيجة حاسمة . وإذا كان اقترابه من جيشي « بلوخر » و « ولنجتون » وقع مباشرة من الواجهة الجغرافية فإن توقيته كان مفاجأة . ثم ان اتجاهه زحزح « وصلة » (أى نقطة الاتصال بين الجيشين) العدو . على ان « نبي » قصر في « لينى » في القيام بالدور الذي كان مطلوبا منه في المناورة — وهو اقتراب تكتيكي غير مباشر — فأفادت البروسيون من الهزيمة الحاسمة . ولما رجع نابليون على « ولنجتون » في « ووترلو » كان اقترابه مباشرة محضاً وبذا أدى إلى خسارة في الوقت وفي الرجال زادت المشاق التي نشأت عن تقصير « جروشى » في إبقاء « بلوخر » بعيدا عن ميدان المعركة « بتحويل » فكره . وعلى ذلك فإن ظهور « بلوخر » كان اقترابا غير مباشر من الواجهة النفسية لأنه كان على غير انتظار ، حتى ولو أنه لم يصل إلا إلى جناح نابليون . وبهذه الصفة كان حاسما ضد نابليون .

الباب الثامن

من سنة ١٨٥٤ الى سنة ١٩١٤

لما كان المعرض الأكبر الذى أقيم «للمصلح» فى سنة ١٨٥١ فاتحة عصر جديد كثرت فيه الحروب ، كانت أول حرب من سلسلة الحروب الحديدية غير حاسمة لا فى مجراها العسكرى ولا فى غايتها السياسية . ومع ذلك ففى الامكان اقتباس دروس سلبية ، على الأقل ، من حرب «القرىم» وما كانت عليه من الوحامة والحماقة . ومن أشهر هذه الدروس عقم الاقتراب المباشر . ففى وضع الجنرالات غنائم على أعينهم كان من الطبيعى أن يقوم أحد (الياوران) رجال الخاشية بتوجيه اللواء الخفيف (من فرسان البريطانيين) ودفعه الى مدافع الروس مباشرة . فقد كان كل شىء فى الجيش البريطانى فى كل دائرة من دوائر العمل يحرى على طريقة مباشرة مطابقة للأصول بدرجة متناهية دهش لها القائد الفرنساوى «كانزوير» حتى انه لما حضر حفلة راقصة فى بلاط ملوكى بعد الحرب ببضع سنين ، تذكر فصاح قائلاً «البريطانيون يحاربون كما ترقص فكتوريا» . ولكن من حسن الحظ كان الروسيون متشبعين بفرصة اجراء أعمالهم بطريقة مباشرة أيضاً — لدرجة أنهم اذا حاولوا القيام بمناورة بخائية فان الآلاى من آلاياتهم بعد أن يمضى طول النهار كان يعود فيجد نفسه أمام «سيواستوبول» كما كان وقت الفجر .

وانا فى فخص أدلة حرب «القرىم» المكدره يجب ألا يفوتنا الواقع ، والا نبالغ فيه ، وهو أن فى الأربعين سنة التى انقضت منذ معركة «ووترلو» كانت كل جيوش أوربا قد أصبحت جيوشاً محترفة بأدق معنى للكلمة . وذلك لايعنى الاعتراض على الجيوش المحترفة ، ولكن فيه تصوير لما ينطوى عليه جو الاحتراف من الأخطار . وهذه الأخطار تتأكد فى المقامات العالية ، لأمحالة ، ومع طول مدة الخدمة مالم تقاوم بالاتصال بعالم الأعمال والأفكار الخارجى اتصالاً يعيد النشاط ويجدده . ومن جهة أخرى فان المراحل الأولى من الحرب الأهلية الأميركية قد أبانت ضعف الجيش الذى لا يكون محترفاً . فان التعليم جوهرى لصوغ آلة فعالة يديرها الجنرال . فالجرب المستطيلة الأجل أو السلم القصيرة الأجل هما أكثر الظروف ملائمة لانحراج آلة من هذا القليل . ولكن اذا كانت الآلة أرق من رجل الفن الذى يديرها كان هناك عيب فى النظام . والحرب الأهلية الأميركية التى وقعت فى ١٨٦١ — ١٨٦٥ تبين لنا العكس بكل وضوح سواء فى ذلك وفى غيره . فالقادة العسكريون ، خصوصاً فى جيوش الجنوب ، كان القسم الأعظم منهم ممن اتخذ الجندية مهنة . على أن ممارسة هذه المهنة كانت قد تحولت فى أغلب الحالات ممارسة الأعمال المدنية أو الفراغ الذى انقضى فى الدراسة الفردية . ولم تكن ساحة التعليم هى الأرض التى ربت فيهم الأفكار الاستراتيجية ولا كانت هذه التربية محدودة بهذه الأرض . ومع ذلك فبالرغم من اتساع دائرة الاطلاع المتعش وغزارة المادة التى

استقوا منها ما قد يسمى بالاستراتيجية المحلية فان العمليات الكبرى كانت تدار في بادئ الأمر طبقا للغاية المتفق عليها بحكم العادة . ففي الحملة الافتاحية كانت الجيوش المتحاربة يقصد الواحد منها خصمه ويزحف عليه مباشرة . فكانت النتيجة غير حاسمة كما حصل في (ولاية) "فرجينيا" وفي (ولاية) "ميزورى" . ثم ان "ماككيلان" لما تعين قائدا عاما لجيوش الشمال فكر في سنة ١٨٦٢ واستكر خطة الانتفاع بالقوة البحرية لنقل جيشه الى الجناح الاستراتيجي لعدوه — لا الى مؤخرته . فهذه الحركة وان كان لاشك في أنها مما يؤمل فيه النجاح أكثر من الزحف على العدو مباشرة بطريق البر ، الا أنها على ما يظهر ، ابتكرت كوسيلة للاقتراب من "رتشموند" عاصمة العدو من طريق أقصر ، أكثر من كونها اقترابا غير مباشر بالمعنى الحقيقي . على أن هذه الآمال خيها الرئيس "لنكلن" بامتناعه عن قبول مجازفة مقصودة . وبناء على ذلك أبقى فليق "ماكدويل" لوقاية "واشنطن" مباشرة وبذلك حرم "ماككيلان" لامن قسم من قوته فحسب ، بل حرمه من عنصر تشيت أفكار العدو الذي هو جوهرى لنجاح خطته . ومن ثم فانه بعد إنزال جنوده الى البر ضاع منه شهر وهو أمام "يوركناون واضطر لتغيير خطته فجعلها اقترابا بالتقاء جنوده في نقطة واحدة بعد السير متفرقة أى اقترابا شبه مباشر بالاتحاد مع "ماكدويل" الذي لم يسمح له الا بالزحف برا على طول الطريق الموصل من "واشنطن" الى "رتشموند" مباشرة . ومع ذلك فان العمليات غير المباشرة التي قام بها "ستونول" جاكسون في وادي "الشندو" كان لها من التأثير الأدبي في حكومة "واشنطن" ما جعلها تؤجل مرة أخرى حصّة "ماكدويل" في الزحف الرئيسى . وحتى مع ذلك كانت مقدمة جنود "ماككيلان" على مسافة أربعة أميال من "رتشموند" على قدم الاستعداد للوشة النهائية قبل أن يتقوى "لى" بالدرجة الكافية لأن يتدخل . ثم ان الميزة الاستراتيجية كانت في جانب "ماككيلان" حتى بعد فشله تكتيكا في المعارك التي استمرت سبعة أيام . وربما كانت هذه الميزة أعظم مما كانت قبلا لأن تعطيل سيره الجاني لم يمنعه من تحوّل قاعدته نحو الجنوب الى نهر "الجيمس" . فهو والحالة هذه لم يكفل سلامة مواصلاته فقط ، بل انه اقترب من مواصلات العدو المتجهة جنوبا من "رتشموند" ، بدرجة خطيرة . غير أن هذه الميزة زالت بتغيير الاستراتيجية . فان "هليك" تعين قائدا عاما متخطيا "ماككيلان" لأسباب سياسية ، وأمر باعادة أركاب جيش "ماككيلان" بالسفن والانسحاب الى جهة الشمال ليتحد مع جيش "بوب" في زحف مباشر بطريق البر . فكما يحصل كثيرا في التاريخ ، ليس معنى ازدواج القوة ازدواجا مباشرا أنها تصبح أقوى مما كانت بمثلين ، بل انه ينقص تأثيرها بمقدار النصف لأنه يجعل «خطوط انتظار» العدو أبسط . ومع ذلك فان استراتيجية "هليك" تطابق التفسير الظاهري لمبدأ الاحتشاد فيتبين منها الزلل الذي يقع فيه الذين يستسهلون هذا العلاج المألوف لكل الحالات العسكرية . أما استراتيجية "الاقترب المباشر" التي كانت سائدة طول النصف الثاني لسنة ١٨٦٢ وما كان يلزمها من العجز ، فقد انتهى أمرها بالخيبة التي صادفتها في المعركة

الدموية التي نشبت في ١٣ ديسمبر "بفردريكسبورج". ثم ان استمرار هذه الاستراتيجية ودوامها في سنة ١٨٦٣ لم يؤد الى زيادة الاقتراب من "رشموند"، بل انه أدى الى غزو الجنوبيين أراضي الشمال على أثر انهيار الحركات التعرضية التي قام بها جنود الشمال . ثم ان هذا الغزو المباشر صدّه هو الآخر في "جتربورج". وفي نهاية السنة كانت الجيوش قد رجعت الى مواقعها، وكان كلا الطرفين قد سفك من دماؤه ما أضعفه بدرجة لا يستطيع معها سوى الوقوف أمام خصمه وجها لوجه عبر نهري "الرايدان" و "راباهانوك" ويحذق فيه بعين الحقد . ومما له دلالة خاصة هو أن في هذه الحملات التي كان الطرفان يتبادلان فيها الاقتراب المباشر كان ما يحصل من المزايا يكون في جانب الفريق الذي يتجهج خطة الدفاع مكتفيا بصد زحف خصمه . لأن في مثل هذه الظروف الاستراتيجية يبقى الدفاع هو الصورة الأقل استقامة من الأخرى لأنها تقتصر على تجنب بذل مجهود لا طائل تحته .

والمتفق عليه بصفة عامة هو اعتبار صدّ الغزو الذي قام به "لى" في "جتربورج" مبدأ انقلاب حالة الحرب وتغيرها . على أن هذا الزعم لا مبرر له الا بالمعنى المسرحي . أما حكم الرأي التاريخي السديد فقد أكد مرة بعد أخرى أن المؤثرات الحاسمة جاءت من جهة الغرب . وأولها كان في أبريل سنة ١٨٦٢ حينما مرت العمارة البحرية التي كانت تحت قيادة "فاراجوت" أمام الطوابي التي كانت تحرس مصب نهر "المسيسيبى" وتمكن بها "فاراجوت" من الفوز بتسليم "نيواورلينز" بدون سفك دماء . فكانت هذه في الواقع رأس السهم الذي نفذ بين شطرى ولايات الجنوب على طول الخط الحيوى المكوّن من هذا النهر العظيم صعدا على مجراه .

أما المؤثر الحاسم الثانى فقد أحرز أبعد من ذلك صعدا في "المسيسيبى" في نفس ذلك اليوم أى ٤ يولييه ، عند ما شرع "لى" في رجعته من "جتربورج" . وهو استيلاء "جرانت" على "فيكزبورج" التي أعطت الشمال السيطرة التامة على هذا الشريان الحيوى . وبذلك أصبحت ولايات الجنوب محرومة حرمانا دائما من تغذية جنودها بالامدادات والمؤن من الولايات الواقعة وراء "المسيسيبى" . على أن تأثير هذا الاحتشاد ، القائم على الاستراتيجية العظمى ، ضد الشريك الأصغر ، يجب ألا يغطى على الوسائل الاستراتيجية التي أوجده . فان أول اقتراب الى "فيكزبورج" في ديسمبر سنة ١٨٦٢ كان مباشرا في جوهره وقد أخفق . وفي فبراير ومارس سنة ١٨٦٣ حاولوا عبثا أربع مرات الوصول الى الغاية بمناورات ضيقة ترمى الى تجاوز الجناح . وبعد ذلك لجأ "جرانت" الى اقتراب غير مباشر واسع النطاق كان شبيها بحركة "وولف" النهائية في "كوبيك" (كندا) لا من حيث جرأتها فقط . فرقسم من أسطول الشمال وتقالاته من أمام بطاريات "فيكزبورج" ليلا وسار نحو الجنوب الى نقطة تبعد عن القمامة بمسافة ثلاثين ميلا . ثم تحرك معظم الجيش الى تلك النقطة برا بطريق الشاطئ الغربى

”لمسبسي“ وتحت ستر الحركات التي كان قام بها ”شيرمن“ لتشتيت أفكار العدو متجها نحو الشمال — الشرق من ”فيكربورج“ . ثم نقل الجيش الى الشاطئ الشرقى في مواجهة مقاومة ضعيفة . ولما انضم ”شيرمن“ الى ”جرانت“ ثانيا قام هذا بجولة مقصودة هي انفصاله عن قاعدته الوقتية الحديدية وتحرك شمالا متوغلا في أراضى العدو ، ووضع نفسه على مؤخرة ”فيكربورج“ معترض مواصالاتها مع الولايات الشرقية الرئيسية من بلاد حكومة الجنوب بعد أن دار من النقطة التي بدأ منها دورة تكاد تكون مامة . فكان الظاهر والحالة هذه أنه وضع نفسه في منتصف المسافة الكائنة بين فكي العدو — لأن قواته كانت محشدة في ”فيكربورج“ وفي ”جاكسون“ . وعلى مسافة أربعين ميلا شرقا توجد نقطة اتصال السكة الحديدية الجانبية البخارية شمالا وجنوبا بالخط الرئيسى المار شرقا وغربا . ولكنه في الواقع زحزح عمل هذين الفكيين . ومما هو جدير بالذكر أنه حينما وصل الى هذه السكة الحديدية رأى من المستحسن أن يبدأ بنقل جيشه بأجمعه نحو الشرق ليلجئ العدو الى اخلاء ”جاكسون“ . وفي ذلك بيان للتغيير التي طرأ على الظروف الاستراتيجية بسبب تطور السكك الحديدية . لأنه بينما كان نابليون يستخدم خط نهر أو سلسلة تلال كحاجزه (سده) الاستراتيجى . كان حاجز ”جرانت“ الاستراتيجى ينشأ عن تملكه نقطة واحدة — نقطة اتصال الخطوط الحديدية . وبعد أن استولى على هذه النقطة دار الى الوراء وتحرك زاحقا على ”فيكربورج“ وكانت اذ ذاك قد انفصلت وبقيت منفصلة مدة من الزمن كانت كافية لتسليمها بعد ذلك بسبعة أسابيع . وكانت النتيجة الاستراتيجية على أثر ذلك فتح طريق ”تسانانوجا“ الى ”جورجيا“ التي هي مورد الغلال لولايات الجنوب . ومنها الى الولايات الشرقية بأجمعها .

فكانت هزيمة الجنوب حينذاك تكاد تكون أمرا لا مفر منه . ومع ذلك فان جنود الشمال كادوا يفقدون النصر الذى كانت مضمونا لهم . لأن ولايات الشمال استولى عليها الملل في سنة ١٨٦٤ تحت تأثير الشدة وأصبحت الكلمة للعنصر الأديب وأخذ حزب الصلح يزداد يوما بعد يوم بانضمام الذين ملوا الحرب الى صفوفه . وكان موعد انتخاب الرئيس في نوفمبر فكان لابد من اعطاء وعد صريح بتعجيل النصر وإلا ينتخب رئيس غير ”لنكن“ يسمى للاتفاق مع العدو على عقد الصلح . ولهذا السبب استدعى ”جرانت“ من الغرب ليتولى القيادة العليا . فكيف كان سعيه في الحصول على النصر المطلوب عاجلا؟ بالاستراتيجية التي كان يتبعها دائما أولئك القادة المتمسكون بالأصول العتيقة المتفق عليها بين رجال الهندية — أى باستخدام قوته المتفوقة على العدو تفوقا هائلا بأن يلقى ثقله على جيش العدو فيحطمه تحطيا ، أو أن ينهكه « بالطرق المستمر » . فقد شاهدنا أنه في حملة ”فيكربورج“ لم يستخدم الاقتراب غير المباشر المتطرف الا بعد أن انتهج الاقتراب المباشر أكثر من مرة ثم فشل . وعندها نفذه بمهارة الأستاذ . ولكن يظهر أن ذلك الدرس لم ينطبع على ذهنه .

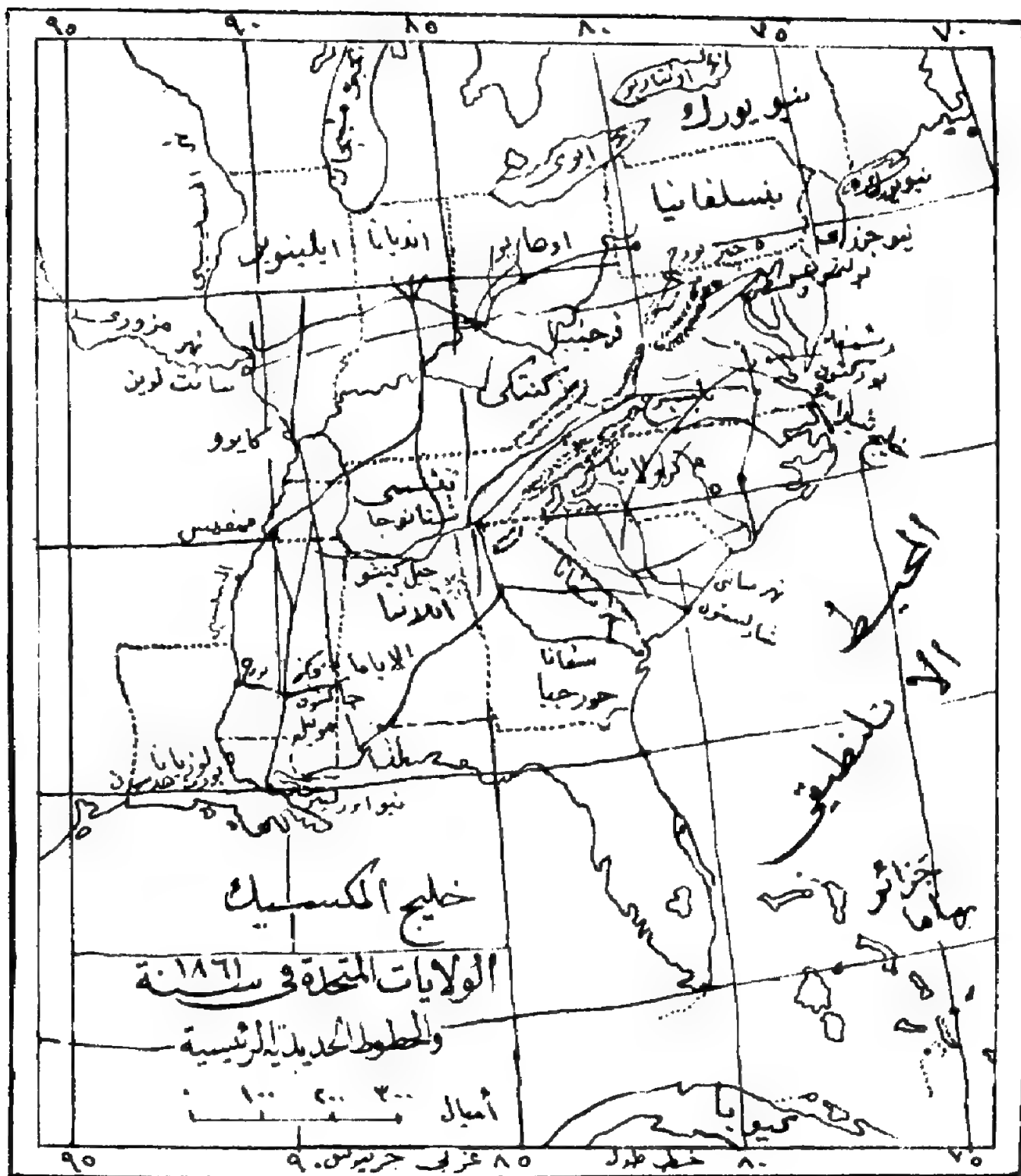
فالآن وهو في منصب القيادة العليا جاءت أعماله مطابقة لطبيعته . فقد صمم على انتهاج الاقتراب المباشر القديم نحو الجنوب من نهر "الرباهانوك" متجها نحو "فرجيدا" . على أن ذلك كان يرمى الى شيء آخر — لأن غرضه الحقيقي هو جيش العدو أكثر من كونه عاصمة العدو . فوجه مسؤوله "ميد" وزوده بقوله "أينما يذهب" لي "عليك أنت أيضا أن تذهب" وانصافا "جرات" أيضا يجب القول انه وإن كان اقترابه مباشرا بالمعنى الشامل فهو لم يكن بمعنى مجرد اندفاع جهي مطلقا ، وفي الحقيقة انه كان يسعى دائما للتفاف حول جناح عدوه بالمناورات وإن كانت في محيط ضيق . وزيادة على ذلك فانه استوفى كل الأصول العسكرية الصحيحة من الاحتفاظ باحتشاد جيشه ، وملازمة إبقاء غرضه نصب عينيه لايحوله عنه فزع آت من جهة أخرى . وكانت "ارادته للنصر" لا تشوقها حتى ارادة "فوش" . ويحق للذين اتبعوا طريقته في سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يحسدوه على ما لاقى من رئيسه السياسي من سخاء العون الذي أمده به والثقة التي لا تنقطع . فمن المؤكد أن ظروفه كانت من أكل ظروف الاستراتيجية الأصولية بأحسن طرقها المنطوية على الاقتراب المباشر .

ومع ذلك ففي نهاية صيف سنة ١٨٦٤ ذبت في أيدي رجال الشمال ثمرة النصر التي كانت ناضجة . ففي الشمال كان الصبر واجدا قد بلغ النهاية حتى يش "لنكن" من اعادة انتخابه — وهذا جزاء مؤلم على الثقة المطلقة التي أودعها في منفذه العسكري وجزاء سخري على صدق العزيمة التي أدار بها "جرات" قوته المتفوقة التي تكسبت الآن بشكل مرعب على أثر المعارك الطاحنة التي وقعت في "البرية" وفي "كولدهار بور" وفشلت فشلا تاما في سحق جيش العدو . وفي حين أن النتيجة الرئيسية — وهي الميزة الجغرافية التي توفرت بالدوران الذي تم حتى بلغ ما يقرب من مؤخرة "رتشموند" ، أحرزتها المناورات التي لم تسفك فيها دماء والتي حصلت أثناء زحفه . وعلى ذلك فقد كان على شيء من الرضاء اوجوده بعد الخسائر الجسيمة في الموقع الذي احتله "ما ككيلان" في سنة ١٨٦٢ . على ان الجو الذي كان يظهر أنه في أشد درجات الحلوكة أضاء بظأة . فان "لنكن" أعيد انتخابه في نوفمبر وعاد الى مركز القوة . فما هو العامل الذي أغاثه وحال دون احتمال انتخاب "ما ككيلان" مرشح الحزب الديمقراطي الذي كان يطلب الصلح ليحل محله ؟ ليست حملة "جرات" التي لم تتقدم في الواقع بين يولييه وديسمبر بل أخفقت أخفاقا مزدوجا في منتصف أكتوبر كلفها كثيرا . انما العامل الذي كان سبب النجاة هو باقرار المؤرخين استيلاء . "شيرمن" على "اطلتا" في سبتمبر . فان "جرات" عندما استدعى ليتولى القيادة العليا . خلفه في القيادة في الغرب "شيرمن" الذي اشترك بمقدار غير يسير في الفوز الذي أحرزه "جرات" في "فيكر بورج" . وكان هناك تناقض بين أمان كل منهما . فبينما كان الغرض الأول الذي يرمى اليه "جرات" هو جيش العدو كان "شيرمن" يرمى الى الاستيلاء على النقاط الاستراتيجية . وكانت "اطلتا" التي هي قاعدة

جيش العدو الذى يقاومه ليست نقطة الاتصال بين أربعة خطوط من خطوط السكك الحديدية الهامة فحسب ، بل كانت أيضا مستودعا لمؤن حيوية . وكما قال "شيرمن" كانت "مليئة بدور صب المعادن (المسابك) ، والترسبات ، ودور الصناعة (الورش) الميكانيكية" . فضلا عن كونها رمزا أدبيا . وفي رأيه أن "الاستيلاء عليها يكون نذير الموت لولايات الجنوب" وسعى لأن يضربها بالمانورات بقدر الامكان بدلا عن ضربها بمعركة — اذ كان متشبعا بفكرة الفوز بأرخص ثمن ممكن . ومهما وجد من تشعب الآراء في تقدير قيمة الغرض الذى قصده "جرات" والغرض الذى قصده "شيرمن" فإن الظاهر هو أن الأخير منهما أكثر ملاءمة للنفسية الديمقراطية . وربما كان الحاکم المطلق وحده الوائق من مركزه هو الذى فى وسعه أن يأمل أن يحافظ على المثل الأعلى للفكرة العسكرية بأن يجعل "القوات المسلحة" الغرض الذى يرمى اليه . وان كان حتى هو نفسه يلتزم الحكمة فيوفق بين هذا المثل الأعلى وحقائق الموقف . ويزن الظروف المتوقعة لتنفيذه بميزان العقل . ولكن الاستراتيجى الذى يخدم حكومة ديموقراطية لا يتسع له المجال بهذا القدر . فهو يعتمد على ما يمد به محذمه من العون وما يوليه من الثقة فيضطر لأن يعمل فى حدود من الوقت والتكاليف أقل من الحدود التى يعمل فيها الاستراتيجى "المطلق" . وتطلب منه مكاسب سريعة بالحاح أكثر . ومهما كان ما يأتى به المستقبل فى آخر الأمر فانه لا يستطيع تأجيل تقديم الحساب . ومن ثم قد تلجئه الضرورة لأن يعيد عن غرضه مؤقتا ، أو على الأقل ، يعطيه شكلا آخر بأن يغير خط عملياته . فمع هذه العوائق التى لا مفر منها يحذر بنا التساؤل عما اذا لم يكن من الواجب أن تكون النظرية العسكرية فى مثلها العليا أكثر تطابقا مع الحقيقة المقلقة وهى أن المجهود العسكرى يقوم على الأساس الذى يرتضيه الشعب — أى أن تقديم الرجال والذخائر ، بل وحتى موالاة القتال أو قطعه كل ذلك يتوقف على رضا "رجل الشارع" . فان الذى يأجر الزمار يختار النعمة . وليس ما يمنع أن يُعطى الاستراتيجيون أجرا ، من النوع والصفة ، أكثر اذا هم أصلحوا نجاتهم بقدر ما فى امكانهم حتى قبلها أذن الشعب يريد أن لا مانع من تقديم الجنود والذخائر مادام القائد يعمل ما يرضى الشعب) .

وقد كان اقتصاد "شيرمن" فى القوة بالمانورات أكثر ظهورا لأنه خلافا لما كان عليه "جرات" فى "فرجينيا" ، كان مقيدا فعلا بخط حديدى واحد لاستيراد مؤنه . ومع ذلك فانه تجنبنا لتوريط جنوده فى هجوم مباشر ترك هذا الخط وابتعد عنه . فلم يسمح بهجوم جبهى فى كل هذه الأسابيع التى انقضت فى المناورات الأمرة واحدة فى "جبل كينيسو" . ومما هو جدير بالذكر أنه سمح بهذا الهجوم ليوفر على جنوده مشقة موالاة السير الجانبي فوق طرق مغمورة بالمياه . وأن هذا الهجوم ضد — وقد خف تأثير هذه الصدمة لأن الهجوم أوقف

ي مجرد اعاقته لأول مرة . وكانت هذه في الواقع هي المرة الوحيدة التي حصلت أثناء الزحف الذي قطع فيه "شيرمن" ١٣٠ ميلا مجتازا بلادا جببية تتقاطع فيها الأنهر وورط فيها جنوده في معركة هجومية . وهو في الحقيقة كان يقوم بالمناورات بمهارة استدرج بها جنود الجنوب المرة بعد المرة الى جهات لا طائل تحتها فان ارغامه عدوا متخذا خطة الدفاع الاستراتيجي على اتباع سلسلة من الحركات التكتيكية التعرضية التي تكلفه خسائر كثيرة كان فوزا في المهارة الفنية الاستراتيجية لم يسبق له مثال في التاريخ . ومما يرفع من شأن هذه المهارة بصفة خاصة هو أن "شيرمن" كان مرتبطا في مواصلاته بخط واحد لا غير . وحتى مع مراعاة أضيق قواعد القياس العسكرية ، وغض النظر عن التأثير الجسمي أدبيا واقتصاديا الذي أحدثه هذا العمل . فانه عمل مجيد لأن "شيرمن" أوقع بالعدو من الخسائر أكثر مما أصابه هو . وليس ذلك نسبيا فقط . بل في الواقع — اذا "قورن" عمله بعمل "جرات" في فرجينيا . ثم ان "شيرمن" بعد استيلائه على "اطلانتا" جازف بمجازفة لم يسبق له مثله ، وانتقده عليها كثيرا الشراح العسكريون فقد فكر في أنه اذا استطاع أن يخترق "جورجيا" سيرا ويدمر نظم سككها الحديدية بما أنها "مورد الغلال في ولايات الجنوب" ، ومنها يسير الى "كارولينا" الجنوبية "فكارولينا" الشمالية فان التأثير الأدبي الذي يحدثه غزو بلاد الجنوب على هذه الصورة ، ووقف تسير المؤن شمالا الى "رتشموند" والى جيش "لى" ، يحدثان انهيار مقاومة ولايات الجنوب . ولذلك فانه أهمل جيش "هود" الذي كان أبلأه الى الجلاء عن "اطلانتا" ثم شرع في سيره المشهور "السير الى البحر" مخترقا "جورجيا" وهو يمؤن جيشه من البلاد ويدمر السكك الحديدية فقام من "اطلانتا" في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٤ وفي ١٠ ديسمبر وصل الى ضواحي "سافانا" وفيها أعاد فتح مواصلاته وجعلها هذه المرة بحرا ، وحرم الجنوب من ثغوره الشهيرة التي كانت باقية له . وبعد ذلك تحرك شمالا مجتازا ولايتي "كارولينا" وجاء على مؤخرة "لى" أما "جرات" فانه لم يستأنف الزحف الا بعد ذلك بثلاثة أشهر ونيف ، في أوائل أبريل . وهذا الزحف أحرز فوزا مسرحيا . وتسليم "رتشموند" أعقبه تسليم جيش "لى" في ظرف أسبوع . فأما من حيث الظاهر فان هذا التسليم جاء فوزا مبررا لاستراتيجية "جرات" المباشرة واتخاذها "المعركة" غرضا . وأما من حيث الحكم الجدى المبني على النظر والرأى السديد فان عامل الوقت من أهم العوامل . فان تدهور مقاومة ولايات الجنوب سببه الجوع الذي كان له رد فعل في القوة المعنوية . فقد كان الاقتراب غير المباشر الى مؤخرة العدو الاقتصادية والمعنوية حاسما في الطور الأخير كما كان في التنقلات المتوالية التي مهدت للحسم في جهة الغرب . وهذه الحقيقة تتضح لمن يدرس هذه الحرب دراسة دقيقة شاملة . وقد قدرها حق قدرها الجنرال "إدموندس" المؤرخ الحالى الرسمى الذى وضع تاريخ الحرب العالمية . وذلك منذ أكثر من عشرين سنة حيث قال في قراره ما يأتى :



”إن العبقرية العسكرية التي اتصف بها قائد الجنوب الكبيران ”لى“ و”جاكسون“ والمقدرة الحربية التي اتصف بها جيش فرجينيا الشمالية التي لا مثيل لها . وقرب العاصمتين المتنافستين احدهما من الأخرى . كل ذلك كان سببا في تركيز الالتفات على المسرح الشرق للحرب بدرجة لا مبرر لها . أما الدرجات الحاسمة فقد وقعت في الغرب . فان الاستيلاء على ”فيكربورج“ و”بورت هندرسون“ في يولييه سنة ١٨٦٣ كان النقطة الحقيقية التي طرأ فيها الانقلاب على الحرب كما كانت العمليات التي قام بها جيش ”شيرمن“ الغربى الأكبر هي التي أدت في الحقيقة الى انهيار الجنوب في ”دارمحكمة أبوماتوكس“ — المكان الذي سلم فيه ”لى“ في الشرق .

وذلك الالتفات الذي لا مبرر له يرجع بعضه الى تخففة المعارك التي تسحر الجندى العادى الذى يدرس التاريخ ، وبعضه الى تأثير حماسة ”هندرسون“ في كتابه المسمى ”ستونويل جاكسون“ — الذى ربما كان شعرا حماسيا أكثر منه تاريخيا . وذلك لم يقلل من قيمة الكتاب الحربية . بل على العكس فانه زادها . وربما كانت هذه الزيادة راجعة الى بيان آراء هندرسون في الحرب أكثر منها الى سرد أعمال ”جاكسون“ التنفيذية ولكن هذا الكتاب قد اجتذب التفات الطالب الحربى البريطانى الى حملات ”فرجينيا“ بما حواه من البيانات الشيقية ، وأهمل المسارح الغربية حيث وقعت الأعمال الحاسمة . وفي مقدور الجنرال ”أدموندس“ بصفته واضع تاريخ حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ أن يؤدى خدمة للأجيال المقبلة بتحليله للتأثير المتولد عن هذا ”الالتفات الذى لا مبرر له“ في أفكار البريطانيين قبل سنة ١٩١٤ ، وبالتالي ما كان له من أثر في الاستراتيجية البريطانية . فان كلاهما لم يكن متحيزا فقط بل كان قائما على قياس خاطئ .

وعند ما ننقل من الحرب الأهلية الأمريكية الى الحروب الأوروبية التي وقعت على أثرها فان الذى ينطبع على مخيلتنا أكثر من غيره هو وضوح التناقض بينها . فأول نقيض هو أن في حربى سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧٠ كان كلا الفريقين المتحاربين متأهبا للحرب ولو اسميا على الأقل . والنقيض الثانى أن النضال كان بين جيوش محترفة . والثالث أن الرئاسة العليا لدى الفريقين كان عند كل منها كشف بديان الأخطاء والزلات لم تتوصل اليه القيادة العليا في الحرب الأمريكية . والرابع أن الاستراتيجية التي اتبعها كلا الطرفين في كلا الحربين كانت ناقصة نقصا جوهريا في الفن . والخامس أنه بالرغم من كل ما ذكر كان الجسم سريعا . فاستراتيجية ”مولتكه“ كانت في جوهرها استراتيجية الاقتراب المباشر وليس فيها من الخدعة الا شيء يسير ، معتمدة على مجرد قوة التخطيم التي تتوافر في تفوق القوة المحشودة . فهل نستنتج من ذلك أن هاتين الحربين هما الاستثناء الذى يضرب به المثل على اثبات القاعدة ؟ نعم انهما مستثنيان في الواقع ولكن لا يمكن القول بأنهما استثناء للقاعدة التي نتجت عن الحالات الكثيرة

التي سبق لحصنها . لأنه ليس في واحدة منهما ان كان كل من ضعف القوة وبلادة العقل كلاهما في جانب الفريق المهزوم فكانا يشغلانه من أول الأمر . فكثيرا ما شوهد أحدهما أو الآخر (الضعف أو البلادة) ولكن لم يشاهدا كلاهما مطلقا . أما في سنة ١٨٦٦ فكان ضعف قوة النمساويين من بادئ الأمر في كون أسلحتهم أقل قيمة من أسلحة عدوهم — لأن البندقية التي تحشى من الخلف أعطت البروسيين ميزة على بندقية النمساويين التي تحشى من الفوهة كما ثبت في ميدان القتال بما لا يدع شكاً ، ولو أن آراء المجامع العلمية العسكرية في الجيل التالي كانت تميل الى اغفال ذلك . وأما في سنة ١٨٧٠ فكان ضعف قوة الفرنسيين يرجع بعضه الى أقليتهم العددية ، وبعضه الى انحطاط درجة التعليم كما في سنة ١٨٦٦ . فهذه الحالات المزروعة فيها أكثر مما يكفى لتفسير أسباب حاسمية هزيمة النمساويين في سنة ١٨٦٦ ، وأكثر منه لتفسير أسباب حاسمية هزيمة الفرنسيين في سنة ١٨٧٠ ، أمام اقتراب مباشر . أما الدرس الحقيقي المكتسب من هذه الأمثلة فهو ليس في أن الاقتراب الاستراتيجي فيها كان استثناء للقاعدة ، بل ان الاستثناء من التجارب السالفة كان في الظروف . فقد كانت ظروف استثنائية حقا . وفي المناقشات أو الاستعدادات التي تسبق الحرب لا يجرؤ جندي على تأسيس خطته على افتراض أن عدوه سيكون ضعيفا عقلا وجسما كالنمساويين في سنة ١٨٦٦ والفرنسيين في سنة ١٨٧٠ ، ومع ذلك فإن الواقع في سنة ١٩١٤ هو أن انحطاط التي وضعتهما هيئات أركان الحرب المختلفة وبينت تفصيلاتها وقبلتها للحرب كانت مؤسسة على الاقتراب المباشر . ومن ثم فإن الاستنتاج الوحيد الممكن ، وإن كان لا يصدق ، هو أنها افترضت دون أن تشعر أن ظروف سنة ١٨٧٠ كانت ظروف عادية لا استثنائية .

وفي نفس الوقت فإن مما يستحق البيان قبل الانتهاء من هذه الأمثلة هو أن الاستراتيجية الألمانية وإن كانت مباشرة في تصميمها إلا أنها كانت أقل من المباشرة في تنفيذها . فإن الحاجة الى توفير الوقت في سنة ١٨٦٦ باستخدام كل السكك الحديدية الموجودة أدت "بمولتك" لأن يتزل القوات البروسية من القطارات على جبهة متسعة جدا تزيد على ٢٥٠ ميلا وكان في نيته أن يجمعها الى الداخل بأن تتلاقى معا بزحف سريع مجتازة منطقة الحدود الجبلية ويضم جيوشه في بوهيميا الشمالية . ولكن ضياع الوقت بسبب امتناع ملك بروسيا عن أن يكون هو المعتدى خيب نية "مولتك" وذلك أكسب استراتيجيته اقترابا غير مباشر لم يكن في تصميمه . لأن الجيش النمساوي احتشد واندفع الى الأمام في تلك الفترة فحرم "مولتك" من الساحة التي كان يريد أن يحتشد فيها . ثم أتى عهد بروسيا ، لاعتقاده بأن زاوية "سليسيا" الخارجة مهددة انتزع منه اذنا على غير رضاه لتحريك جيشه الثاني نحو الجنوب لتأمين "سليسيا" وبذا ازداد انفصالا عن الجيوش الأخرى ، وبذا أيضا تحرك على طول

القسم العلوى لحرف L (الافرنجية) فوضع نفسه فى موقع يهدد جناح ومؤخرة الكتلة النمساوية وقد سكب الأعداء كثيرا من المداد فى إدانة "مونتكه" على إذنه للامير بهذا الانشار المتسع مع أن هذا الامتداد كان فى الحقيقة عبارة عن بذور النصر الحاسم وان كان لم يبذره هو عن قصد .

فهذا القرب أحل بتوازن القيادة النمساوية العقلى بدرجة مكنت البروسيين ، بالرغم مما ارتكبه من الأخطاء الجسيمة ، أن ينفذوا أولا من الجبال على كلا الجانبين . ثم يحرزوا النصر الذى أحرزوه فى "كويخجراتس" — حيث وقعت أخطاء أخرى صيرت الاقتراب غير مباشر فأصبح حاسما . غير أن القائد النمساوى غلب قبل افتتاح المعركة . فانه كان قد بعث الى امبراطوره رسالة برفية يلح فيها بطلب صلاح عاجل .

وفى سنة ١٨٧٠ كان فى نية "مونتكه" أن يحدث معركة حاسمة على نهر "النصار" حيث تحشد جيوشه الثلاثة مطبقة على الفرنسيين قسحقتهم سحقا . وهذه الخطة قلبت رأسا على عقب لا بفعل الفرنسيين ولكن بفعل الشلل الذى أصابهم . وسبب هذا الشلل هو مجرد وصول أخبار تنبئ بأن الجيش الألمانى الثالث الموجود فى نهاية الميسرة قد عبر الحدود ميتعدا نحو الشرق وأحرز فوزا تكتيكيا صغيرا على قسم فرنساوى فى "وايسنبورج" وفى النتيجة كان التأثير غير المباشر الذى أحدثه هذا الاشتباك الصغير حاسما بدرجة أعظم مما كان يحتمل أن يتأتى من المعركة الكبرى التى كان فى النية أحداثها . لأن الجيش الثالث كان سمح له بأن يتخذ طريقا يسوده السكون متطرفا نحو الشرق خارج منطقة الجيوش الرئيسية المتناضلة بدلا من دورانه الى الداخل ليعزز الكتلة الرئيسية . ولذلك لم يشترك فى المعركتين الطائشتين "فيونفيل" "وجرافيلوط" — فان موقع الفرنسيين كان فى وضع يجعل اشتراكه فيها اشتراكا مثيرا أمرا غير محتمل لو أنه كان أقرب مما كان — ولهذا السبب كان هو العامل الحىوى فى التطور التالى الحاسم . لأن الجيش الفرنسى الرئيسى — الذى كان قد ازداد نشاطا . لافتورا . بنتيجة معركة جرافيلوط — لما تفهقر وارتد جناحه ودخل الى قلعة "متس" كان فى ميسوره أن يفلت من الجيشين الأول والثانى الألمانين للذين كان الاعياء قد أخذ منهما كل مأخذ . ولكن احتمال تدخل الجيش الثالث حرض "بازان" على البقاء آمنا فى "متس" وبذا توافر الوقت للألمان بجمع قواتهم ، وللفرنسيين ليفقدوا اتصال بعضهم ببعض بمجهودهم الذى أعقب تركهم الميدان المكشوف . وكانت نتيجة ذلك أن حرض "ماكاهون" بحرض أو ضغط عليه سياسيا لأن يقوم بحركته لتخليص "متس" تلك الحركة الدالة على تدبير عقيم وإدارة أكثر عقما . وبهذه الكيفية تواجدت فرصة . لم تكن مقصودة ولا متوقعة . للجيش الثالث الذى كان ما يزال مواليا سيره "حرا" نحو باريس . أن يقترب من جيش "ماكاهون" اقترابا غير مباشر . فما كان منه الا أن غير اتجاهه تغييرا تاما من جهة الغرب الى جهة الشمال وتحرك

هابطاً على جناح "ماكاهون" ومؤخرته فكانت نتيجة ذلك معركة "سيدان" حتى في الحرب الذي كان فيه الاقتراب المباشر ظاهراً أكثر مما في غيره كان الطور الحاسم ينطوى على أساليب غير مباشرة أكثر مما تدل عليه الظواهر . على أن المشاهد في جملة الأبحاث النظرية العسكرية التي وضعت بعد سنة ١٨٧٠ ، أن الظواهر هي التي كانت تتأثر بها هذه الأبحاث ، دون الاستنتاجات العميقة . وهذا التأثير هو الذي كان يسود الحرب التالية التي كانت في نطاق واسع -- وهي الحرب الروسية -- اليابانية . فإن الاستراتيجية اليابانية كانت تنطوى على الاقتراب المباشر الصرف اذ كانت تابعة لمستشاريها الألمانين بغاية الدقة . فلم تحصل أية محاولة للاستفادة من الظروف التي كانت ملائمة بدرجة فوق المعتاد . ظروف كون مجهود روسيا الحربى متوقفاً على خط حديدى واحد ، هو خط سكة حديد سبيريا . وليس في التاريخ بأجمعه أن جيشاً كان يتنفس الهواء من حنجرة طويلة ضيقة كما كان الجيش الروسى الذى كان حجمه يزيد تنفسه صعوبة . غير أن كل ما كان استراتيجيو اليابان يفكرون فيه هو ضربة ينزلونها بالجيش الروسى موجهة الى أسنانه مباشرة ، فأبقوا جنودهم متجمعة بمجموعات أكثر تلاصقاً مما كانت جنود مولتكة في سنة ١٨٧٠ . نعم انهم حاولوا أن يقوموا باقتراب تتلاقى فيه جنودهم أمام "لياو - يانغ" ولما اتصلوا بالعدو سعوا مراراً لأن يتجاوزوا جناحه . ولكن اذا كانت هذه الحركات التي يقصد بها تجاوز الجناح تظهر على الخريطة كأنها متسعة نسبياً فانها في منتهى الضيق بالنسبة لحجم القوات . ومع أنه لم يكن لديهم جيش "حر" ثالث كالذى كان لدى "مولتكة" لحسن حفظه ، ولا طعم مغرى مثل "متس" ولا "ماكاهون" ليلتلع هذا الطعم -- لأنهم ابتلعوا طعمهم بأخذه "بورت آرثر" -- فانهم كانوا ينتظرون "سيدان" فكانت النتيجة أنهم كانوا قد أتعبوا أنفسهم بعد معركة "موكدن" النهائية التي لم تكن حاسمة لدرجة أنهم فرحوا ، وساعدهم الحظ ، لعقد الصلح مع عدو مل التضال مع أنه لم يشرك فيه عشر القوات الموجودة لديه بعد .

هذا التحليل التاريخى يعالج الحقائق ، لا الآراء الفرضية ، أى ما وقع فعلاً وما نتج عنه لا ما كان يمكن أن يقع . فان نظرية الاقتراب غير المباشر البارزة منه يجب أن تستقر على الأدلة المجسمة المأخوذة من التجارب الفعلية بأن الاقتراب المباشر غير حاسم وهذا التحليل لا دخل له مطلقاً بالجدل فيما يختص بالصعوبات التي تعترض القيام باقتراب غير مباشر في حالة معينة ، اثباتاً كان أو نقياً . فليس من المناسب في وجهة نظر هذا الموضوع الأساسى أن نبحث عما اذا كان في استطاعة القائد أن يسلك سبيلاً غير الذى سلكه . وعما اذا كان السبيل الآخر يؤدي الى نتائج أحسن لو أنه سلكه .

على ان التبصر من وجهة المعلومات العسكرية العامة يسترعى الالتفات دائما . وكثيرا ما يكون ذا قيمة . ولذا فاذا تحول الانسان عن الموضوع الحقيقي لهذه الدراسة وخرج عنه فانه قد يلاحظ العراقيل التي لاقاها اليابانيون من جراء قلة المواصلات ووعورة الأراضي في ”كوريا“ و”منشوريا“ ومع ذلك يلاحظ التشابه العظيم بين ”بورت — أرثر“ و”مانتاو“ فان كانت الظروف أكثر صعوبة من بعض الأوجه . فانها كانت أفضل من أوجه أخرى . فضلا عن أن الآلة (الجيش) أحسن . وعلى ذلك فقد يتساءل الانسان عما اذا لم يكن في امكان الاستراتيجية اليابانية في الطور الأول من الحرب أن تستغل طعم ”بورت — أرثر“ بالطريقة الدالة على الدهاء التي استغل بها نابليون ”مانتاو“ وفي الطور الأخير ألم يكن هناك مجال لاستخدام قسم من القوة على أقل تقدير ضد تلك الحنجرة الضعيفة بين ”هاربين“ و”موكدن“.

الباب التاسع

النتيجة

لقد اشتملت مطالعاتنا على الحروب التسع التي كان لها أثر حاسم في مجرى التاريخ الأوروبي في الأعصر الحالية . وحروب التاريخ الحديث الكبرى الثمانية عشرة — معتبرين النضال الذي قام ضد نابليون حرباً واحدة هي التي كانت تخمد نارها تارة في مكان . وتعود الى الالتهاب تارة أخرى في مكان آخر فكانت في الواقع لا تنقطع . فهذه الحروب البالغ عددها سبعة وعشرين حرباً تضمنت أكثر من ٢٤٠ حملة حربية . وفي ست من هذه الحملات فقط — هي الحملات التي انتهت بمعارك ”إيسوس“ . و ”جاوجا ميللا“ و ”فريدلند“ و ”واغرام“ و ”سادووا“ و ”سيدان“ — أمكن الحصول على نتيجة حاسمة بواسطة الاقتراب الاستراتيجي المباشر من الجيش الرئيسي للعدو . وفي الحملتين الأوليين منها كان الاقتراب الاستراتيجي المباشر الذي قام به الاسكندر قد سبقه التمهيد باستراتيجية عظمى مؤسسة على اقتراب غير مباشر هز الامبراطورية الفارسية من أساسها وزعزع ثقة أتباعها فيها . وليس ذلك فحسب بل انه كان مضموماً بامتلاك الة تكتيكية متفوقة تفوقاً لا يوصف . ثم نفذ باقتراب تكتيكي غير مباشر . والحملتين الثانيةيتين كان نابليون شرع فيهما بأن حاول القيام باقتراب غير مباشر . ثم عدل من الاقتراب غير المباشر الى اقتراب مباشر . وعدوله هذا يرجع بعضه الى قلة صبره ، وبعضه الى ثقته في تفوق آله (جيشه) . وهذا التفوق كان يتركز على المدفعية المنجعة كلاً . فكان الجسم في كل من ”فريدلند“ و ”واغرام“ راجعاً بصفة رئيسية الى هذه الطريقة التكتيكية الحديثة . على أن الثمن الذي اشترى به فوزه في هاتين المعركتين وما كان له من الأثر في حظ نابليون ليس مما يشجع على العودة الى مثل هذا الاقتراب المباشر حتى ولو بتفوق تكتيكي مثل هذا التفوق . أما في سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ فقد شاهدنا مما مر بيانه أن هاتين الحملتين ولو أن تصميمهما كان على طريقة الاقتراب المباشر . الا أنهما تحولتا على غير قصد الى اقتراب غير مباشر — عززه تفوق الألمان التكتيكي في كلتا الحالتين — السلاح الذي يحشى من الخلف في سنة ١٨٦٦ ، والتفوق العددي في سنة ١٨٧٠ . ولا شك في أن هاتين الحملتين ليست إلا حجة واهية لتبرير أي شخص يستحق اسم جنرال في الرضاء بانتهاج استراتيجية الاقتراب المباشر . ومع ذلك ففي كل عصور التاريخ كان الاقتراب المباشر هو الصورة المعتادة دائماً للاستراتيجية . وكان الاقتراب غير المباشر المقصود بالذات الاستثناء النادر . فقليل هم القادة ، حتى بين مشاهيرهم الذين انتهجوا الاقتراب غير المباشر في استراتيجيتهم الافتتاحية ، وفي أغلب الأحيان انتهجوه كآخر حيلة بل وكآخر مغامرة ومع ذلك فقد أدى

بهم الى الحسم في حين أن الاقتراب المباشر كان قد انتهى بهم الى الفشل فتركهم بحالة من الضعف لا يقوون معها على محاولة انتاج الاقتراب غير المباشر . والفوز الحاسم الذي يحصل في مثل تلك الظروف التي تكون قد ازدادت سوءا له أهمية ذات مغزى خاص .

ولقد أبانت مطالعتنا عن ست وعشرين حملة حربية كان فيها الاقتراب الحاسم والاقتراب غير الحاسم ظاهرين ظهورا لا يقبل جدلا وهي حملات "ليساندر" في البحر "الايحي" (القسم الشرق من البحر الأبيض المتوسط) في سنة ٤٠٥ قبل الميلاد و "إبيامينونداس" في "البلوبونيز" في سنة ٣٦٢ قبل الميلاد و "فيليب" في "نويوتيا" في سنة ٣٣٨ قبل الميلاد والاسكندر على نهر "الهيداسبس" (الهند) ضد "كاساندر" و "ليسياكوس" في الشرق القريب سنة ٣٠٢ قبل الميلاد وهانبل في حملة "ترازيمين" في "إتروريا" وحملة "سبيو" في "يوتيك" و "زاما" بأفريقيا و "سيزار" في حملة "إليردا" في أسبانيا .

وفي التاريخ الحديث حملات "كرومويل" في "پرستون" و "دنبار" و "ورستر" . وحملة "تورين" في الالزاس سنة ١٦٧٤ -- ٧٥ وحملة أوجين في إيطاليا سنة ١٧٠١ وحملة "مارلبورو" في "فلاندرز" سنة ١٧٠٨ وحملة "فيلار" سنة ١٧١٢ وحملة "وولف" في "كويك" وحملة "جوردان" على نهري "الموزيل" و "الموز" سنة ١٧٩٤ وحملة الأرشدوق "شارلس" على نهري "الرين" و "الدنوب" سنة ١٧٩٦ وحملات بوناپارت في إيطاليا سنة ١٧٩٦ وسنة ١٧٩٧ وسنة ١٨٠٠ وحملاته في "أولم" و "أوستراتز" سنة ١٨٠٥ ، وحملة "جرات" في "فيكسبورج" ، وحملة "شيرمن" في "اطلانتا" ، فكل هذه الحملات رجحت كفة الميزان في الحرب التي وقعت فيها ، وزيادة على ذلك فان مطالعتنا أبانت عدة أمثلة "للحد الفاصل" أي الأمثلة التي كان فيها لاقتراب أو تأثيره أقل وضوحا من غيره .

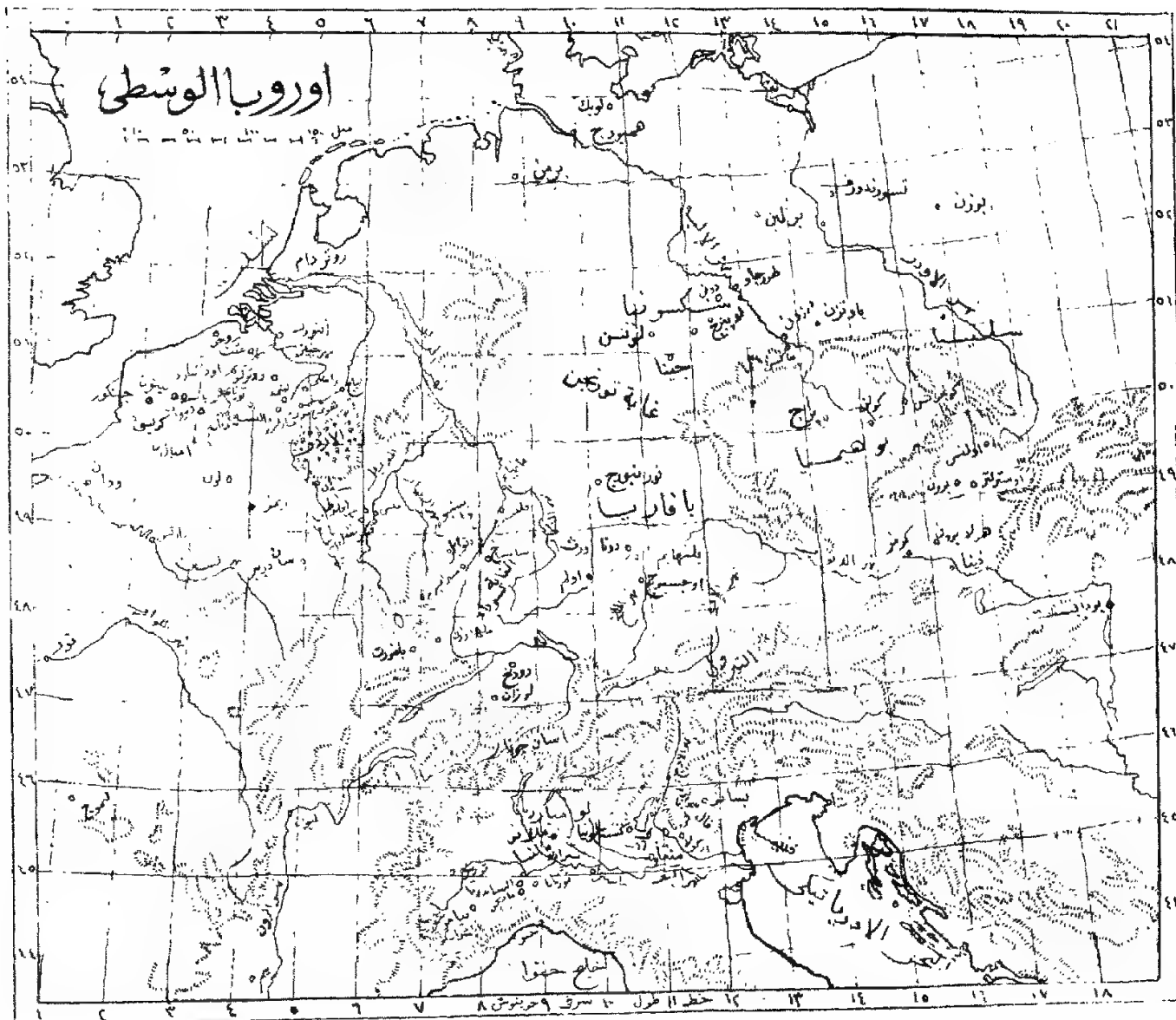
فهذه النسبة العظيمة لحملات التاريخ الحاسمة التي زادت قيمته ندورة الاقتراب غير المباشر نسبيا تجربنا على أن نستنتج أن الاقتراب غير المباشر هو صورة الاستراتيجية التي تتوافر فيها أعظم درجات الأمل والاقتصاد عن غيرها بكثير ، وهل في استطاعتنا أن نستنتج من التاريخ ما هو أقوى وأقطع للدلالة على ذلك مما مر ، نعم ذلك أن كبار قادة التاريخ ، ماعدا الاسكندر الذين أحرزوا الفوز بصورة منتظمة حينما كانوا يواجهون عدوا مستحكما في موقع قوى سواء كانت قوته طبيعية أو مادية ما كانوا يواجهونه مباشرة مطلقا إلا في النادر جدا ، وأنهم اذا اضطروا بحكم الظروف القاسية أن يجازفوا بمهاجمته مباشرة على غير رضاء منهم كانت النتيجة فشلا تاما يشوه تاريخهم ، فان "مارلبورو" لم يحدد عن طريق الاقتراب غير المباشر تماما إلا مرة واحدة فحق فيها النتائج التي أحرزها بفوزه ستين ، وحاد عنه سيزار عدة مرات

وتكبد بنسبتها ، أما "سبيو" وكر ومويل فلم يجيدا مطلقا فكانا هما القائدين الكبيرين الوحيدين اللذين انتصرا دائما أبدا ، ما عدا الاسكندر وحتى الاسكندر نفسه بالرغم من تفوق آله تنوقا لاحصر له كان يستخدمها دائما باقترب تكتيكي غير مباشر .

وزيادة على ذلك فان التاريخ يبين أن القائد الكبير يقدم على المجازفة بالاقتراب غير المباشر الذي تكتشفه أشد الأخطار بدلا من أن يستسلم لاقتراب مباشر — فاذا قضت الضرورة اجتاز الجبال ، أو الصحارى أو المستنقعات بقسم صغير من جيشه ، بل وانفصل عن مواصلاته وابتعد عنها فيواجه ، في الواقع ، كل الظروف والحالات المعاكسة بدلا من قبول الغلب الذي ينتج من الاقتراب المباشر فان المجازفات الطبيعية مهما عظمت هي في الحقيقة أقل خطرا وأقل تأكدا من مجازفات القتال ، وكل الظروف في الاستطاعة أن يحسب حسابها ، وكل العوائق أكثر قابلية للتخطي من ظروف وعوائق المقاومة البشرية . ففى الامكان التغلب عليها بالحساب والاستعداد القائمين على التبصر بحيث تكاد تنظم طبقا "لجدول مواعيد" ولكن حينما تمكن نابليون من عبور جبال الألب "طبقا لخطته" أعاقته طابية "بارد" الصغيرة وأعاقت حركات جيشه إعاقة جديّة جعلت كل خطته في خطر .

ولنرجع الآن الى قلب ترتيب فحصنا فقطاع معارك التاريخ الحاسمة بالدور فنجد في جميع هذه المعارك بوجه التقريب أن الظافر كان قد وضع خصمه في حالة نفسية غير مرضية قبل نشوب القتال وأمثلة ذلك "ماراثون" و"سالاميس" و"إجوسپوتامى" و"مانتيلىه" و"خيرونيه" و"كان" و"ميناووروس" و"زاما" و"برستون" و"دنبار" و"وورسستر" و"بلنهايم" و"أودينارد" و"دينين" و"كوبيك" و"فلوروس" و"ريفولى" و"أوترلتر" و"جينا" و"فيكسبورج" و"كوينجراتس" و"سيدان" .

واذا جمعنا بين الفحص الاستراتيجي والفحص التكتيكي نجد أن معظم الأمثلة واحدة من إحدى فئتين . إما أنها حصلت من استراتيجية دفاع مرن — التفهقر المقصود — أعقبه هجوم تكتيكي ، وإما من استراتيجية هجوم (أى تعرضية) يرمى بها المهاجم الى وضع نفسه في موقع "مخير" للعدو يعقبه دفاع تكتيكي . فكل من هاتين الصورتين المشتركين تكون اقترابا غير مباشر . والأساس الذى تقوم عليه كل منهما من الوجهة النفسية (نسبة الى علم النفس البشرية) يصح التعبير عنه بكلمة واحدة هي "الخدعة" وفي الحقيقة يصح القول بمعنى أعمق وأوسع من المعنى الذى أراده "كلاوزيفتر" إن الدفاع هو أقوى صورة للاستراتيجية وأكثرها اقتصادا ، لأن التركيب الممين بالفتة الثانية وان كان عبارة عن حركة تعرضية في ظاهرها قائمة على الحساب اللوجستيكي (الحساب اللوجستيكي هو العلم الذى يبحث في تحركات الجنود وتموينها) إلا أن الحافز اليها هو جرّ العدو الى هجوم "مختل التوازن" .



والاقتراب غير المباشر الوارد في التاريخ كان يشتمل عادة على حركة عسكرية قائمة على الحساب اللوجستيكي موجهة الى هدف اقتصادي — هو المورد الذي تستمد منه أى البلادين أو الجيشين المتحاربين مؤنه — وكان يحصل أحيانا أن تكون الحركة ذاتها اقتصادية .

وهناك استنتاج آخر من مطالعاتنا ربما لم يكن إيجابيا ولكنه بالقرينة على أقل تقدير ، هو أن مما يعود بثمرة أكثر في الحملة الحربية الموجهة ضد أكثر من بلاد واحدة أو جيش واحد أن يحصل الاحتشاد أولا ضد الشريك الأضعف بدلا من محاولة قهر الشريك الأقوى اعتقادا بأن هزيمة الأقوى يترتب عليها انهيار الآخرين من تلقاء أنفسهم .

ففى النضالين البارزين فى العالم القديم - تغلب الاسكندر على الفرس وتغلب "سپيو" على "قرطاجه" — وتم كل منهما على أثر قطع الجذور . وهذه الاستراتيجية العظمى المؤسسة على الاقتراب غير المباشر لم تقتصر على إيجاد امبراطوريتي "مقدونيا" و "روما" من العدم بل انها خلفت أعظم خلف لهما وهى الامبراطورية البريطانية وعليها تأسس حظ نابليون بونابارت وقوته الامبراطورية . ثم حصل بعد ذلك أن قام على هذا الأساس ذلك البناء العظيم الثالث الدائم وهو الولايات المتحدة . أما فن الاقتراب غير المباشر فلا يمكن الإلمام به إلماما تاما ولا تقدير غايته تقديرا تاما إلا بالدراسة الشاملة لكل تاريخ الحرب وامعان النظر فيه ، غير أننا نستطيع على الأقل أن نحول هذه الدروس الى صورة مجسمة ونضعها فى كائنين إحداهما سلبية والأخرى ايجابية .

الأولى هى أنه أمام أدلة التاريخ التى لا تنقض لا يوجد مبرر يبرر القائد فى دفع جنوده الى هجوم مباشر على عدو ثابت فى موقعه . والثانى أنه بدلا عن السعى الى قلب موازنة العدو رأسا على عقب بواسطة الهجوم ، يجب قلبها قبل الشروع فى الهجوم الحقيقى ، أو قبل أن يستطاع الشروع فيه بنجاح .

ولقد لاحظت الحقيقة الأساسية أمام بصيرة "لنين" حين قال "الاستراتيجية التى هى أكثر سدادا فى الحرب هى إرجاء العمليات الى أن يحل الانحلال الأدبى بالعدو فيجعل انزال الضربة القاضية عليه أمرا ممكنا وسهلا" . وذلك لا يتيسر دائما ، وطريقة دعايته لا تثمر فى كل الأحيان ولكن هذا القول يقبل التعديل الى هذه الصورة :

"أسد استراتيجية فى أية حملة حربية هى إرجاء المعركة ، وأسد تكتيك هو إرجاء الهجوم الى أن تترجح قوة العدو الأدبية فتجعل انزال الضربة الحاسمة أمرا ممكنا" .

الباب العاشر

البناء

بعد أن استنتجنا من تحليل التاريخ ما استنتجناه يلوح لنا أن من المفيد أن نقيم على الأسس الجديدة مسكنا للتفكير الاستراتيجي .

ولنبداً أولاً بفهم معنى الاستراتيجية فهما لا يشوبه غموض ولا ابهام . فقد عرفها "كلاوزيفتر" في كتابه الأثرى المسمى "عن الحرب" بأنها "فن استخدام المعارك كوسيلة للحصول على الغرض المطلوب من الحرب . وبعبارة أخرى الاستراتيجية عبارة عن الخطة الموضوعة للحرب . فهي ترسم المجرى المنوي اتخاذ الحملات الحربية المختلفة التي تتكون منها الحرب ، وتنظم المعارك التي تقع في كل منها " .

فمن عيوب هذا التعريف أنه يتعدى على دائرة السياسة ، أي الإدارة العليا للحرب التي يجب أن تسأل عنها الحكومة بحكم الضرورة ، لا القادة العسكريون الذين تستخدمهم الحكومة ليكونوا عمالاً أو أعواناً لها يقومون بالسيطرة التنفيذية على العمليات . وعيب آخر هو أنه يضيق معنى "الاستراتيجية" ويحصره في مجرد استخدام المعركة فتتولد من ذلك فكرة أن المعركة هي الوسيلة الوحيدة للغاية الاستراتيجية . فكانت هذه خطوة سهلة خطاها أتباعه الذين كانوا أقل تعمقاً لخطأوا بين الوسيلة والغاية ووصلوا إلى نتيجة هي أن في الحرب يجب أن يكون كل اعتبار آخر خاضعاً للمقصد الذي هو خوض غمار معركة حاسمة .

علاقتها بالسياسة — ان ازالة التمييز بين الاستراتيجية والسياسة لا تحدث فرقاً كبيراً اذا كان كل من الوظيفتين منوطاً بشخص واحد باشتراكهما معا كما هي الحال مع "فردريك" أو "نابليون" ، ولكن بما أن وجود حكام عسكريين أو توراتيين (مطابق التصرف) من أمثالهما كان دائماً من الأشياء النادرة ، وأصبحوا لا وجود لهم في القرن التاسع عشر فقد كان تأثير الجمع بين الاستراتيجية والسياسة خادماً ومضراً . لأنه شجع رجال الهندية على ذلك الزعم الباطل من أن السياسة يجب أن تكون في خدمة أدارتهم للعمليات . وخصوصاً في البلاد الديمقراطية فإن هذا الزعم جر رجال السياسة إلى تخطي حدود دائرتهم تلك الحدود التي لا قيد لها وتدخلهم في أعمال موظفيهم العسكري وهو يستخدم آله فعلاً .

أما "مولتك" فإنه توصل إلى تعريف أكثر وضوحاً وحكمة في تعبيره عن الاستراتيجية بأنها "التوفيق الفعلي بين الوسائل الموضوعة تحت تصرف القائد ، وأجزاء الغرض المطلوب" فهذا التعريف يضع مسؤولية القائد العسكري أمام الحكومة التي تستخدمه . وهذه المسؤولية تنطوي على بذل القوة المخصصة له في حدود مسرح العمليات المعين له بدلاً تراعى فيه مصالح

السياسة الحربية العليا بأقصى درجات الربح . فإذا عتق له أن القوة المخصصة له لا تكفى للقيام بالنصيب المحدد فله الحق أن يبين ذلك . وإذا رفض رأيه ففى استطاعته أن يمتنع أو أن يستقبل من القيادة . ولكنه يتجاوز حدود دائرته المشروعة إذا هو حاول أن يمل على الحكومة مقدار القوة التى توضع تحت تصرفه .

ومن جهة أخرى يحق للحكومة التى ترسم سياسة الحرب وتوفق بينها وبين الظروف التى كثيرا ما يطرأ عليها التغير أثناء الحرب ، أن تتدخل فى استراتيجية الحملة ليس فقط باستبدال قائده فقدت ثقتها فيه بغيره ، بل بتعديل الغرض الموضوع له بناء على ما تحتاج اليه سياستها الحربية . ومع أنه لا ينبغى لها أن تتدخل فى كيفية معالجته لآلاته واستخدامه اياها ، يجب عليها أن تبين له نوع العمل المطلوب منه ببيان لا غموض فيه . وعلى ذلك فليس لزاما أن يكون غرض الاستراتيجية هو مجرد السعى لقهر قوة العدو العسكرية . وإذا رأت الحكومة أن العدو يملك التفوق العسكرى بوجه عام أو فى مسرح خاص فقد يكون من الحكمة أن تأمر باتباع استراتيجية محدودة الغاية والقصده . ثم انها قد ترغب أن تنتظر حتى يتغير ميزان القوة بتدخل حلفاء لها أو بانتقال قوات من مسرح آخر . كما انها قد ترغب الانتظار بل وأن تحدد مجهوداتها الحربية مؤقتا بينما تقوم الأعمال الاقتصادية أو البحرية بالفصل فى الحالة . وقد ترى أن التغلب على قوة العدو العسكرية عمل خارج عن طاقتها تماما ، أو أنه لا يستحق بذل المجهود ، وأن الغرض المقصود من سياستها الحربية يمكن ضمانه بالاستيلاء على أراض تستطيع الاحتفاظ بها أو استخدامها فى المساومة فى مفاوضات الصلح . ومثل هذه السياسة لها تعضيد من التاريخ أكثر مما اعترفت به الآراء العسكرية حتى الآن . وهى بطبيعتها سياسة أقل ضعفا مما يصوره مروجوها . فهى فى الحقيقة مرتبطة بتاريخ الامبراطورية البريطانية وقد برهنت مرارا على كونها رسالة النجاة لحلفاء بريطانيا ، ومغنا دائما لنفسها . ومهما كانت هذه السياسة العسكرية متبعة دون ادراك ومعرفة فان هناك أسبابا تدعو الى التساؤل عما اذا كانت لا تستحق أن يؤبه لها فى نظرية ادارة الحرب .

على أن السبب الداعى عادة لانتهاج استراتيجية محدودة الغاية ، أكثر من غيره من الأسباب هو انتظار حصول تغيير فى ميزان القوة . وهو تغيير كثيرا ما يطلب ويحز بانهاك قوة العدو واضعافه بالخزب دلا من المجازفة بالضربات . والشرط الجوهرى لمثل هذه الاستراتيجية هو أن يقع الانهاك على العدو بمقدار أعظم مما لا يقاس مما يصيب الانسان (أى الواخر) . وهذا الغرض قد يمكن تحقيقه بالسطو والاغارة على مؤنه ، أو بهجمات محلية تبيد أجزاء من قوته أو تنزل بها خسائر تزيد عن نسبة ما يصيبنا بمقدار عظيم ، أو باغرائه على القيام بهجمات لا فائدة له منها ، أو باستدراجه الى تشتيت قوته فى مسافات واسعة ، أو بما لا يقل أهمية عن ذلك وهو انهاك قوته المعنوية ونشاطه الجثمانى .

والتعريف الأضيق يلقي ضوءاً على المسألة التي سبق التساؤل عنها وهي مسألة استقلال القائد بتنفيذ استراتيجيته الخاصة في حدود مسرح عملياته . لأنه إذا استقر رأى الحكومة على اتباع سياسة حربية "غابية" (نسبة الى فابوس وهي تتطوى على التفادى من المعارك) فإن القائد الذى يسعى لأن يقهر قوة العدو العسكرية ، ولو في حدود دائرته الاستراتيجية قد يضر السياسة الحربية التي انتهجتها الحكومة أكثر مما ينفعها . فالمعتاد أن السياسة الحربية المحدودة الغاية تحتم اتباع استراتيجية محدودة الغاية أيضاً . ولا تتجهج الغاية الحاسمة الا بترخيص الحكومة فهي وحدها التي تستطيع أن تبث فيما اذا كان الأمر يستحق ذلك .

فالآن نستطيع أن نعطي أفكارنا شكلاً مجسماً فنضع تعريفاً للاستراتيجية أقصر مما سبق ذكره وأبسط وربما كان أدق فنقول : "هي توزيع الوسائل الحربية ونقلها الى حيث تؤدي غايات السياسة" لأن الاستراتيجية لا تقتصر مهمتها على تحريك الجيش — وهو الدور الذى يحدد لها في أغلب الأحوال — بل تشمل أيضاً ما تحدثه من الأثر . وحينما ينصرف تطبيق الآلة العسكرية الى القتال فعلاً فإن الأوضاع التي تتخذ لمثل هذا العمل المباشر والسيطرة عليه يسميان "تكتيكات" . فإن الفئتين أى الحالتين وإن كانتا يلائمان البحث والمناقشة ، لا يمكن فصل أحدهما عن الأخرى في الحقيقة لأن كلا منهما لا يؤثر على الأخرى فحسب بل تندمج فيهما .

وكما أن التكتيك هو تطبيق الاستراتيجية في مستوى أدنى فكذلك الاستراتيجية هي تطبيق "الاستراتيجية العظمى" في مستوى أدنى . وهذا الاسم الاصطلاحي "الاستراتيجية العظمى" وإن كان في الواقع مرادفاً للسياسة التي يتقيد بها سير الحرب ، تميزاً لها عن السياسة المستديمة التي تحدد الغرض المطلوب منها ، فهو يبين المعنى المقصود من "سياسة التنفيذ" لأن مهمة الاستراتيجية العظمى هي وضع كل موارد الأمة على قدم المساواة ، أى التوفيق بينها كلها وتوجيهها نحو احراز الغرض السياسى من الحرب — أى الهدف النهائى الذى تحدده السياسة القومية . والاستراتيجية العظمى من واجباتها أن تحسب موارد الأمة الاقتصادية وقوة رجالها وتقدرهما وترقيهما لكي تعول الجنود المقاتلة وتكفل بقاءها . وتفعل ذلك أيضاً بالموارد الأدبية لأن تربية قوة ارادة الربح والجلد وانعاشهما وحمايتهما لها من الأهمية ما لا يمتلك الصور الأخرى للقوة المادية المجسمة . وعليها أن تنظم توزيع القوة بين أفرع الخدمة المتعددة . وبين هذه الأفرع والصناعة . وليس ذلك كل ما عليها لأن القوة المقاتلة ان هي الا إحدى آلات الاستراتيجية العظمى . ويجب عليها أن تحسب حساب قوة الضغط المالى ، والضغط الدبلوماسيكي ، والضغط التجارى وتستعملها . وكذلك ، ما لا يقل عن هذه القوى ، وهو الضغط الأدبي لاضعاف ارادة العدو . فإن القضية الطيبة هي في ذاتها سيف ودرع . وزيادة على ذلك فينبى أن الذى يحدد أفق الاستراتيجية هو الحرب ، فإن الاستراتيجية العظمى تلقى نظرها الى ما وراء

الحرب وهو الصالح الذى يعقبه . والذى يجب عليها ليس فقط اشراك الآلات المتنوعة بل تنظيم استخدامها على وجه تجتنب معه الاضرار بحالة السلم المستقبلية وبقائه مكفولا فى رخاء . فلا عجب اذا كان القسم الأعظم من مملكة الاستراتيجية العظمى "بلادا مجهولة" خلافا للاستراتيجية .

الاستراتيجية البحث — بعد أن مهدنا السبيل وأزلنا كل غموض صار فى امكاننا أن نبني فكرتنا عن الاستراتيجية على أساسها الأصل الحقيقى — وهى أنها "فن القائد" . ونجاحها يتوقف أولا وفوق كل شيء على صحة حساب الغاية المطلوبة والوسائل الموجودة والتوفيق بينهما ويجب أن تكون الغاية متناسبة مع مجموع الوسائل ، وأن تكون الوسائل المستخدمة لاحتراز كل غاية متوسطة من الغايات التى تمهد لاحتراز الغاية النهائية ، متناسبة مع ما لهذه الغاية المتوسطة من القيمة وما تحتاج اليه ، سواء كانت احتراز غرض أو انجاز تمهيد . فإن التجاوز (أى الزيادة) قد يكون مضرا نفس الضرر الذى يحدثه النقص . والتعديل الحقيقى بين الغاية والوسيلة يؤدى الى الاقتصاد فى القوة بأصح معنى لهذا الاصطلاح العسكرى الذى كثيرا ما أصابه التشويه . ولكن نظرا لطبيعة الحرب وما يحيط بها من الغموض وهو غموض يزداد جسامة بعدم دراستها دراسة علمية ، فإن التعديل الحقيقى فوق مقدور الأشخاص حتى ذوى العبقرية العسكرية . أما النجاح فيحصل بالاقتراب من الحقيقة ما أمكن .

ووجود هذه العلاقة على هذه الصورة سببه أن معلوماتنا عن علم الحرب ، العلم الذى يكاد يكون فى الوقت الحاضر من الأشياء التى لم يتناولها الاكتشاف ، مهما اتسعت فإنه علم يتوقف تطبيقه على الفن . والفن ليس فى مقدوره أن يقرب بين الغاية والوسائل فحسب ، بل انه برفعه قيمة الوسائل يمكن من ازدياد الغاية واتساعها . وهذا يربك الحساب ويعقده لأنه ليس فى مقدور البشر حساب مقدرة العبقرية البشرية ، وعجز البلادة ، ولا عجز الارادة حسابا بقرين الدقة .

العناصر والظروف — ومع ذلك فإن الحساب فى الاستراتيجية أكثر بساطة منه فى التكتيك وفى الامكان أن يكون أقرب للحقيقة عما فى التكتيك . لان فى الحروب ، العامل الرئيسى الذى لا يمكن حسابه هو الارادة البشرية التى تتمثل فى المقاومة . والمقاومة هى فى دائرة التكتيك . أما الاستراتيجية فليس عليها أن تتغلب على مقاومة الا المقاومة الآتية من جهة الطبيعة . والقصد منها انقاص احتمال حصول المقاومة وهى تسعى لأداء هذا الغرض باستغلال عنصرى ، "الحركة" و "المفاجأة" . أما الحركة فهى فى دائرة الطبيعيات وتتوقف على حساب ظروف الزمان ، والطبوغرافية ، والمقدرة على النقل . وعبرة المقدرة على النقل يقصد بها كل من الوسائل ، والمقدار ، اللذين يستطيع بهما نقل قوة وإعاشتها .

وأما المفاجأة فهي في دائرة النفسيات (علم النفس) وتتوقف على حساب أصعب بكثير مما في دائرة الطبيعيات (الجئانية) ، يختص بالظروف المتعددة التي تختلف في كل حالة عنها في الأخرى ، التي يحتمل أن تؤثر على ارادة العدو .

ولو أن الاستراتيجية قد ترمى الى استغلال الحركة أكثر مما ترمى الى استغلال المفاجأة او العكس بالعكس فان لكل من هذين العنصرين رد فعل على الآخر . فالحركة تولد المفاجأة . كما أن المفاجأة تعطى الحركة الحافز الذي يدفعها . لأن الحركة التي تزداد سرعتها أو التي تغير اتجاهها تحمل في نفسها درجة في المفاجأة لا بد منها حتى لو كانت غير مخفية . في حين أن المفاجأة تمهد طريق الحركة باعاقبتها التدابير المقابلة التي يتخذها العدو وحركاته المقابلة .

أما فيما يختص بعلاقة الاستراتيجية بالتكتيك أثناء التنفيذ فان الحد الفاصل بينهما كثيرا ما يبقى غامضا ومن الصعب التحديد بالدقة أين تنهى الحركة الاستراتيجية وتبتدى الحركة التكتيكية ومع ذلك فان كلا منهما يمتاز عن الآخر نظريا . فالتكتيك يقع في دائرة القتال ويملاها . أما الاستراتيجية فأنها لا تقف عند الحد لحسب ، بل إن من أغراضها انقاص القتال الى أقل قدر ممكن .

مرمى الاستراتيجية — هذا القول سيجادل فيه الذين من رأيهم أن اباداة قوة العدو المسلحة هي الغاية الوحيدة السديدة في الحرب . الذين يقولون ان هدف الاستراتيجية الوحيد هو المعركة والذين ملك عليهم مشاعرهم قول " كلاوزيوفر " ان « الدم ثمن النصر » . ومع كل فاذا سلم الانسان بذلك وقابل القائمين به في جدلهم ، فان القول لا يترزع ولا يجرح . لانه حتى اذا كانت المعركة الحاسمة هي الهدف الوحيد فان الجميع يعترفون بأن غرض الاستراتيجية . هو تهيئة المعركة في أكثر الظروف ملائمة لها . وكلما كانت الظروف ملائمة قل القتال نسبيا .

وبناء على ذلك فان ابلاغ الاستراتيجية حد الكمال يكون بالحصول على حسم — اباداة قوات العدو المساحة عن طريق نزع أسلحتها بالتسليم — من غير قتال . وفي التاريخ أمثلة شاهدنا فيها أن الاستراتيجية حينما ساعدتها ظروف ملائمة أحدثت مثل هذه النتيجة .

وفي العادة فان الرأي متروك للحكومة المسؤولة عن الاستراتيجية العظمى في الحرب ، في البت فيما اذا كان واجب الاستراتيجية أن تقوم بنصيبها باحراز حسم عسكري أو بغيره . وكما أن القوة العسكرية ليست سوى احدى وسائل غاية الاستراتيجية العظمى — احدى الآلات الموجودة بصندوق الجراح — فكذلك المعركة ليست الا وسيلة من وسائل غاية الاستراتيجية . فاذا كانت الظروف ملائمة كانت هي أسرع تأثيرا عادة . ولكن اذا كانت الظروف ليست ملائمة فن الحماقة استخدام المعركة . ولنقرض أن أحد الاستراتيجيين فوض في السعي للحصول

على جسم عسكري . فان مسئوليته تقضى بالسعى للحصول عليه في أكثر الظروف ملائمة لكي يحصل على النتيجة التي تكون أكثر مغنا . ومن ثم فان هدفه الحقيقي ليس السعى للحصول على معركة بقدر ما هو السعى للحصول على موقف استراتيجي ملائم لدرجة أنه اذا لم يحدث الجسم هو بذاته فان استمراره بنشوب معركة يضمن حصول الجسم . وبعبارة أخرى فان الزحزة هي هدف الاستراتيجية والذي يعقبا هو إما انحلال العدو وإما تشتيته في معركة . والانحلال قد يتطلب مقدارا من القتال ولكنه لا يكون معركة بالمعنى الصحيح .

عمل الاستراتيجية — كيف تحصل الزحزة الاستراتيجية في دائرة الطبيعيات الجثمانية «اللوجستية» تنتج الزحزة عن حركة: (أ) تقلب أوضاع العدو رأسا على عقب فتضطره الى « تغيير جبهته » بخافة ، وتزحزح توزيعاته وتنظيم قواته . (ب) تفصل قواته عن بعضها البعض . (ج) تجعل مؤنه في خطر . (د) تهدد الطريق أو الطرق التي يستطيع سلوكها في رجعتة حين الحاجة ليستقر مرة أخرى في قاعدته أو في بلاده . فالزحزة قد تحصل بتأثير احدى هذه الحالات ولكنها في الغالب تنتج عن عدة منها . والتميز بين احداها والأخرى أمر صعب في الحقيقة لأن الحركة الموجهة الى مؤخرة العدو من شأنها أن تحدث تأثير هذه الحالات كلها . أما التأثير الناشئ عن كل حالة منها فانه يختلف ، وقد اختلف في كل عصور التاريخ ، باختلاف مجوم الجيوش وتعقد تنظيمها . ففي الجيوش التي « تعيش من البلاد » وتستمد مؤنها محليا بالسلب أو بالمصادرة يعد خط المواصلات شيئا لا أهمية له . وحتى في مراحل التطور التي هي أرقى مما في هذه الجيوش تكون القوة الصغيرة أقل اعتمادا على خط المواصلات وفي استطاعتها نقل المؤن معها لمدد محدودة . وكلما كبر حجم الجيش وازداد تنظيمه تعقيدا كان مهدد خط مواصلاته ذا أثر أسرع مفعولا وأعظم جسامة .

أما الحالات التي تكون فيها الجيوش غير معتمدة على المواصلات فان الاستراتيجية تجد أمامها عراقيل بنسبة عدم الاعتماد (اعتماد الجيوش على المواصلات) وتلعب النتيجة التكتيكية للمعركة دورا أعظم . ومع ذلك فحتى مع قيام العراقيين أمام الاستراتيجية فان الاستراتيجيين الفنيين كثيرا ما غنموا مزايا حاسمة قبل نشوب المعركة بتهديدهم لخط رجعة العدو ، أو توازن أوضاعه ، أو مؤنه المحلية .

ولكي يكون مثل هذا التهديد مؤثرا يجب استخدامه في نقطة أقرب من جيش العدو ، من حيث الزمان والمكان . مما في حالة تهديد مواصلاته . ولذا ففي أوائل الحرب كثيرا ما يصعب التمييز بين المناورة الاستراتيجية والمناورة التكتيكية .

أما في دائرة النفسانيات (نسبة الى علم النفس) فان الزحزة هي نتيجة ما انطبع في ذهن القائد من الأثر المادي الذي أحدثته الحالات السالف بيانها . وهذا التأثير يتضاعف مفعوله متى أدرك القائد على حين بخافة أنه في موقف غير مرض . واذا شعر بمجزه عن مقابلة حركات

العدو بما يعاكسها . فالزحزة المعنوية (النفسية) أصل منشأها في الواقع هو شعور القائد بأنه واقع في شرك . وهذا هو السبب في حصولها كثيرا على أثر الحركة المادية (الجثمانية) التي توجه الى مؤخرة العدو . فان الجيش ، كالرجل ، لا يستطيع أن يدفع ضربة عن ظهره على الوجه الصحيح قبل أن ينقلب ويدور الى الوراء ليستعمل أسلحته في الاتجاه الجديد . « والانتقال » يفقد الجيش موازنته موقتا كما يفعل بالرجل . والوقت الذي يبقى فيه الجيش محتل التوازن أثناء انقلابه أطول بكثير من الوقت الذي يبقى فيه الرجل كذلك بحكم الضرورة . وينتج من ذلك أن تزداد حساسية العقل لأى تهديد يوجه الى الظهر عن حساسيته لأى تهديد يوجه الى جهة أخرى . وبالعكس فان التحرك نحو الخصم مباشرة يوطد توازنه من الوجهتين المادية والمعنوية . وفي توطيدها تعزيز لقوة مقاومته . لأنه اذا كان الخصم جيشا فان الحركة المباشرة تصده الى الوراء نحو جنوده الاحتياطية ، ومؤنه ، وامداداته حتى اذا ضعفت جبهته الأصلية وصارت رقيقة تواجدت وراءها طبقات جديدة . وغاية ما يمكن ايقاعه به هو ضغط لا صدمة .

وعلى ذلك فالحركة التي تجرى حول جبهة العدو وتوجه الى مؤخرته تشمل في ذاتها غاية هي ليست فقط التفادى من لقاء المقاومة في طريقها ، بل التفادى من نتيجتها . وبالمعنى الأكثر تعمقا تتخذ الخط الذي يلاقى أقل درجات المقاومة . ويعادل هذا الخط في دائرة المعنويات (النفسيات) الخط الذي يكون فيه الانتظار أقل من غيره . فهما بمثابة وجهى قطعة واحدة من النقد (المسكوكات) . وادراك ذات على حقيقته يوسع مداركنا الاستراتيجية . لاننا اذا اقتصرنا على اتخاذ الخط الذي يظهر انه خط أقل درجات المقاومة فان ظهوره كذلك يستجلب نظر العدو أيضا فلا يبقى بعده أقل خطوط المقاومة . ففي دراستنا للوجه المادى يجب ألا يغيب عنا الوجه المعنوى مطلقا . ولا تكون الاستراتيجية قائمة على الاقتراب غير المباشر حقيقة ومؤدية الى زحزة توازن الخصم الا اذا اشترك الوجهان معا .

فترى من ذلك أن مجرد السير نحو العدو بطريق غير مباشر ، والدنو من مؤخرة أوضاده لا ينتج هو بذاته اقترابا استراتيجيا غير مباشر . فالفن الاستراتيجى لم يبلغ من البساطة هذا الحد . ومثل هذا الاقتراب قد يكون في مبدئه غير مباشر بالنسبة لجهة العدو . على أن مجرد استقامة سيره نحو مؤخرة العدو قد يمكنه من تغيير أوضاعه وسرعان ما ينقلب الاقتراب الى اقتراب مباشر من جبهته الجديدة .

وخشية من المجازفة بتمكين العدو من تنفيذ تغيير جبهته فان من المعتاد ، اعتيادا تقضى به الضرورة ، ان تسبق الحركة المرحزة حركة أو حركات ، قد تكون أحسن تسمية لها دالة على نوعها هي اسم « تشتيت » بمعناها اللفظى أى « التفرقة » . والقصد من هذا « التشيت » هو حرمان العدو من حرية حركات . ويجب أن يكون في الدائرتين المادية والمعنوية (النفسية) .

ففى الماديّات يكون عمله جعل العدو ينشر قواته أو يحولها نحو غاية لا فائدة له منها حتى تصبح شاسعة الانتشار ومتورطة من جهة أخرى بدرجة تجعلها غير قادرة على التدخل فى حركة الانسان التى ينوى بها الحسم . أما فى دائرة المعنويات فيكون السعى للحصول على نفس هذا التأثير ، باستغلال ما يخشاه قائد جيش العدو ، وتضليله أى خدعته . ولقد أدرك ذلك « ستونول » « جاكسون » حينما ضرب مثله الاستراتيجى المشهور حيث قال : « حير ، وأخدع ، ثم فاجئ » . لأن إيقاع العدو فى الحيرة وخديعته يوجدان « التشتيت » . ثم ان المفاجأة هى السبب الجوهرى فى « الزحزحة » . والذى يتولد عن « تشتيت » فكرة القائد هو تشتيت قواته الذى يقع على أثر تشتيت أفكاره . وضياع حريته فى العمل هو نتيجة ضياع حريته فى التفكير .

ثم ان تقدير الكيفية التى تنفذ بها المعنويات من خلال الماديّات وتسودها ، تقديرا يقوم على التعمق فى التفكير ، له قيمة غير مباشرة لا تقدر . لأنه يحذرنا من السفسطة التى لا طائل تحتها ، وهى محاولة تحليل النظريات الخاصة بالاستراتيجية تحليلا قائما على العمليات الحسابية . فان معالجتها من وجهة الكم كما لو كانت المسألة مجرد مسألة احتشاد قوة متفرقة فى مكان مختار ، لا تقل خطأ عن معالجتها من الوجهة الهندسية كما لو كانت مسألة خطوط وزوايا .

المجلد الثاني

الحرب العالمية من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨

مقدمة

حينما وضعت مسودة هذا الكتاب امتنعنا عن تضمينها تحليلا لحرب سنة ١٩١٤-١٩١٨ لشعورنا بأنه مع توفر المادة الكافية لهذا التحليل سواء في دور المحفوظات ، وفي الشهادات التي أدلى بها الأشخاص ، فإن الجو كان ما يزال متشبعا بحرارة الجدل العنفي والمصالح الشخصية لدرجة تحول دون قبول التحكيم قبولاً هادئاً لا تشو له العواطف . وقد كان كل همناء أن الدروس المستخرجة من الماضي لإضاءة المستقبل التي هي في اعتقادنا دروس حيوية حقيقية ، لا تضع فائدها بسبب هذا الجوال سائد . فإن الذي نتوخاه انما هو انعاش روح البحث العلمي ، لا الجدل والمناقشة .

وفضلاً عن ذلك فاننا لم نشعر بأن فحص تاريخ حديث مثل هذا التاريخ أمر ضروري للغرض الذي نرمي اليه . فقد كان غرضنا استخدام نظارة (آلة تعظيم المراتب) التاريخ السالف - أي مجموعة تجارب العالمين العتيق والحديث - لتكون مجهر (مكروسكوب) ينظر فيه القارئ بنفسه فيكتشف الدروس المستفادة من سنة ١٩١٤ وكان يظهر أن عدسياته بها القوة الكافية لتمكينه من رؤية هذه الدروس بوضوح وجلاء .

على أن أصدقاءنا من النقاد الذين عرضنا عليهم المسودة الأولى ألحوا علينا بأن نضمنها مطالعة لسنة ١٩١٤-١٩١٨ قصد مطابقة التجارب السالفة على التجارب الحديثة بوضعها على قدم المساواة . وبمجة أن القليل من الطلبة توفرت لديهم أوقات الفراغ والفرص لتنقية سواد المادة التاريخية . فاذا كنت باذعاني لهذه المقترحات اصطدم بجراحاتي القديمة فالعيب هو عيب طريقة المعالجة ، لا عيب الروح الباعثة عليها . على أني بمحصر البحث على المدى الذي بلغه كل من الاقتراب المباشر ، والاقتراب غير المباشر في استخدامهما ، والنتائج التي ترتبت على هذا الاستخدام فاني أأمل أن أوفق الى ادارة دفعة سفيقتي بحيث لا ترتطم بصخور العواطف والحق . ولكيما نضيق مجال المناقشة والمشاركة فإن مطالعاتنا ستقتصر على موضوع الاستراتيجية بصفة رئيسية . استراتيجية الحملات المتنوعة . ولا نتجاوزها الى موضوع السياسة الحربية الا بمقدار صغير تقضي به الضرورة .

الباب الحادى عشر

الخطط ونتائجها فى المسرح الغربى سنة ١٩١٤

النقطة التى تبدأ منها مطالعة حملة الجبهة الغربية لابد أن تكون الخطط الموضوعة قبل الحرب . فالحدود الفرنسية - الألمانية كانت ضيقة لا تتجاوز ١٥٠ ميلا طولا ، ولذا كانت تضيق بمناورات كتل الجنود التى أوجدها نظام التجنيد الاجبارى وهياها التطور . والطرف الجنوبى - الشرقى لهذه الحدود يرتكز على بلاد "سويسره" ، وبعد أن تمتد مسافة قصيرة فى أراض مسطحة بالقرب من "بلفورت" ، تمتد مسافة ٧٠ ميلا على طول جبال "الفوزج" ومن هناك يمتد الخط بسلسلة من القلاع تكاد تكون متواصلة لا انقطاع بينها متخذة "إبينال" و "تول" و "فردون" قاعدة لها . وبعد "فردون" وعلى مقربة منها تقع حدود "الباجيك" "ولكسمبورج" . وفى فترة التجدد واعداد البناء التى أعقبت كوارث سنة ١٨٧٠ كانت خطة الفرنسيين تنطوى على دفاع افتتاحى قاعدته قلاع الحدود ، تأتى بعده ضربة مضادة حاسمة . ومن أجل ذلك أوجدوا مجموعة القلاع العظيمة على طول حدود "الالزاس" - واللورين" وتركت بينها فتحات مثل فتحة "ترويه دو شارم" بين قلعتى "إبينال" و "تول" لتكون « قناة » يجرى منها الغزو الألمانى المنتظر حتى تكون الضربة المضادة أكثر ضمانا وأشد مفعولا .

وهذه الخطة كانت تمتاز بقدر معين من الاقتراب غير المباشر بما كان كل ما فى الاستطاعة عمله نظرا لضيق الحدود وحجم كتل الجنود الفرنسية المجندة على النظام الاجبارى ، دون المساس بالأراضى المحايدة .

غير أن (مدرسة) طائفة جديدة ، أى مذهبا جديدا ، من الأفكار نشأت فى العقد السابق لسنة ١٩١٤ ، زعيمها (نبيها) الكلونيل "دوجراند مايسون" . عيبت هذه الخطة بحجة أنها تناقض الروح الفرنسية ، وأنها « تكاد تكون مضیعة تامة لفكرة الحركات التعرضية » . وهنا وجد مروجو فكرة Offensive à Outrance « التعرض بأقصى حد ممكن » مشجعا لنواباهم فى شخص الجنرال "جوفر" الذى تعين رئيسا لهيئة أركان الحرب العامة فى سنة ١٩١٢ فانتهزوا هذه الفرصة وتولوا السيطرة على الآلة العسكرية الفرنسية ، وألقوا الخطة القديمة من حائق ، وضربوا بها عرض الأفق ثم أوجدوا الخطة الجديدة التى أصبحت الآن مشهورة ، أو سيئة السمعة ، وهى الخطة "السابعة عشرة" . وهذه الخطة عبارة عن اقتراب مباشر محض فى صورة تعرض طائش ضد القلب الألمانى (أى منتصف الجيش الألمانى) تقوم به « كل القوات متحدة » . ومع ذلك فكان الفرنسيون فى خطتهم هذه القائمة على الحركات التعرضية الجبهية ،

على كل الجبهة . يعتمدون على قوتهم العددية التي لا تريد عن قوة العدو . مع أنه يستطيع استمداد العون من منطقة حدوده المحصنة ، في حين أنهم حيناً يندفعون الى الأمام يتبرأون من كل ميزة يستفيدونها من أما كنهم المحصنة . والشئ الوحيد الذي روعيت فيه التحارب التاريخية وسلامة الذوق في هذه الخطة هو أن قلعة "متس" كان مقررا لها أن تسترلا أن تهاجم بالذات . بل أن يمر المحجوم من جنوبها وينفذ الى "اللورين" ، ومن شمالها كذلك . وهذا الجناح الأخير (أى الهاجم من شمالها) يوالى حركاته التعرضية الى أراضى "لو كسمبوج" البلجيكية اذا ما أخل الألمان بحياد البلاد المحايدة . ومن الألفز التاريخية أن الخطة الفرنسية استمدت الهامها من "كلاوزيفتر" الألماني ، في حين أن خطة الألمان كانت أقرب الى الخطة النابليونية في أصلها ، وإن كانت ما تزال أقرب من الهانبالية .

أما نصيب جنود التجريدة البريطانية في الخطة الفرنسية فكان قد تمت تسويته في العقد السابق لسنة الحرب تسوية كان أثر الحساب فيها أقل من أثر صوغ التنظيم العسكري البريطانى والرأى البريطانى بالصيغة « الأوروبية » . وهذا التفوذ الأوربى جر بريطانيا تدريجيا دون أن تشعر لأن تقبل ضمنا دور الملحق أى التابع للجناح الفرنسى الأيسر . بعيدة عن استغلالها التاريخى لسرعة الحركة والتنقل التي أعطتها إياها قوتها البحرية . وفي مجلس الحرب الذى عقد حينما نشبت الحرب أشار اللورد "روبرتس" ، الذى استدعى من التقاعد ، بإرسال قوة التجريدة البريطانية الى ساحل البلجيك — حيث كانت تزيد المقاومة البلجيكية صلابه . وكانت مجرد الموقف الذى تتخذه تهدد الجناح الخلفى للجيش الألمانية أثناء زحفها مجتازة "بلجيكا" الى فرنسا . على أن الجنرال "هنرى ولسون" بصفته مديرا للعمليات الحربية كان قد أعطى وعدا عن هيئة أركان الحرب العامة لأن تعمل بالتعاون مع الفرنسيين مباشرة . فقد مهدت المفاوضات العسكرية غير الرسمية التى جرت بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٤ السبيل لقلب السياسة الحربية العتيقة التى اتبعتها إنجلترا منذ أجيال .

وهذا « الأمر الواقع » لم يتغلب على الفكرة الاستراتيجية التى أبداهها "روبرتس" فحسب ، بل تغلب أيضا على رغبة "هايج" فى إرجاء أزال الجنود الى البر حتى يصبح الموقف أكثر وضوحا ، وحتى على اعتراض "كتشنر" ذلك الاعتراض الذى اقتصر على تجمع قوة التجريدة مقربة من الفرنسيين ومن الحدود بهذه الدرجة .

وكانت الخطة الفرنسية المنقحة هى الشئ الوحيد الذى يجعل الخطة التى وضعها "الجرفاف فون شليفن" فى سنة ١٩٠٥ اقترابا غير مباشر حقيقة . فلما وجد الألمان أنفسهم أمام سور من القلاع التى أقامها الفرنسيون على حدودهم أصبح الطريق العسكرى أمامهم ، الذى يقضى به المنطق ، هو الدوران حول هذه القلاع — عن طريق "بلجيكا" . فقد صمم "شليفن" على انتهاج هذا السبيل والابتعاد عن القلاع الفرنسية بقدر الامكان . ومن الغريب أن القيادة

الفرنسية ، حتى حينما غزيت البلجيك في شهر أغسطس سنة ١٩١٤ ، ما كانت تعتقد أن
الالمانيين ينفذون الا من أقصر طريق ، أى جنوبى نهر "الموز". أما خطة "شليفن" فقد
كانت حشد سواد القوات الألمانية على الجناح الأيمن لتدور هذه الدورة الهائلة . فكان
المقرر أن يكتسح الجناح الأيمن "بلجيكا" من أولها الى آخرها وفرنسا الشمالية ويستمر في قطع
قوس متسع ثم يدور تدريجيا نحو الشرق . ولما تمر منتهى ميمنة هذا الجناح بجنوبى "باريس"
وتعبر نهر "السين" بالقرب من "روين" فانها تصدّ الفرنسيين وترجعهم نحو نهر "الموزيل"
فيقعون بين المطرقة والسندان الذى وراءهم المكوّن من قلاع "اللورين" وحدود
"سويسرة" .

على أن المهارة الحقيقية في هذه الخطة وكونها غير مباشرة ليست في الدورة الجغرافية ولكنها
في الفكرة التى أملت توزيع الجنود . فقد كان القصد الحصول على مفاجأة افتتاحية بادمج
فبالق احتياطية بالفيالق العاملة في الكتلة القائمة بالحركات العرضية ، من أول الأمر ، فمن الفرق
التي بلغ عددها بعد هذا الادمج ٧٢ فرقة ، خصصت ٥٣ فرقة لكتلة الدوران . ووضعت
عشر فرق مقابل "فردون" لتكون محورا للدوران . ولم يترك للجناح الأيسر على طول الحدود
الفرنسية سوى تسع فرق . وانقاص الجناح الأيسر على هذه الصورة الى أصغر حجم ممكن
كان نتيجة حساب يشف عن المهارة والدهاء ، يزيد تأثير الكتلة الدائرة بسبب ضعفه .
لأن الفرنسيين المهاجمين في "اللورين" اذا ضغطوا الجناح الأيسر وأرجعوه نحو نهر "الرين"
تعذر عليهم صد الهجوم الألماني الآتي من خلال البلجيك . ولما تقدموا ازدادت مصاعبهم
فمثل موقفهم كمثل باب دائر حول محور له اذا ضغط الانسان بشدة على أحد جانبيه دار جانبه
الآخر حول الانسان وصدمه من وراء . وكلما ازداد ضغطه كلما اشتدت الضربة . فمن
الوجهة الجغرافية كان حجم القوات الهائل بالنسبة لسرح العمليات يجعل حركة "شليفن" باختراقها
بلاد البلجيك حركة اقتراب استراتيجي غير مباشر بمقدار محدود . أما من الوجهة المعنوية
(النفسية) فكان التصميم الذى وضعه لتوزيع القوة في الجناح الأيسر يجعل الاقتراب غير مباشر
بصورة قطعية . ثم جاءت الخطة الفرنسية بفعلته بالغأ حد الكمال . فاذا استطاع روح في عالم
الأرواح أن يضحك في سره فما أخرى راح "شليفن" الراحل أن يملكه الضحك حينما يرى
أن الفرنسيين لم يكونوا في حاجة الى من يستدرجهم الى الشرك الذى نصبه لهم . غير أن ضحكه
لا بد أن ينقلب سريعا الى غضب . لأن خلفه "مولتكه" — (الصغير) اسما ولكنه الأكبر
من حيث الحذر — ترك خطة "شليفن" أثناء التنفيذ كما سبق له أن عدلها وأفسدها في
الاستعدادات التي اتخذت قبل الحرب .

فانه في الفترة ما بين سنة ١٩٠٥ - ١٩١٤ لما كثرت الجنود زاد قوة الجناح الأيسر
بما لا يتعادل مع نسبته للجناح الأيمن . فلما زاده تأمينا جعل الخطة غير آمنة . ثم شرع ينخب
في أساسها نخباً مستمرا الى أن انهارت .

فلما تطورت الحركات التعرضية الفرنسية في أغسطس سنة ١٩١٤ استهوى تطورها "مولتكة" فقبل التحدى بطريقة مباشرة ساعيا الى حصول حسم في "اللورين" مرجحا دورة الجناح الأيمن . فلم ينتج ذلك الا تأثيرا وقتيا . ولكنه في هذه الفترة القصيرة كان قد حول الى "اللورين" ست فرق احتياطية شكلت حديثا كان ينبغي ارسالها الى جناحه الأيمن تعزيزا لقوته . وهذه الزيادة الجديدة جعلت الأمراء المتولين القيادة في "اللورين" يزدادون أنفة من تنفيذ دورهم المكلفين به الذى يتطلب منهم ضبط النفس . فان البرنس "روبريخت" أمير "بافاريا" بدلا من أن يستمر في التفهقر ويحمر الفرنسيين وراءه أوقف جيشه واستعد للاشتباك في معركة . ولما رأى الهجوم الفرنسى مبطلا في تطوره اتفق مع جاره على أن يتندراه بهجوم منهما . وكان الجيشان يتألفان اذ ذاك من ٢٥ فرقة مقابل ١٩ فرقة فكان ينقصهما التفوق والموقع الاستراتيجي ليجعلا الضربة المضادة حاسمة . فكانت النتيجة مجرد ارجاع الفرنسيين الى حدودهم المحصنة . وبذلك لم يستعيدوا قوة مقاومتهم وزيادتها لحسب ، بل انهم تمكنوا من ارسال جنود نحو الغرب لمعركة "المارن" .

فاعمال الألمان في "اللورين" أفسدت خطة "شليفن" أكثر مما أفسدها انقاص قوة الجناح الأيمن والدور الذى كان مقررا له وان كان ذلك الافساد بصورة أقل وضوحا . وعلى كل حال فمن هنا جاء السبب المباشر لانتهاء . فقد أخذ "مولتكة" سبع فرق من الجناح الأيمن لحصار "موبوج" و "جيفيت" و "انتورب" أو لحراستها . ثم أخذ أربع فرق لتقوية جبهة بروسيا الشرقية . وعند ما دار جيش "كلوك" الكائن في منتهى الميمنة الى الداخل قبل الأوان ، بناء على طلب جاره وبترخيص "مولتكة" ، وبدورته أعطى حامية باريس فرصة لضربه من الجنب ، كان الواقع ، وهو أن الفرق الألمانية التى كانت موجودة اذ ذاك ١٣ فرقة بقابلها ٢٧ فرقة فرنسية — بريطانية على ذلك الجنب الحاسم ، يبين بأجلى صورة الكيفية التى أضعف بها (جناح "شليفن" الحاسم) — مباشرة وغير مباشرة . لأنه اذا كان ضعف الألمان ناشئا عن انقاص قوة الجناح الأيمن ، فان تفوق الفرنسيين كان ناشئا عن عمل الجناح الألماني الأيسر الذى لم يكن على شئ من حسن التدبير .

ومع أن معركة "المارن" عبارة عن اجتياز الحد المبهم الكائن بين الاستراتيجية والتكتيك فان تلك الفترة التى تغيرت فيها حالة الحرب تلقى كثيرا من الضوء على مسألة "الاقتراب" . فهى جديرة بالفحص . ولكي تنعكس هذه الأضواء لا بد لها من صفحة تنعكس عليها هى الحوادث التى وقعت .

فارتداد جناح "جوفر" الأيمن في "اللورين" أعقبه تفهقر قلبه (أى منتصف جيشه) وطرده لابلوى على شئ في مقاطعة "الأردن" ، ثم نجاة جناحه الأيسر بكل صعوبة من كارثة الاحاطة به بين نهري "السامر" و "الموز" بعد أن كان متأخرا في انتشاره . فلما أخفقت

الخططة "السابعة عشرة" وتقطعت أوصالها كَوْن "جوفر" خطة جديدة من الانقراض . فاستقر رأيه أن يدور بمسيرته وقلبه الى الوراء متخذا "فردون" مركز الدوران أى المحور، بينما يسحب جنودا من ميمته الممزقة ليشكل منها جيشا سادسا جديدا يجعله على ميسرته .

أما عند الألمان فإن التقارير الأولى المنعقة التي أرسلها قادة الجيوش الى القيادة العليا الألمانية عن المعارك التي وقعت على الحدود كانت قد أدخلت في روعها أنها قد انتهت بنصر حاسم . وبعد ذلك لما رأى "مولتكه" أن عدد الأسرى كان قليلا نسبيا داخله الشك وأخذ يقدر الموقف تقديرا أكثر رصانة . فهذا التشاؤم الذى أبداه "مولتكه" حديثا ، باشتراكه مع إعادة التفاؤل الذى أبداه قادة الجيوش أوجدا خطة جديدة ، غير الأولى ، كانت تحمل في ثناياها بذور الكارثة . فعند ما تفهقر الجناح الأيسر البريطانى في ٢٦ أغسطس من "لوكاتو" بعد أن تضعضع ، اتجه جيش "كلوك" الأول نحو الجنوب الغربى مرة أخرى . وهذا الاتجاه وإن كان سبب اتخاذ إساءة فهم خط الرجعة الذى اتخذته البريطانيون ، من جهة ، فإنه كان مطابقا لحركة "كلوك" الأصلية أيضا التي هى الدوران على دائرة متسعة كاسحة . فلما أوصله الى داخل الساحة الواقعة بين "أميان" و "بيرون" حيث كانت العناصر الأولى من الجيش الفرنسى السادس الذى تشكل حديثا ، آخذة في النزول من القطارات بعد "تحويلها" من "اللورين" . اضطر الجيش السادس لأن ينسحب على وجه السرعة . وبذا تخرج تصميم "جوفر" وهو استئناف التعرض قريبا .

غير أن "كلوك" ما كاد يدور نحو الجنوب . العربى حتى اضطر أن يدور الى الداخل ثانيا . لأن "جوفر" لكي يخفف الضغط عن البريطانيين كان قد أمر الجيش المجاور له (جيش "لانريزاك") بالوقوف وتوجيه ضرباته الى الوراء نحو الجيش الألمانى الثانى (جيش "بولو") الذى كان يتعقب البريطانيين . فلما أثر هذا التهديد في "بولو" استعان "بكلوك" . ولما هجم "لانريزاك" في ٢٩ أغسطس أوقف هجومه "بولو" قبل أن يحتاج الى المساعدة ولكنه بالرغم من ذلك طلب من "كلوك" أن يدور لكي يقطع على "لانريزاك" رجعه . وقبل أن يلبي "كلوك" هذا الطلب عرض الأمر على "مولتكه" . ووصل هذا الطلب الى "مولتكه" في اللحظة التى بدأ فكره فيها يرتبك من جراء الحالة العامة بسبب الطريقة التى كان الفرنسيون ينفذون بها من بين ذراعيه . وخصوصا من جراء الفتحة التى تواجدت بين الجيش الثانى والثالث . ولهذا السبب صرح "مولتكه" "بكلوك" بأن يغير اتجاهه وهذا معناه التخلي عن حركة الدوران الواسعة الأصلية التى تدور حول الجانب الأبعد من "باريس" . أما الآن فإن جناح الخط الألمانى الدائريمر بالجانب الأقرب من باريس وأمام وجه دفاعات باريس فقد ضحى "مولتكه" بالأمال الواسعة التى تنطوى عليها الدورة الواسعة المرسومة في خطة "شليفن" في سبيل السلامة . بأن قصر جبهته وضمتها وجعل اقترابه أكثر مباشرة . وكانت النتيجة أنه بدلا من أن يقلل الخطر جلب على نفسه ضربة مضادة مميته .

فحصل البت في التخلي عن الخطة الاصلية بصورة قطعية في ٤ ديسمبر واستعاض عنها "مولتكة" باحاطة القلب والميمنة الفرنسيين في نطاق أضيق . فكان على قلبه هو أى جيشي الوسط (الرابع والخامس) أن يضغطا جنوبا فشرقا ، بينما تقوم ميسرته (الجيشان السادس والسابع) بتوجيه ضرباتها جنوبا فغربا محاولة اختراق المنطقة المستحكمة التي كانت حاجزا قائما بين قلعتي "تول" و "إينال" . وبهذه الكيفية ينطبق "الفكان" الى الداخل على جانبي "فردون" وفي نفس الوقت تدور ميمته (الجيشان الأول والثاني) الى الخارج وتتجه نحو الشرق لتصد أية حركة مضادة يحاول الفرنسيون القيام بها من جوار باريس .

على أن هذه الحركة المضادة كانت قد بدأت قبل ما تحدث هذه الخطة الحديثة أثرها .

فلاحت هذه الفرصة لا أمام "جوفر" الذي كان قد أمر بموالة التفهقر ، ولكن الذي أدركها هو "غاليني" محافظ باريس العسكري . ففي ٣ سبتمبر أدرك "غاليني" معنى دوران "كلوك" الى الداخل ، فوجه الجيش السادس تحت قيادة "مونوري" للاستعداد لا تزال ضرباته بالجنح الألماني الأيمن المكشوف ، وفي اليوم التالي تحصل على تصريح بذلك من "جوفر" بكل صعوبة . ولما اقتنع "جوفر" حتى أخذ يعمل بحزم وعزم . وصدر الأمر الى كل الجناح الأيسر بالانقلاب والعودة الى الحركات التعرضية العامة ابتداء من ٦ سبتمبر . أما "مونوري" فكان قد سبق الى العمل في الخامس من سبتمبر . ولما ازداد ضغطه على الجناح الألماني الحساس اضطر "كلوك" لأن يسحب جزءا من جيشه ثم اتبعه ببقية الجيش لمعاونة حرسه الجنبي المهدد . وبذلك تواجدت فتحة بين الجيشين الأول والثاني اتساعها ٣٠ ميلا . وهذه الفتحة لا يسترها سوى ستار من الفرسان . أما الذي جراً "كلوك" على هذه المجازفة فهو تفهقر البريطانيين بسرعة أمام هذا القطاع الخالي . فحتى في يوم ٥ سبتمبر استمر البريطانيون في سيرهم نحو الجنوب لمدة يوم كامل بدلا من أن ينقلبوا راجعين . غير أن هذا "الاختفاء" كان هو سبب النصر وهو سبب غير مباشر وجاء عن غير قصد . فان البريطانيين حينما انقلبوا راجعين كان خبر زحف قولاتهم على الفتحة السبب الذي أدى "بيولو" لأن يصدر أمره بتفهقر الجيش الثاني في ٩ سبتمبر . فزال ذلك الميزة الوقتية التي كان الجيش الأول قد حصل عليها ضد "مونوري" بعد أن تحول عن عمله الأصلي وانفصل عنه ، فتفهقر في نفس ذلك اليوم . وفي يوم ١١ سبتمبر كان التفهقر قد شمل كل الجيوش الألمانية إما باستقلال كل منها عن الآخر ، وإما بأوامر "مولتكة" . وكانت محاولة القيام بحركة احاطة جزئية محورها "فردون" قد أخفقت وحطم الفك المكون من الجيشين السادس والسابع أسنانه في دفاعات (استحكامات) الحدود الفرنسية الشرقية . ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف ساغ للقيادة الألمانية ، عقلا ، أن تعتمد على احرار اقتحام جهى بتدبير وقتي اتخذ على عجل ، مع أن الحساب الهادئ الذي عمل قبل الحرب قد أبان لهم خطره لدرجة أدت بهم لأن يتخذوا ذلك القرار العظيم الخطر وهو قرار الزحف عن طريق "بلجيكا" لأنه الطريق الآخر الممكن .

ومجمل القول ان الذى بت فى مصير معركة "المارن" هما صدمة وشق . فالصدمة كانت بهجوم "مونورى" على الجناح الأيمن الألمانى فتسبب عنها شق فى نقطة ضعيفة فى الخط الألمانى هى نقطة اتصال جيشين . وهذا الشق المادى تولد عنه شق معنوى فى القيادة الألمانية .

والذى نلاحظه أمام تلك الوقائع هو أن حركة "كلوك" غير المباشرة ، وهى دورته الى الخارج ، بعد "لوكاتو" كان لها قيمتها فى احباط خطة "جوفر" الثانية — وهى العودة سريعا الى اتهاج الحركات التعرضية . وفى ازدياد سرعة قوة الدفع الخطرة الناشئة من تقهقر الفرنسيين والبريطانيين . كما كانت دورته الى الداخل ، التى جاءت على أثر ذلك ، خطرا عظيما على الخطة الألمانية . ونلاحظ ، ثانيا ، أن اقتراب "مولنكه" الاستراتيجى صار يزداد استقامة (أى يصير مباشرا) وأن الافتحام الجبهى الذى قام به الجناح الأيسر الألمانى لم يقتصر على الفشل الذى كلفه خسائر ، بل انه لم يأت بنتيجة استراتيجية تعوض ما أصابه من الخسائر .

والقول بأن تقهقر "جوفر" كان اقترابا غير مباشر لا يخلو من المبالغة . فان فرصة معركة "المارن" جاءت عفوا ، فلم تخلق ، حتى ولم يسع فى خلقها أحد . أما هجوم "غالبى" فجاء فى الوقت المناسب ، قبل أن يتمكن الجيشان الألمانيان الأول والثانى من اتخاذ أوضاع جديدة لحراسة الجناح . ولكنه كان مباشرا بدرجة كبيرة جدا لا يستطيع معها الحصول على نتائج حاسمة . وكان يكون مباشرا بدرجة أكبر لو أنه وقع جنوبى نهر "المارن" طبقا لتعليمات الأولى التى أصدرها "جوفر" . وأخيرا ترى أن الجسم الحقيقى أى الحركة التى اضطرت الألمان لأن يتقهقروا ، وان كانت لا تزيد عن ذلك ، كان سببها "اقتراب غير مباشر" جاء على غير قصد فى صورة فصل مسرحى محض . ذلك هو "اختفاء" قوة التجريدة البريطانية ثم ظهورها ثانيا ، الذى حصل متأخرا لحسن الحظ ، أمام نقطة اتصال الجناح الأيمن الألمانى التى لاقت من الشدة ما لاقت وحل بها الضعف . وقد لامها نقاد الفرنسيين على ذلك التأخير وقتهم أنه جاء بدليل بديع على صدق خرافة الأرنب والسلحفاة وان كان من نوع آخر . فلو أنها أسرع فى العودة لما وجدت نقطة الاتصال بهذا الضعف . وما كان فى امكان هجوم "مونورى" أن يأتى بالجسم لأنه كان قد وقف قبل ذلك ، بينما كان الفيلقان الألمانيان المأخوذان من نقطة الاتصال لا يزالان سائرين ولم يشتركا فيما حصل .

وفى تحليلنا أسباب تقهقر الألمان لابد لنا من مراعاة عامل كان المعتاد اهماله وعدم مراعاته . ذلك هو الشعور الذى تواجد لدى القيادة العليا بسبب الأخبار الواردة من انزال جنود على الشاطئ البلجيكي واحتمال تهديدها لمؤخرتهم ومواصلاتهم . وهذا الشعور أدى بهم لأن يفكروا فى الانسحاب حتى قبل أن تبدئ معركة "المارن" . فان القائم مقام "هنش" ممثل القيادة العليا ، حضر الى الجيش الأول فى يوم ٥ سبتمبر بآخر أمر صدر لاتخاذ الحطة

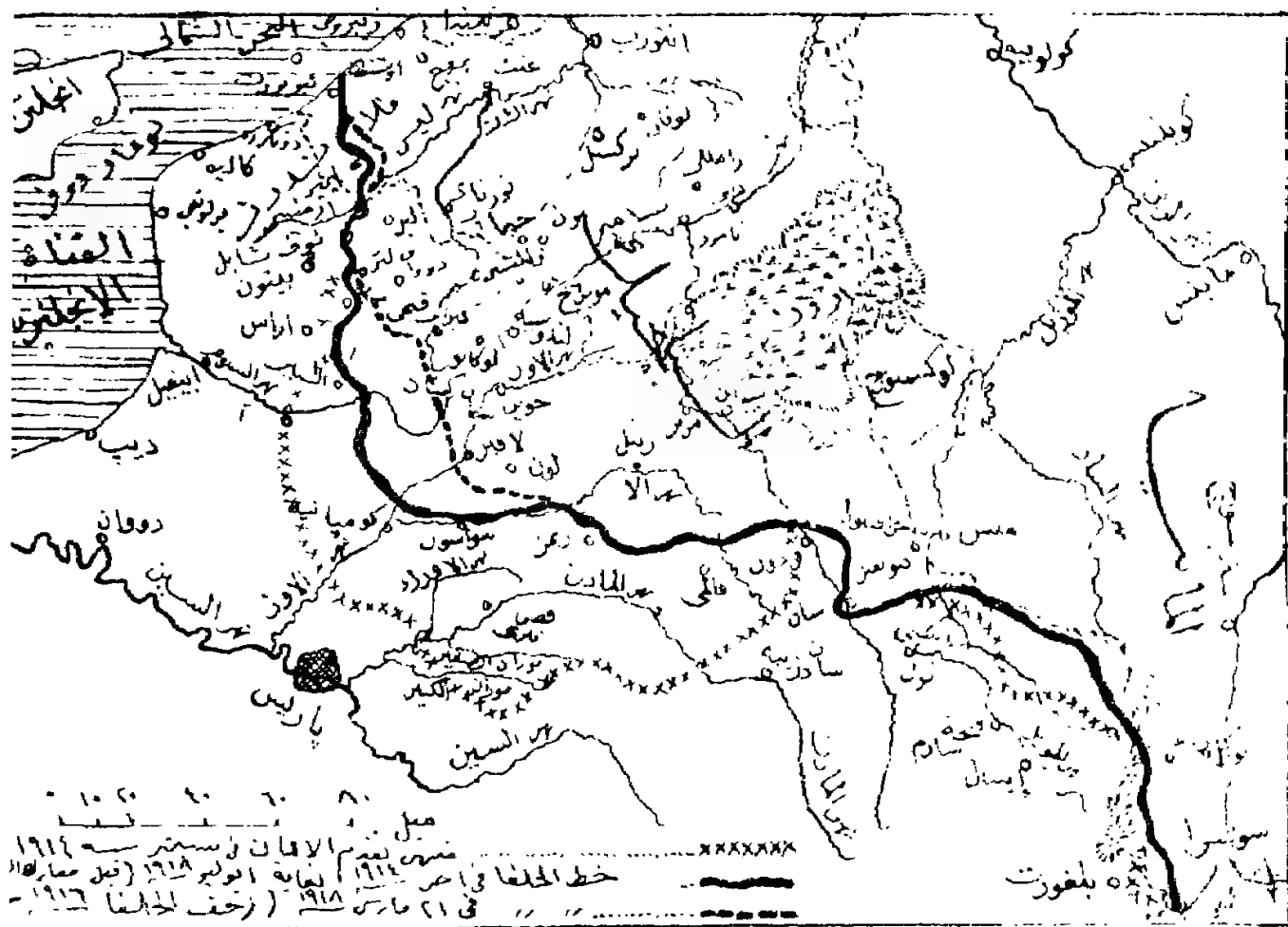
وأعلمه بأن : ” الأخبار رديئة ، وأن الجيشين السابع والسادس أوقفنا أمام ” نانسى “ و” إيدال “ . وأن الجيشين الرابع والخامس يلاقيان مقاومة قوية . والفرنساويون يشحنون جنودا بالسكة الحديدية من ” ميتهم نحو باريس “ . وأن الانجليز سينزلون جنودا جديدة الى البر على الدوام ، ولا شك فى أنهم ينزلونها على الشاطئ البلجيكي . وهناك إشاعات بقدم تجرية روسية الى هذه الجهات . فالانسحاب سيصير أمرا لا بد منه “

فان حدة حساسية القيادة الألمانية ضاعفت عدد جنود ثلاث أورط من الجنود البحرية نزلت الى البر فى ” أوستند “ لمدة ٤٨ ساعة فجعلتها فليقا قوامه ٤٠.٠٠٠ جندي . ويقال ان فكرة الروس أوجدها مخيلة رجل انجليزى وظيفته حارس فى السكة الحديدية — فيجب أن يقام تمثال فى ” هرايت هول “ ” للمارس المجهول “ ومؤرخو المستقبل لهم أن يعتبروا جماعة هؤلاء الزوار الذين زاروا ” أوستند “ زيارة وقتية ، وخرافة الروسيين ، السبب الأصلي فى الانتصار فى معركة ” المارن “ .

ففى روعى التأثير الأدبى الذى أحدثته هذه القوات الخيالية ، مع حجز قوات ألمانية فعلا فى البلجيك خشية قيام البلجيكيين بحركة خروج من ” انتورب “ ، وهذه الحركة تطورت فى يوم ٩ سبتمبر ، فالذى يلوح هو أن ميزان الرأى تنقل كفته كثيرا فى جانب الاستراتيجية التى أوصى بها ” روبرتس “ على غير طائل والتى لو اتبعت لكان من الممكن أن يكون لقوة التجريدة البريطانية أثرا إيجابيا حاسم فى النضال لا مجرد أثر سلبي .

وكان ” فالكهناين “ الذى حل الآن محل ” مولتكه “ يقدر التهديد الخفى الآتى من الساحل البلجيكي الى مؤخرة الألمان حق التقدير دائما . فكانت أول خطوة خطاها هى اخضاع ” انتورب “ ومنها تولدت بذور مناورة فيها رائحة الاقتراب غير المباشر . ومع ان تنفيذها لم يبلغ الدرجة التى بلغها ابتكارها وكان تنفيذها أكثر استقامة (أى الحركة المباشرة) من الابتكار ، فقد كانت كافية لأن تؤدى بالحلفاء الى حافة الكارثة مرة أخرى .

أما التعقب الجبهى الذى قام به الحلفاء فكان قد أوقف قطعيا على نهر ” الاين “ قبل أن يقرر ” جوفر “ أن يشكل جيشا جديدا ويحمله تحت قيادة ” دوكلستناو “ ليقوم بحركة تجاوز الجناح (وهى حركة يقصد بها تجاوز جناح العدو تمهيدا للاتفاف حوله) . وذلك بعد أن رأى أن محاولة ” مونورى “ الانطواء على الجناح الألمانى غير مجدية (الانطواء على الجناح هى حركة يصل بها جيش أو قسم منه الى الاتصال بجناح جيش العدو من الخلف) . وفى ذلك الحين كانت الجيوش الألمانية قد استعادت اتصال بعضها ببعض وانضمامها وكانت القيادة الألمانية على استعداد لمقاومة مناورة محدودة من هذا القبيل أصبحت الآن فى خط الانتظار الطبيعى . ثم انقضى الشهر التالى فى سلسلة محاولات كانت واضحة كل الوضوح وعقيمة كل



العم قام بها كل من الفريقين لينطوى على جناح خصمه الغربى — وهى المرحلة التى سماها الجمهور خطأ "السباق الى البحر" فداخل "فالكنهاين" الممل من هذه الألوبة قبل أن يلها "جوفر" بمدة طويلة ، ووضع خطة فى ١٤ أكتوبر لشرك نصبه للحلفاء ليقعوا فيه فى محاولتهم الثانية التى تنبأ بحصولها . فخصص جيش الجناح الذى شكله حديثا ، لملافاة هذه المحاولة وانتقاها . بينما يقوم جيش آخر مؤلف من الجنود التى أتت من "انتورب" بعد سقوطها وأربعة فيالق شكلت حديثا ، باكتساح الساحل البلجيكى ، فيسحق جناح الحلفاء الهاجمين ويطويه الى الداخل ثم ينقض على مؤخرتهم ، وبلغ به الأمر أن أوقف موقنا الجنود التى كانت تتعقب جيش الميدان البلجيكى بعد خروجه من "انتورب" حتى لايزعج قيادة الحلفاء قبل الأوان .

ولكن لحسن الحظ أبى الملك "ألبرت" أن يلبى دعوة "فوش" له لأن يشترك فى هذا المجهود الأخير وهو السعى ليجاوز جناح العدو ، وامتنع عن مبارحة ناحية الساحل ، ملهما فى ذلك بالتزام الحذر أو بمراعاة الحقائق المسادية . ولهذا السبب أصبح الجيش البلجيكى فى موقف يستطيع فيه مقاومة حركة الاكتساح الألمانية الآتية من الشمال . وفى آخر الأمر استطاع احباطها باغراق الشقة المنخفضة من الشاطئ باطلاق المياه عليها . وهذا اضطر "فالكنهاين" لأن يقوم باقتراب أكثر استقامة فى اتجاهه نحو جناح الحلفاء الذى كان قد امتد حديثا حتى "اير" بوصول فيلق هايج من نهر "الين" ومع أن الزحف الذى حاوله البريطانيون الذين وصلوا أولا ، أى الميمنة والقلب ، كان قد أعيق فان السير "جون فرنش" أمر الميسرة أى "هايج" بأن يحاول تحقيق حلم "جوفر" وهو تجاوز جناح العدو . ولحسن الحظ أيضا اتفق وقوع هذه المحاولة فى الوقت الذى افتتح فيه الألمان هجومهم الذى كان قبل الأوان فخابت فى مبدأها . ولو أن "فرنش" بقى وانتقا بهذا "الهجوم" تحت تأثير "فوش" لمدة يوم أو يومين بينما كانت جنود "هايج" تلاقى مشقة زائدة حتى فى المحافظة على أمانكها . فان أوهام الرؤساء الفرنسيين والبريطانيين فيما يختص بحقيقة الموقف ربما كان يرجع اليها بعض الأسباب التى جعلت معركة "اير" كمعركة "انكرمن" "معركة جنود" فى جوهرها . ثم ان "فالكنهاين" أيضا بمجرد ماخاب أمله فى اكتساح الساحل بقى مصرا لمدة شهر على محاولة ارغام الحلفاء على الفصل الحاسم ، باقتراب مباشر . ولما فاز الدفاع المباشر بالرغم من ضعفه ، على الهجوم المباشر كما هى العادة ، توطد حاجز الخنادق من حدود سويسرة الى البحر ونشأ التوقف فى الجانبين .

المسرح الغربى من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩١٧ — ان السجل العسكرى (التاريخ العسكرى) للتحالف الفرنسى — البريطانى مدة الأربع سنين التالية هو عبارة عن قصة محاولة تحطيم هذا السد ، إما باختراق الحاجز والنفوذ منه ، وإما باتهاز فرصة للغامرة بالالتفاف حوله بأى طريقة .

ففى الجهة الغربية وما احتوت عليه من خطوط متوازية من المتاريس لانهاية لها أصبحت الاستراتيجية خادمة للتكتيك . وحتى التكتيك أصبح مقيدا فالجانب الاستراتيجى فى سنى ١٩١٥-١٩١٧ لا يستدعى كثيرا من البحث . ففى جانب الحلفاء كانت الاستراتيجية استراتيجية اقتراب مباشر محض فلم يكن لها أثر فى ازالة هذا التوقف . ومهما يكن رأينا فى قيمة الانهالك ، وفيما قيل من أن كل هذه المدة يجب اعتبارها بمثابة معركة واحدة مستديمة ، فان الطريقة التى تستلزم أربع سنين لاحداث حسم لا تعتبر نموذجاً يقاس عليه .

ففى "نوف شابل" اذا كان الاقتراب فى المحاولة الأولى الدقيقة التى حصلت فى سنة ١٩١٥ مباشرا ، فان المفاجأة التكتيكية على الأقل قصدت وأمكن الحصول عليها . أما بعدها فلما اتبعت طريقة "الانذار" بضرب المدافع المستطيل الأجل فقد صارت كل المحاولات عبارة عن لحظات جبهية "مكشوفة" ومن هذا النوع كان كل من التعرض الفرنسى بالقرب من "اراس" فى مايو سنة ١٩١٥ والتعرض الفرنسى - البريطانى الذى حصل فى سبتمبر سنة ١٩١٥ فى "شامانيا" شمالى "اراس" وفى يولييه ونوفبر سنة ١٩١٦ على نهر "السوم" وفى أبريل سنة ١٩١٧ على نهر "الين" وفى "اراس" . وأخيرا التعرض البريطانى فى "إير" من يولييه الى أكتوبر سنة ١٩١٧ الذى استغرق مثل الملك شارلس الثانى "زمناً طويلاً فى موته" فى مستنقعات "باشنديل" وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٧ أعيدت المفاجأة التكتيكية الى الحياة باستخدام كتل الدبابات التى انطلقت بجأة بدلا من ضرب المدافع التمهيدى الطويل الأجل . على أن هذا الهجوم الصغير الذى ابتداء بحسن الطالع وانتهى سىء الطالع لا يستحق اسم اقتراب غير مباشر من الوجهة الاستراتيجية .

أما فى الجانب الألمانى فقد كانت الاستراتيجية دفاعية محض ، الا فى فترة "فردون" فى سنة ١٩١٦ وهذه أيضا كانت اقترابا مباشرا فى جوهرها ، الا اذا كانت فكرة استتراف دم العدو الى أن يموت . بواسطة سلسلة من الديدان التى تمتص الدماء تستحق اسم ، غير مباشر . ولكن الاسراف فى بذل الديدان أدى الى الافلاس منها .

والذى يقرب من نوع الاقتراب غير المباشر ، ولكنه دفاعى محض فى غايته ، هو ما فعله "لودندورف" من سحب جزء من الجنود الألمانية الى خط "هندنبورج" فى ربيع سنة ١٩١٧ الذى دل على مقدرة فى التفكير والتمهيد . فلكى يستبق الحوادث ويبادر بالاستعداد لملاقاة التعرض الفرنسى - البريطانى حينما يستأنف على نهر "السوم" ، أمر باقامة خط جديد من الخنادق على وتراقوس المكون من "لتر - نويون - ريمز" قواه تقوية صناعية عظيمة . وبعد أن أُنْظِف كل شىء فى كل الساحة الواقعة داخل هذا القوس انسحب بطريقة نظامية

الى الخط الجديد الذى كان أقصر من سابقه متفلا مرحلة مرحلة . فهذه المناورة التى امتازت بالشجاعة الأدبية أثناء التخلي عن الأراضى ، زحزحت خطة الحلفاء الموضوعة للتعرض فى فصل الربيع ، من أساسها . وبهذه الوسيلة اكتسب الألمان فرصة سنة قضوها بمنجاة من الأخطار ومن حركات الحلفاء التعرضية المشتركة . وفى هذه المدة تم انحلال روسيا وتمكن "لودندورف" من بذل مجهوده السامى فى طلب النصر فى سنة ١٩١٨ بقوة متفوقة .

الباب الثانى عشر

المسرح الشمالى الشرقى

فى الجهة الشرقية كانت خطط الحملة أكثر تقلباً منها فى الجهة الغربية وأقل اتقاناً ووضوحاً — وإن كانت مناظرها متعددة الصور والأشكال يتحول فيها طالع الحرب من جانب إلى جانب كما حصل فى الميدان الغربى والعامل الذى يمكن حسابه فيها هو العامل الجغرافى . أما العامل الرئيسى الذى لا يمكن حسابه فهو معدل احتشاد القوات الروسية . ثم إن بولندا الروسية عبارة عن لسان من الأراضى متسع بارز من بلاد روسيا الأصلية ومحاط من أجنابه الثلاثة بأراضى ألمانية أو نمساوية . فعلى جانبه الشمالى تقع بروسيا الشرقية ووراءها بحر "البلطيك" وعلى جانبه الجنوبى يقع الاقليم النمساوى "غاليسيا" ووراءه جبال "الكربات" تحرس طرق الاقتراب (الموارد) الموصلة إلى بلاد المجر . وعلى الجهة الغربية تقع "سليسيا" ولما كانت الأقاليم الجرمانية الواقعة على الحدود مجهزة بشبكة من السكك الحديدية الاستراتيجية . فى حين أن بولندا مثل روسيا، لم يكن لديها إلا القليل من وسائل المواصلات ، فإن التحالف الجرمانى كانت له ميزة حيوية فى قوة الاحتشاد يقابل بها الزحف الروسى . ولكن إذا انتهج هذا التحالف خطة التعرض فإنه كلما توغل فى بولندا أو فى روسيا ضاعت منه هذه الميزة . ومن ثم فإن التاريخ يستدل منه على أن أكثر الطرائق الاستراتيجية مغنا لهم هى استدراجهم للروس حتى يتقدموا إلى موقع يتخذونه فيقابلونهم فيه بضربة مضادة بدلاً من التزامهم هم خطة تعرضية على أن العيب الوحيد هنا هو أن مثل هذه استراتيجية التى لا وثوق بها تتيح للروس الوقت الكافى للاحتشاد ثم تسير ألهم الثقيلة المتعبة التى علاها الصدا .

ومن ذلك نشأ تشعب فى الآراء بين الألمانين والنمساويين . فهم متفقون فى مسألة صد الروسين وتوقيفهم مدة الستة الأسابيع التى كان يأمل الألمان أن يسحقوا فيها فرنسا . وبعد أن يسحقوا فرنسا يحولون قواتهم وينقلونها إلى الشرق لتنضم إلى النمساويين وتشترك معهم فى القيام بضربة حاسمة ضد الروسين . أما اختلاف الآراء فكان فى طريقة التنفيذ . فالألمانىون كانوا قد عقدوا النية على الحصول على حسم ضد فرنسا وأرادوا أن يتركوا فى الشرق أصغر قوة مستطاعة . ولم يمنعهم من إخلاء بروسيا الشرقية ووقوفهم على خط نهر "الفستولا" إلا بغضهم لسياسة تعريض أراضى الوطن للغزو . أما النمساويون فكانوا تحت تأثير "كونرادفون هويتسندورف" رئيس هيئة أركان الحرب العامة ، يريدون أن يخربوا الآلة الروسية بالتهاج

خطة التعرض فورا . ولما كان ذلك يشغل الروسيين ويلهمهم مدة الحصول على الحسم في حملة فرنسا رضى "مولتكه" بهذه الاستراتيجية . أما خطة "كونزاد" فكانت تنطوى على القيام بحركات تعرضية نحو الشمال — الشرق في بولندا بجيشين اثنين يحميها جيشان آخران على يمينها وشرقيهما .

وكذلك لدى الفريق الآخر كانت رغبة احدى الحليفتين ذات تأثير حيوى على استراتيجية الأخرى . أما القيادة الروسية فلا سباب عسكرية وأخرى جنسية (خاصة بأجناس الأقوام) كانت ترغب أن تحشد قوتها ضد النمسا أولا ، حينما تكون النمسا منفردة لا يعصدها أحد ، وترك ألمانيا وشأنها الآن الى أن تتم تعبئة قوة الجيش الروسى بأكملها . غير أن الفرنسيين رغبة منهم فى تخفيف الضغط الألمانى عن أنفسهم ، ألحوا على الروس أن يقوموا فى نفس الوقت بهجوم على ألمانيا ، وأرضوا الروس لأن يقوموا بتعرض اضافى ليسوا على استعداد له لا من حيث عدد الجنود المطلوبة ولا من حيث تنظيمها . ففى الجبهة الجنوبية الغربية كان عليهم أن يرسلوا زوجين من الجيوش كل زوج منهما يحتوى على جيشين تتلاقى كلهما على القوات النمساوية فى غاليسيا . وفى الجبهة الشمالية — الغربية كان عليهم أن يرسلوا جيشين ليلتقيا معا ويطبقا على القوات الألمانية فى بروسيا الشرقية . فالروسيا التى كان بطؤها وسخافة تنظيمها اللذان هما مضرب الأمثال يقضيان عليها بانتهاج استراتيجية قائمة على الحذر والحيلة ، كانت على وشك العدول عن تقاليدها والاندفاع فى اقتراب مباشر مزدوج . ولما نشبت الحرب أسرع الفراندوق "نيقولاس" ، القائد العام الروسى ، بغزو بروسيا الشرقية تخفيفا للضغط عن حلفائه الفرنسيين . وفى ١٧ أغسطس اجتاز جيش "رننكامف" (المؤلف من ست فرق ونصف فرقة وخمس فرق من الفرسان) الحدود الشرقية لبروسيا الشرقية . وفى يومى ١٩ و ٢٠ أغسطس التقى بالقسم الأعظم من الجيش الثامن الألمانى (سبع فرق وفرقة من الفرسان) تحت قيادة "پرويتس" فى "جومينين" وصدته الى الوراء . وفى ٢١ أغسطس سمع "پرويتس" أن جيش "سمسونوف" (١٠ فرق و ٣ فرق من الفرسان) قد عبر الحدود الجنوبية لبروسيا الشرقية على مؤخرته التى كان يحرسها جند لايزيد على ثلاث فوق . فوقع فى ارتباك جعله يتكلم فى ذلك الحين عن التفهقر الى ماوراء نهر "الفيستولا" وتسبب عن ذلك أن استبدله "مولتكه" بقائد متقاعد هو الجنرال "هندنبورج" ومعه "لودندورف" كرئيس لهيئة أركان الحرب .

فقام "لودندورف" بالبناء والتوسع فى خطة كان وضعها الكلونيل "هوفمان" من أركان حرب الجيش الثامن وبدأها بالحركات اللازمة . وحشد نحو ست فرق أمام جناح "سمسونوف" الأيسر . ولما كانت هذه القوة أقل من قوة الروسيين فما كان ممكنا أن تكون حاسمة . ذير أن "لودندورف" لما رأى أن "رننكامف" مازال قريبا من "جومينين" جازف بمجازفة حسب حسابها وصحب بقية الجنود الألمانية الموجودة فى تلك الجبهة ولم يبق بها سوى ستار من الفرسان ،

ودفع أولئك الجنود بسرعة لتقابل جناح "سمسونوف" الأيمن . وساعد هذه الحركة الجريئة انعدام المواصلات بين القائدين الروسيين ، والسهولة التي كانت الألمان يفكون بها الغارات الاصطلاحات الروسية اللاسلكية في أوامرهم ، وفهمها . وكانت النتيجة أن سمحت أجنحة "سمسونوف" تحت الضربات التي انصبت عليها من جهات مختلفة ، وأحيط قلبه (أى منتصف جيشه) وأببد جيشه فعلا . وإذا كانت هذه الفرصة عرضت من تلقاء نفسها ولم يسع أحد لايجادها فإن هذه الحملة القصيرة الأجل ، وهى حملة "تانبيرج" يجب أن تعتبر مثالا من صورة الاقتراب غير المباشر المعروف باسم «الخطوط الداخلية» ، بالغا حد الكمال . وبعد ذلك جاء للقائد الألماني فيلقان جديدان من الجبهة الفرنسية فاتجه نحو "رنكامف" الذى كان بطيئا في حركته . وكان عدم نشاطه يرجع بعضه الى الخسائر التي تكبدها في "جومينين" وما أعقبها من قلة المعلومات . فطرده من بروسيا الشرقية . وقد خسرت روسيا ربع مليون من الجنود في هذه المعارك . ومقدارا كبيرا من المواد الحربية التي لا تستغنى عنها . غير أن غزو بروسيا الشرقية كان له أثر فى مساعدة الفرنسيين على «الرجوع الى "المارن"» بسبب ارسال فيلقين من الغرب .

ولكن تأثير "تانبيرج" نقص بسبب ما حصل في جبهة "غاليسيا" اذ شالت فيها كفة دول الوسط . ثم ان الحركات التعرضية التي قام بها الجيشان النمساويان الأول والرابع في "بولندا" صادفت تقدما في بادئ الأمر ولكن ذلك التقدم زال أثره عند ما اندفع الجيشان الروسيان الثالث والثامن هاجمين على الجيشين النمساويين الثانى والثالث اللذين كانا يحرسان الجناح النمساوى الأيمن وهما أضعف من الجيشين الروسيين . فهذين الجيشين صادفا هزيمة شديدة (في ٢٦ - ٣٠ أغسطس) ورجعا مطرودين من خلال "لمبرج" . وعلى ذلك صار زحف الجناح الأيسر الروسى مهددا لمؤخرة الجناح الأيسر النمساوى المتصر . وقد حاول "كونراد" أيضا أن يدور قسما من ميسرته ويأتى به مقابل الجناح الروسى . ولكن هذه الضربة اتقيت . وعلى أثر ذلك فاجأه الجناح الأيمن الروسى بزحفه المتجدد فى حين كانت قواته فقدت نظامها الى أن اضطر لأن يخلص نفسه فى ١١ سبتمبر بتقهقر عام ورجع متقهقرا حتى "كراكاو" بوجه التقريب فى آخر سبتمبر . والمأزق الذى تواجدت فيه النمسا اضطر الألمان لأن يدوها . فشكلوا جيشا جديدا هو الجيش التاسع من سواد الجنود الموجودة بروسيا الشرقية . وهذا الجيش تحول متجها جنوبا نحو الركن الجنوبي الغربى من "بولندا" ، ومن هناك زحف على "وارسو" (فرسوفيا) بالاشتراك مع النمساويين الذين جددوا حركاتهم التعرضية . على أن الروسيين كانوا اذ ذاك قد أوشكوا أن يبلغوا أقصى درجات قوة تعبتهم . ثم أعادوا ادماج قواتهم الى مجموعات وقاموا بهجوم مضاد فصدوا الزحف وأرجعوه وأعقبوا ذلك بمجهود قوى وجهوه الى غزو "سليسيا" .

فشكل "الغردوق نيقولاس" مجنلا بلجا مؤلفا من سبعة جيوش — ثلاثة منها في المقدمة واثان لوقاية كل جناح من الجناحين . وكان جيش آخر، هو الجيش العاشر، قد غزا الركن الشرقى من بروسيا الشرقية واشتبك في القتال مع القوات الألمانية الضعيفة التي كانت هناك . فلمقابلة هذا الخطر وضعت الجبهة الألمانية الشرقية تحت ادارة الهيئة المكونة من "هندنبورج" — "لودندورف" — "هوفمان" التي ابتكرت ضربة — مقابلة أخرى تشف عن الدراية والمقدرة وكانت قاعدتها مجموعة السكك الحديدية الجانية الموجودة داخل الحدود الألمانية . وتقهر الجيش التاسع أمام زحف الروسيين وأخذ يعرقل سيرهم ويؤخره باتلاف كل ما كان موجودا من وسائل المواصلات الحقيمة في بولندا اتلافا منظما . ولما وصل الى حدود "سليسيا" دون أن يقع عليه ضغط تحول في بادئ الأمر نحو الشمال الى ساحة "پوزن" — "ثورن" . ثم اندفع الى الجنوب الشرقى في ١١ نوفمبر، صاعدا نهر "الفستولا" على شاطئه الغربى متجها نحو نقطة اتصال الجيشين الروسيين المكثفين بحراسة جناحهم الأيمن . فكان بمثابة السفين الذى يطرق بمطربة ودخل بينهما ففصل أحدهما عن الآخر وأرغم الأول على التقهقر الى "وارسو" (فرسوفيا) . وفعل بالثانى مثل ما حصل فى "تانبج" بوجه التقريب اذ كاد يحصره تماما فى "لودز" . وعندها رجع الجيش الخامس من المقدمة ليخلصه . وكانت النتيجة ان أصاب قسما من القوة الألمانية المحيطة ما كان مقدرا فى الخطة الألمانية أن يصيب الروس ولكنه تمكن من شق طريق له وعاد الى القوة الرئيسية . فاذا كان الألمان قد خاب أملهم فى الحصول على فوز تكتيكى حاسم . فان هذه المناورة كانت مثالا فنيا جديرا بالدراسة . اذ يبين كيف ان قوة صغيرة نسبيا تستطيع أن تشل زحف جيش يفوقها عددا أضعافا مضاعفة ، باستخدام خفة الحركة لاقتراب غير مباشر الى نقطة حيوية . فان الآلة « الكابسة — البخارية » الروسية قد أصابها العطب ، ولم تعد لتهديد الأراضى الألمانية مرة أخرى .

ففى ظرف أسبوع واحد وصلت أربعة فيالق ألمانية جديدة من الجبهة الغربية حيث كان الهجوم على "اير" قد انتهى بالفشل . ومع أنها وصلت بعد فوات الفرصة التى سنحت للحصول على نصر حاسم فان "لودندورف" استطاع أن يستخدمها فى الضغط على الروسيين وارجاعهم الى خط نهر "بزورا — رافكا" أمام "وارسو" . وهناك استقرت حالة الخنادق فى الشرق كما كانت فى الغرب . ولكنها كانت أقل شأنا مما فى الغرب وكان الروس قد استفزوا كل مألدهم من الذخيرة لدرجة عجزت مصانعهم السقيمة عن الاستعاضة عنها بغيرها .

وقصة ماوقع فى الجبهة الشرقية على وجه التحقيق تتلخص فيما نشأ من النزاع بين ارادتى "لودندورف" الذى أراد الوصول الى الحسم باستراتيجية كانت عبارة عن اقتراب غير مباشر من الوجهة الجغرافية على أقل تقدير، "وفالكهاين" الذى كان يرى أن فى امكانه أن يقتصد فى بذل قوته من جهة . وأن يشوه قوة روسيا التعرضية ويعجزها من جهة أخرى باستراتيجية

تنطوى على اقتراب مباشر . ولما كان "فالكنهاين" فى منصب أسمى من "لودندورف" فانه فاز بتنفيذ ارادته ولكن استراتيجيته لم تتجح فى احراز أى غرض من غرضيه . وقد رأى "لودندورف" أن زحف الروس فى فصل الخريف نحو "سليسيا" و "كراكاو" قد أوقع جيشهم فى مأزق زاوية "بولندا" الخارجة بدرجة كبيرة . حتى أنهم فى الركن الجنوبى — الغربى أطلوا برؤسهم من هذه الشبكة الى داخل الأراضى النمساوية . وفى ذلك الحين نزلت بهم ضربة "لودندورف" فى "لودز" فأصاب جيشهم بالشلل . وفى أثناء المدة التى استعادوا فيها احساسهم وقوتهم كانت أطراف الشبكة المحيطة بهم قد أعيد حبكها وتقويتها . فمن يناير الى أبريل بقى الجسم الروسى يتلوى بشدة وعنف على سفح جبال "الكربات" على غير طائل . بل ان مجهوداته لم ترده الا تغلغلا فى حبال الشبكة . وأراد "هندنبورج" و "لودندورف" و "هوفان" أن ينتهزوا هذه الفرصة للقيام بحركة اقتراب غير مباشرة واسعة النطاق بالالتفاف حول الجناح الشمالى قريبا من بحر "البلطيك" من خلال "كوفنو" و "فلنا" نحو مؤخرة الروسين بالتعارض على مواصلاتهم الحديدية القليلة مع زاوية بولندا الخارجة .

غير أن "فالكنهاين" امتنع لسببين : أولا لحرأة هذه الحركة ، وثانيا بسبب ماتتطلبه من بذل جنوده الاحتياطية مع أنه اضطر الى بذل أكثر من ذلك فى طريقته التى اتبعها . فانه لما امتنع ، بعد الالتاح ، عن محاولة القيام بحركة جديدة يحطم بها حاجز الخنادق فى الغرب ، ولما كان مضطرا لأن يمد حلفاءه النمساويين بجنود احتياطية فانه صمم على استخدام هذه الجنود بدرجة محدودة استراتيجيا وان كانت غير محدودة تكتيكا فى محاولة تعجيز الروسيا حتى يتسنى له أن يرجع لتجديد حركاته التعرضية فى الغرب دون أن يزعجه شىء .

والخطة التى وضعت للشرق التى اقترحها "كونراد" واتبعها "فالكنهاين" كانت عبارة عن اختراق القلب الروسى فى قطاع "دوناجك" بين جبال "الكربات" ونهر "الفيستولا" . وفى ٢ مايو نزلت الضربة . فكانت المفاجأة تامة ، وكان استغلالها سريعا . فلم يحل يوم ١٤ مايو حتى كان كل الخط القائم على طول جبال الكربات قد انطوى وارتد الى الوراء ٨٠ ميلا الى نهر "السان" . وهنا نشاهد مثالا واضحا منيرا للأذهان عن الفرق بين ما يسمى عادة بالمفاجأة وبين الاقتراب غير المباشر . فان المفاجأة قد حصلت من حيث الزمان ، والمكان ، والقوة . ولكن الروسين لم يصبهم أكثر من أنهم تدرجوا الى الوراء كما تتدرج كرة من الثلج . واذا كانوا خسروا خسائر فادحة فانهم ارتدوا نحو جنودهم الاحتياطية ومؤنهم وسككهم الحديدية وبذلك وطدوا كرة الثلج وضافوا اليها زيادات حلت محل ما فقد منها . وفضلا عن ذلك فان ضغط هذا الاقتراب المباشر وان كانت شدته قد بلغت درجة الخطر على القيادة الروسية الا أنها لم تكن صدمة مزعجة .

وهناك ادرك "فالكنهاين" أنه قد ورط نفسه الى حد التوغل في "غاليسيا" لدرجة لا يصح معها الانسحاب ، وأن تعرضه الجزئي لم يوصله الى مكان يأمن الوقوف فيه ، وأن لا أمل له في تنفيذ غرضه الذي يرمى اليه وهو نقل الجنود الى فرنسا الا بعد أن يأتي بجنود من فرنسا أكثر مما لديه . ولكنه بالرغم من ذلك اختار مرة أخرى اقترابا يكاد يكون مباشرا . ذلك أنه غير اتجاه الحركات التعرضية ونقله من اتجاه شرق الى اتجاه شمالي — شرق ، وأمر "لودندورف" — الذي كان ينتظر على مضض في بروسيا الشرقية — بأن يساهم في هذه الحركات بأن يضرب نحو الجنوب — الشرق . فاعترض "لودندورف" على ذلك بقوله ان هذه الخطة وان كانت تتطوى على الاطباق على العدو الا أنها هجوم جبهى بدرجة متجاوزة الحد . فان الجناحين قد يضغطان على الروس ولكنهما لا يستطيعان أكثر من ذلك . ثم ألح مرة أخرى في تنفيذ مناورته عن طريق "فلنا" ولكن "فالكنهاين" رفضها مرة أخرى . وقد أثبتت النتيجة صدق نظر "لودندورف" . فان شق مقص "فالكنهاين" حين انطباقهما لم يجدنا أكثر من دفع الروس الى الورا وخروجهم من المسافة الواقعة بينهما . وفي آخر سبتمبر كانوا قد ارتدوا واتخذوا خطا طويلا مستقيما بين "ريجا" على بحر "البلطيك" و"شيرنوفتس" على حدود رومانيا . ثم انهم وان كانوا قد صاروا لا يهددون ألمانيا مباشرة بعد ذلك مطلقا الا أنهم كلفوها مشقة ومجهودا لا يعوض اذا اضطروها الى ابقاء قوات ألمانية كبيرة امامهم كما أنهم أبطلوا عمل النمسا أدبيا وماديا .

ولما فرغ "فالكنهاين" من العمليات الواسعة النطاق وتجاوز عنها ، صرح أخيرا "لودندورف" تصریحا في شيء من التردد لأن يحاول القيام بمناورته عن طريق "فلنا" ، بعد أن فات أوانها ، بما لديه من الوسائل الضعيفة . ثم جاء ما وقع فعلا من أن هذه الهجمة الخفيفة المنفردة قد قطعت السكة الحديدية الموصلة من "فلنا" الى "دفينسك" وكادت أن تصل الى سكة "منسك" الحديدية التي هي الخط المركزي لمواصلات الروسيين بالرغم من أن الروسيين كانت لديهم حرية حشد كل جنودهم الاحتياطية لمقاومتها . جاء ذلك دليلا ضمينا على ما كان ممكنا حصوله لو أنها حصلت من قبل ، بقوة كبيرة حينما كان الجسم الروسي يتخبط في الشرك الذي وقع فيه في "بولندا" .

ثم ان دول الوسط بعد أن انتهت حركاتهم التعرضية في الشرق ، هتت دفاعهم في الغرب شائتا لا يتزعزع ، انتهزوا فرصة فصل الحريف لاتمام حملتهم في بلاد "الصرب" . وهي الحملة التي كانت اقترابا غير مباشر له غاية محدودة ، بالنسبة للحرب بأجمعها ، ولكنها في دائرتها الخاصة كانت ذات غاية حاسمة . ثم ان مجراها أيضا وان كان الموقف مساعد له من الوجهتين الجغرافية والسياسية ، فانه يلقى شعاعا من النور على هذه الطريقة . أما الخطة فكانت مؤسسة على دخول "بلغارية" الحرب في جانب دول الوسط . فان الغزو النمساوي الألماني كان

متوقفا بما لقي من المقاومة ، عند ما تحرك البلغار يون غربا الى داخل بلاد الصرب . وحتى حينذاك بقيت مقاومة الصربيين ثابتة ، اذ كانت طبيعة البلاد الجبلية تعاونها الى أن دار الجناح الأيسر البلغاري ودخل القسم الجنوبي من بلاد الصرب بالتعارض على مؤخرتهم فاصلا بينهم وبين الامدادات الفرنسية — البريطانية التي كانت آتية من ” سلانيث “ . وعلى ذلك كان التدهور سريعا ولم يبق من الصربيين الا بقية ضئيلة نجت بنفسها أثناء التفهتر نحو الغرب في منتصف فصل الشتاء مجتازة ألبانيا حتى وصلت ساحل الادرياتيک . فهذا الحشد السريع ضد الشريك الأصغر خلص النمسا من الخطر من هذه الناحية ، وأتاح لألمانيا حرية المواصلات الى أوروبا الوسطى والسيطرة عليها .

أما عمليات سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ على الجبهة الروسية فانها لا تستدعي الا القليل من الشرح والتعليق اذ كانت في جوهرها دفاعية في الجانب النمساوي — الألماني ، ومباشرة في الجانب الروسي . أما مغزى العمليات الروسية فهو أنها لا تقتصر على اظهار عقم الاستراتيجية التي تعتمد على مجرد قوة الاندفاع في اقتراب مباشر . بل انها تظهر أيضا ارتداد التأثير الأدبي ورد فعله على متبعتها . فانه حينما جاءت الثورة نذيرا للانهار التام الذي سيصيب مجهود روسيا الحربى ، في سنة ١٩١٧ ، كانت القوات الروسية احسن تسليحا وأكل عددا منها في أى وقت مضى . غير أن الخسائر الجسيمة التي لم تر لها فائدة كانت قد نزعت ارادة القتال من قلوب أولئك الجنود الذين هم أكثر الجنود الأوربية صبرا وتضحية . وقد شوهد مثل ذلك التأثير أثناء التمرد الذى حصل في الجيش الفرنسى على أثر الحركات التعرضية التي وقعت في ربيع سنة ١٩١٧ فان معظم الثوران حصل حينما أمرت الجنود التي ملت المجازر بالعودة الى الخنادق . والعميلة الروسية الوحيدة التي كان فيها شيء من الاقتراب غير المباشر في مبدئها هي العملية التي قام بها ” بروسيلوف “ في تعرضه بالقرب من ” لوك “ في يونيه سنة ١٩١٥ وكانت كذلك لأن تلك الحركات التعرضية لم تكن بنية جدية . فانها ابتكرت لمجرد تشتيت أفكار العدو وانتهت قبل الأوان تلبية لنداء ايطاليا . فلم يسبقها استعداد أو حشد جنود فكان الزحف الذى حصل عرضا وعلى غير انتظار قد أدى الى انهيار الدفاع الذى كان مستنيا لدرجة أن وقع في الأسر ٢٠٠.٠٠٠ جندي في ظرف ثلاثة أيام . ومن النادر أن يكون لمثل هذه الصدمة الفجائية من النواحي في نتائجها الاستراتيجية مثل ما كان لها . فانها أوقفت هجوم النمسا على ايطاليا ، وأرغمت ” فالكنهاين “ على سحب جنود من الجبهة الغربية . وبذا ألجأته على أن يتنحى عن حملته التي قصد بها الانهالك حول ” فردون “ . ثم حفزت رومانيا على دخول الحرب ضد دول الوسط . وكان من جراءها سقوط ” فالكنهاين “ واستبداله ” بهندنبورج “ و ” لودندورف “ (أما ” هوفمان “ فانه بقى في الشرق وكان غيابه خسارة على رفيقيه) . ولو أن دخول رومانيا الحرب كان الحجة التي اتخذت لاستبداله الا أن السبب الحقيقي هو أن استراتيجيته المباشرة

في سنة ١٩١٥ كانت ضيقة من حيث الغرض والاتجاه فكنت الروس من « العودة » التي أكلت إفساد استراتيجيته سنة ١٩١٦ « أكلتها » فقط لأن ظل الفشل كان قد وقع على التصميم الذي وضع « لفردون » . وهو تصميم قام على المبادئ التي تولدت في القرن التاسع عشر ، فكان أول غرض له هو أقوى جيش لدى الأعداء المتحالفين ، وأقوى نقطة من نقط موقع هذا الجيش .

غير أن حركات « بروسيلوف » التعرضية غير المباشرة وما كان لها من التأثير الجيد لم يستديما طويلا . فانها أدت بالقيادة الروسية ، بعد فوات الأوان ، أن تلقى بكل ما لديها من القوى في ذلك الاتجاه . ثم انها لم تكن سوى ما يقتضيه القانون الطبيعي للحرب من أن استمرار المجهود على طول خط المقاومة التي تزداد صلابه لا بدله من استخدام كل الجنود الاحتياطية الروسية دون حصول فائدة تعادل ذلك البذل . أما ما أصاب « بروسيلوف » من الخسائر في آخر الأمر وعددها ١.٠٠٠.٠٠٠ فهو وإن كان من الفداحة بمكان إلا أنه كان في الإمكان الاستعاضة عنه بجنود تحل محل تلك الخسائر . ولكنها لما كشفت عن الافلاس العقلي وأظهرته أمام من تبقى من الجنود تسبب عنها افلاس قوة روسيا العسكرية من الوجهة الأدبية .

فاصرار روسيا على تركيز كل أفكارها على هذا المجهود مكن « هندنبورج » و « لودندورف » من القيام « بتغيير سريع آخر » هو اقتراب غير مباشر كالذي حصل ضد بلاد الصرب في سنة ١٩١٥ وقد صار اقترابا استراتيجيا غير مباشر ، على الوجه الأصح ، ويرجع بعض السبب في ذلك إلى حكم الظروف . وقد كانت رومانيا المهدف المقصود . وكان لديها في بادئ الأمر ٢٣ فرقة مجهزة بأسلحة وعدد بدرجة متوسطة ، يقابلها سبع فرق . وكانت تأمل أن ضغط « بروسيلوف » ، والبريطانيين الموجودين على نهر « السوم » ، وقوات الحلفاء التي كانت إذ ذاك في سلايك تحول دون تقوية هذه الفرق السبع . وكل ما يمكن أن يقال هو أن كل هذه القوات كان ضغطها مباشرا فلم يحل دون سحب جنود كافية لسحق رومانيا .

ولما كانت الأراضي الرومانية محصورة بين مقاطعة « ترانسلفانيا » و « بلغاريا » فقد كانت لها موانع طبيعية قوية على كل جنب من جنبها هي جبال « الكربات » ونهر « الدنوب » ولكن موقعها كان يلائم استراتيجية الاقتراب غير المباشر . وعلاوة على ذلك فان مقاطعة « دوبروجا » التي هي « فئاؤها الخلفي » وهي شقة مستطيلة على الجانب الآخر من نهر الدنوب بالقرب من البحر الأسود ، كانت طما يستطيع خصم ماهر أن ينشب فيها صنارته .

ثم إن رغبتها وتصميمها على انتهاج خطة التعرض نحو الغرب داخل « ترانسلفانيا » جعلها العمل المضاد الذي قام به خصمها ، غير مباشر بدرجة أكثر مما كان في نيته من الأصل ، وأكثر دهاء .

فابتدأ الزحف الرومانى فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ ، فى ثلاثة قولات رئيسية كل منها مؤلف من نحو أربع فرق تحركت فى اتجاه شمالى — غربى مجتازة ممرات جبال ” الكربات ” مقتربة نحو سهل بلاد المجر اقترابا مباشرا . ثم تركت ثلاث فرق لحراسة نهر الدنوب ، وثلاث أخرى فى ” دوبروجا ” حيث وعد الروس بامدادها . غير أن زحف القوات الرومانية الى داخل ” ترانسلفانيا ” ، الذى كان بطيئا وملازما للمخدر قد أعاقه العدو بتدميره كل الجسور (الجبارى) لا بمقاومته . فلم يهدد الفرق النمساوية الخمس الضعيفة التى كانت تستر الحدود ، الى أن جاءها مدد مؤلف من خمس فرق ألمانية وفرنقتين نمساويتين . ولتنفيذ النصف الآخر من الخطة التى كان ” فالكنهاين ” قد وضعها قبل سقوطه وضعت أربع فرق بلغارية ومعها تقوية ألمانية ، وقطار نمساوى من معدات انشاء الجسور ، تحت تصرف ” مكترن ” على ذمة غزو ” دوبروجا ” .

وبينما كانت القولات الرومانية تتحرك ببطء نحو الغرب داخل ” ترانسلفانيا ” ، اقتحم ” مكترن ” رأس جسر ” تورتوكايا ” فى ٥ سبتمبر وأباد الثلاث الفرق الرومانية التى كانت حرسا على جبهة نهر ” الدنوب ” . وبعد أن أمن جناحه الواقع الى جهة الدنوب تحرك شرقا متوغلا فى ” دوبروجا ” ، وان كان مبتعدا عن ” بخارست ” — التى هى خط الانتظار الطبيعى . بغايت هجمة أدبية تدل على الدهاء ، لأن تأخيرها الاستراتيجى (الأوتوماتيكى) ، الذى يحصل من تلقاء نفسه ، هو اجتذاب الجنود الاحتياطية الرومانية التى جُمِعت لامداد الحركات التعرضية فى ” ترانسلفانيا ” التى فقدت ما كان لها من قوة الحفر .

وهنا قام ” فالكنهاين ” ، الذى تولى القيادة التنفيذية ، بحركات تعرضية مضادة ربما كانت متجاوزة الحد فى درجة اهتمامه بها وفى كونها مباشرة . لأنه وان كان قد أبدى مهارة فى حشد جنوده ضد القولين ، الجنوبي والوسطى ، واحدا بعد الآخر ، مستخدما لايقاف الآخرين من جنود العدو عددا من الجنود أقل من عددهم وان لم يكن أقل ما يلزم . اذ كانوا يكادون لا يحتاجون الى من يوقفهم . فان النتيجة كانت صد الرومانيين وارجاعهم ولكن لم يحل بينهم وبين الجبال . وهذا الحادث السيئ الطالع جعل كل الخطة الألمانية فى خطر . فان الرومانيين الذين كانت كل الممرات مازالت فى أيديهم استبسلاوا وصدوا كل محاولة للنفوذ من الممرات وراءهم بالملاصقة . وقد فشل فى محاولته الأولى للنفوذ من مكان أبعد الى جهة الغرب . ولكنه عاد بفجدد مجهوده مع النجاح ونفذ من الجبال قبل نزول ثلوج الشتاء . ثم لما دار نحو الغرب كان قد دخل رومانيا من بابها الأمامى وترتب على ذلك أن صار اقترابه مباشرا . فاضطر لأن يمتاز سلسلة من خطوط الأنهر . ولكن لحسن حظه أنه لما أوقف على طول نهر ” الألط ” تدخل ” مكترن ” لأن ” مكترن ” كان قد حول معظم قوته من ” دوبروجا ” مارا ” بتورتوكايا ” الى ” سستوفو ” حيث عبر نهر ” الدنوب ” قهرا فى ٢٣ نوفمبر .

ومما هو موضوع جدل ومناقشة هو ما اذا كان تركه موقعه القوي على مؤخرة رومانيا قصد تجمع الجيش الرئيسي ، بعد زحفه ، في اتجاه ” بخارست “ هو أفضل استراتيجية مثمرة . نعم انها مكنت ” فالكنهاين “ من عبور نهر ” الألط “ ، ولكنها مكنت الرومانيين أيضا من استخدام موقعهم « القريب » الوسطى للقيام بانزال ضربة مضادة خطيرة على جناح ” مكترن “ كادت تحيط به من جميع الجهات . ولكن بمجرد ما زال الخطر فان الضغط المشترك من كل من ” فالكنهاين “ و ” مكترن “ دفع الجيش الروماني الى الوراء بجنازا ” بخارست “ ومنها انسحب الى خط ” سيرث “ — والبحر الأسود ، فاستولت القيادة الألمانية على القسم الأعظم من رومانيا بما فيها من غلال وزيوت . ولكنها لم تقطع على الجيش الروماني رجعه او تبديه فكان ذلك باعثا على توطيد قوته المعنوية والعقلية في مقاومته للرحلة الأخيرة من زحف العدو بدلا من انقاصهما . وفي فصل الصيف التالي قاوم مقاومة مجيدة أحبطت مساعي الألمان لطرده الى ماوراء نهر ” البروت “ ليكمل لهم احتلال رومانيا . فلم تخضع رومانيا الا في ديسمبر سنة ١٩١٧ حينما وقعت روسيا البلشفية على شروط الهدنة مع ألمانيا واقفقت رومانيا أثرها بعد أن أصبحت منفصلة

الباب الثالث عشر

المسرح الجنوبي الشرقى - أى مسرح البحر الأبيض المتوسط

المسرح الايطالى - فى سنة ١٩١٧ كانت ايطاليا هى مكان المنظر التمثيلى ، والغرض الذى قصدهته القيادة الألمانية ، لتمثل لنفسها منه مستودعا أو مخزنا لحاجاتها فى فصل الخريف . وهنا أيضا كان شكل الحدود الطبيعى مما يجعلها مطمحا لاقترب غير مباشر من الوجهة الجغرافية ولكنها لم تمكن العدو من ذلك . أما هذا العدو فلم يبد أى ميل لمحاولة القيام باقترب غير مباشر من الوجهة النفسية . فان "فينيزيا" التى هى اقليم الحدود الايطالية عبارة عن زاوية خارجة متجهة نحو بلاد النمسا . ويقع على جانبها الشمالى كل من اقليمى "التيرول" و "الترنتينو" المتساويين . وعلى جانبها الجنوبى بحر الادرياتيک . وتتأخم الادرياتيک شقة من الأرض على جبهة نهر "الايرونزو" واطية نسبيا . على أن الحدود فى تلك البقعة تمشى مع جبال الألب "الجوليانية" و"الكارنيكية" ملتفة لفة واسعة ثم الشمال الغربى ويستمر قوسها فى سيره نحو الجنوب الغربى حتى يصل الى بحيرة "جاردا" . ثم ان اتساع كتلة جبال الألب اتساعا عظيما من جهة الشمال وعدم وجود أغراض حيوية فى تلك الجهة لم يشجعا ايطاليا على القيام بحركات تعرضية فى ذلك الاتجاه . ولهذا الأسباب كان لا منفذ لحركاتها التعرضية الا بزحف مباشر الى جهة الشرق نحو بلاد النمسا . فكانت بطبيعة الحال عرضة لتهديد كبير دائم يأتيا من النمسا يتضمن هبوطها من مقاطعة "الترنتينو" على مؤخرة ايطاليا . ولكن لما لم يكن فى وسعها أن تختار طريقا آخر اتخذت هذا الطريق . فتأبرت على الاقتراب المباشر لمدة سنتين ونصف سنة وحينذاك كانت "المعركة الحادية عشر" من معارك "الايرونزو" قد انتهت على غير طائل . فان الجيوش الايطالية لم تكد تزحف الى أبعد من النقطة التى بدأ منها الزحف حتى بلغت خسائرها ١,١٠٠,٠٠٠ جندي فى حين كانت خسائر النمساويين تبلغ نحو ٦٥٠,٠٠٠ وفى كل تلك الأثناء كانت النمسا انتهجت خطة التعرض مرة واحدة . وتلك كانت فى سنة ١٩١٦ حينما أراد "كونراد" أن يحصل على معاونة "فالكنهاين" فى قهر ايطاليا والتغلب عليها بهجوم من "الترنتينو" نحو الجنوب يوجه الى مؤخرة الجيوش الايطالية التى كانت اذ ذاك تقاتل على نهر "الايرونزو" غير أن "فالكنهاين" لعدم وثوقه من خطة الضربات "الحاسمة" ولاصراره على التماهى فى عملية الانتهاك فى "فردون" رفض ذلك حتى انه أبى أن يعير "كونراد" الحد الأدنى من مطالبه وهو تسع فرق ألمانية لتحل محل الفرق النمساوية الموجودة بالجهة الشرقية . ولما لم ينل "كونراد" هذه المساعدة صمم على أن يقوم بهذه المحاولة وحده فأخذ بضعا من خيرة فرقته من الشرق وعرض تلك الجهة لزحف "بروسيلوف" الذى حصل على أثر ذلك ، دون أن تتواجد لديه القوة الكافية لتنفيذ خطته الايطالية . ومع كل فقد كاد هذا الهجوم أن يكلل بالنفوز .

وإذا كان لا يمكن القول بأن هذا الهجوم كان على غير خط الانتظار الطبيعي، إلا أنه كان على شيء من عدم التوقع لأن القيادة الإيطالية ما كانت تعتقد أن "كونراد" عنده من القوة والتسهيلات ما يمكنه من القيام بهجوم واسع النطاق. وفي الحق كان هجوما واسع النطاق ولكنه ليس بالاتساع الكافي. فلما اندفع الهجوم أحرز فوزا سريعا في أيامه الأولى. ومع أن "كادورنا" تمكن من سحب جنوده الاحتياطية، في الوقت الملائم، من جبهة "الايوزوزو" علاوة على كونه قد استعد لنقل مهماته ولوازمه، ومدفعيته الثقيلة من تلك الجهة - فإن المسألة كانت مسألة مسابقة تساوى فيها الطرفان. أما الهجوم المتساوى فكان على وشك النفوذ إلى السهل ولكنه نظرا لعدم وجود جنود احتياطية ضاعت قوته الطاردة. وفي ذلك الحين وقع زحف "بروسيلوف" على الجهة الشرقية فأوقف هذا الهجوم. ولما عنت "لودندورف" بعد ذلك بسبعة عشر شهرا فكرة أنزل ضربة مشتركة بإيطاليا نظرا لما بلغت حالة النمسا من الشدة كان الأمل في النجاح أقل مما كان في ذلك الهجوم. لأنه لم يمكنه الاستغناء إلا عن احتياطيه العام الضئيل البالغ قدره ست فرق، وكان حليفه في أشد حالات التعب والاعياء أدبيا وماديا. ونظرا لقلة الوسائل الموجودة كانت الخطة أضيق من السابقة وأكثر منها اقترابا مباشرا - وهي عبارة عن هجوم على الركن الشمالي - الشرقي من جبهة "الايوزوزو" عند منحرجها نحو كتلة جبال الألب. على أن اختيار القطاع الموجه إليه الهجوم وقع بناء على مبدأ كان حديثا في هذه الجهة - اذ كان على خط أقل مقاومة تكتيكية. وكانت الخطة في الأصل ترمى إلى النفوذ من نقطة "كاباريتو" ثم ازاحة جبهة "الايوزوزو" وطبعا لا شيء غير ذلك. ولكنها اتسعت أخيرا في مراميها دون أن تزداد الوسائل. فان مثل "لودندورف" في "كاباريتو"، كمثل البريطانيين في "كمبراي" في ذلك الحريف، كان وضع مثال لذلك الخطا الاستراتيجي الجسيم وهو عدم "قطع القماش على قدر الثوب". لأنه كان على تقيض "فالكنهاين" إلى حد التطرف. فهذا كان يقطع قماشه دائما أقل مما يحتاجه ثوبه، مقدرا مقاس الثوب دون الحقيقة. وبعد أن يدرك خطأه يطلب زيادة من القماش ليكبر بها الثوب - فيرقعه رقعا لا تفي بالغرض.

ففي يوم ٢٤ أكتوبر اندفع الهجوم الذي كان يشف عن مهارة في اعداده واخفائه ونفذ متوغلا بين جيش "الايوزوزو" الإيطاليين. وبعد أسبوع من ذلك التاريخ وصل إلى نهر "الطليامنتو"، ولكن بعد أن تمكن الإيطاليون من اخراج أنفسهم من هذا المازق وخلصوا قواتهم التي انفصل بعضها عن بعض، ولو بفقد قسم كبير منها. أصبح استمرار الزحف اقترابا مباشرا صرفا، نحو الغرب ضاغضا الإيطاليين إلى الوراء حتى وصلوا إلى نهر "البياقة" وهو حاجز قوى يلجأون وراءه. وبعد فوات الأوان فكر "لودندورف" في تحويل جنود احتياطية إلى "الترنتينو" ولكن قلة المواصلات الحديدية حالت دون ذلك. وقد حاول جيش "الترنتينو"

عمل ما في امكانه بوسائله الضئيلة ولكن على غير طائل . فان حركته قد زالت عنها صبغة الهجوم الحقيقي الموجه الى المؤخرة . لأن كل الجبهة الايطالية والجنود الاحتياطية قد رجعت الى الورا حتى كادت تصل الى "الترنتينو" .

فقد زالت المفاجأة الأضالية وصار الهجوم النمساوى — الألمانى الآن عبارة عن اطباق على العدو مباشرة من جهات مختلفة كل ما فيه انه أرجع الايطاليين نحو جنودهم الاحتياطية ، ومؤنهم وأراضيمهم ، وامدادات حلفائهم . فكانت له النتيجة السلبية التى لا مفر منها . على أن النجاح الذى أحرزه بهذه الوسائل الضئيلة يجعل التفكير فى أمر عدم اصغاء "فالكنهاين" الى خطة "كونراد" فى أوائل سنة ١٩١٦ ، تلك الخطة التى كان أمل النجاح فيها أكثر ضربا من النقد السخرى .

مسرح البلقان — قبل أن نعود الى النظر فى خطة "فالكنهاين" لسنة ١٩١٨ ، من الضروري تصفح بيان الأعمال التى قام بها أعداؤه أو حاولوا القيام بها فى بحر الثلاث السنين الماضية خارج حدود الجبهتين الفرنسية والروسية .

فبينما كان كل من مركزى الرياسة الفرنسية والبريطانية فى فرنسا ثابتا الاعتقاد واثقا كل الوثوق من قوة الاقتراب المباشر ومقدرته ليس فقط على اختراق حاجز الخنادق والنقود منه . بل على احراز نصر حاسم ، كانت بعض الدوائر التى كانت إما بعيدة عن جبهة الخنادق وإما قريبة منها يخجلها شك عظيم فى ذلك منذ شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ وأصحاب هذه الفكرة الذين أتاح لهم البعد أن يصوروها أمام أنظارهم ليسوا كلهم من الزعماء السياسيين . فمنهم "غالىنى" فى فرنسا ، و"كتشنر" فى انجلترا — وقد كتب فى ٧ يناير سنة ١٩١٥ مخاطبا السير "جون فرنس" يقول : "ان الخطوط الألمانية فى فرنسا يصح اعتبارها بمثابة قاعة لا يستطيع الاستيلاء عليها بالاقتحام وايضا لا يمكن محاصرتها تماما . فالنتيجة هى أنه يصح مقابلة الخطوط بقوة تحيط بها بينما تأخذ العمليات مجراها فى مكان آخر" .

وتال بعضهم خصوصا المستر "تشرشل" ، ان حلف الأعداء يجب النظر اليه جملة ، وان التطور الحديث قد غير فكرة المسافة وفكرة قوة خفة الحركة والتنقل ، لدرجة أن الضربة التى تنزل بمسرح آخر من مسارح الحرب قد تعادل الهجوم "التاريخى" على الجناح الاستراتيجى للعدو . وهنا تصح الاشارة الى أن مثال نابليون ، وهو الذى كثيرا ما اتخذ حجة للتأثير على البقاء فى الجبهة الغربية يظهر منه أنه يؤيد هذه الفكرة الأخيرة . وفوق ذلك فانه من المسلم أن مثل هذه العملية تلائم الاستراتيجية البرية — البحرية التى هى استراتيجية بريطانيا التقليدية . وتمكن بريطانيا من استغلال المزية الحربية المتوفرة فى القوة البحرية التى أهملت حتى ذلك الحين . وفى أكتوبر سنة ١٩١٤ ألح اللورد "فيشر" فى اتباع خطة لانزال جنود على الساحل الألمانى . وفى يناير

سنة ١٩١٥ أشار اللورد كيتشر بـخطة أخرى لفصل خط مواصلات تركيا الرئيسى نحو الشرق بانزال جنود فى خليج اسكندرونه وقد أبانت ملاحظات كل من "هندنبورج" و "أنور" بعد الحرب كيف كان ذلك يصيب تركيا بالشلل لو أنه حصل . ولكنه ما كان يحدث تأثيرا أعظم على دول الوسط بجملة ولا يكون اقترابا غير مباشر .

وقد أشار المستر "لويد جورج" بنقل سواد القوات البريطانية الى البلقان بصفتها طريقا موصلا الى "الباب الخلفى" للعدو . ولكن القيادتان الفرنسية والبريطانية لوثوقهما . من الحصول على حسم سريع فى فرنسا عارضتا بشدة اتباع أية استراتيجية أخرى محتجين بصعوبة النقل واستيراد المؤن وبالسهولة التى تلاقىها ألمانيا على رأيهم ، فى تحويل جنودها لمقابلة هذا التهديد . وإذا كان فى معارضتهما شئ من الحقيقة فإن حماسهما أدى بهما الى الغلو والمبالغة . ثم ان معارضتهما كانت أكثر بعدا عن المناسبة فى تطبيقها على النموذج الخاص الذى رسمه "غالينى" لحظة البلقان فانه اقترح انزال جنود الى "سلانيك" كنقطة يبدأ منها السير الى استانبول بجيش قوى بدرجة تشجع بلاد اليونان وبلغاريا على الانضمام اليه . وبعد الاستيلاء على استانبول ترحف القوة صاعدة نهر الدنوب الى بلاد النمسا والمجر بالاشتراك مع الرومانيين . وهذه الخطة كانت فى أساسها مشابهة لما حصل فعلا فى أكتوبر سنة ١٩١٨ ففى شهر سبتمبر من تلك السنة نزع الرأى العسكرى الألمانى الى اعتبار أن مثل هذا الحادث لو حصل فانه "يكون حاسما" وفى أول أسبوع من نوفمبر كان التهديد . وهو ما يزال بعيدا ، عاملا هاما فى تعجيل ألمانيا بالتسليم .

ومع ذلك ففى سنة ١٩١٥ كانت أغلبية الرأى العسكرى تعارض كل الاقتراحات المغايرة لفكرة تركيز المجهود على الجبهة الغربية غير أن التشاؤم لم ينقطع ، وفى ذلك الحين نشأ موقف أعاد الى الحياة خطة الشرق القريب وإن كانت فى صورة مصغرة .

ففى ٢ يناير سنة ١٩١٥ جاء اللورد "كتشر" استصراخ من الفراندوق "نيقولا" يطالب اليه القيام بحركة تخفيفية تحوّل أفكار الأتراك فيخف ضغطهم على قوات روسيا فى القوقاز . ولكن كتشر أحس بعدم امكانه إيجاد الجنود اللازمة لذلك فاقترح القيام بمظاهرة بحرية أمام الدردنيل . وزاد "تشرشل" أن اقترح أنه فى حالة عدم امكان تقديم معاونة عسكرية تستبدل المظاهرة البحرية بمحاولة اجتياز الدردنيل غصبا مراعىا فى ذلك النتائج الاستراتيجية والاقتصادية العظيمة . ولم يلق هذا الشروع معارضة من مستشاريه البحريين ، وإن كانوا لم يتحمسوا له . وقام الأميرال الموجود بنفس المكان ، وهو "كاردن" بوضع خطة لذلك وأعدت قوة بحرية تألف معظمها من السفن العتيقة المهجورة ، بمساعدة فرنسا ، وبعد ضرب المدافع التمهيدى دخلت هذه القوة البوغاز فى ١٨ مارس . غير أن الأغنام السابحة أغرقت عدة سفن فبطلت المحاولة .

ومما هو موضع حذل ومناقشة هو ما اذا كان استئناف الزحف مرة أخرى قبل فوات الأوان لا يؤدي الى النجاح ، اذ ان ذخيرة الأتراك كانت قد نفذت ، وان في مثل هذه الظروف قد يمكن التغلب على مسألة الألفام . على ان القائد البحري الحديد الأميرال "دورويك" استقر رأيه على ألا يقوم بهذا العمل الا اذا وجدت مساعدة عسكرية . وكان مجلس الحرب قد صمم قبل ذلك بشهر على القيام بهجوم مشترك وشرع في ارسال قوة عسكرية تحت قيادة السير "إيان هملتون" . غير أن السلطات حينما اعتمدت على الخطة الجديدة تأخرت في إخلاء الجنود اللازمة لها وحتى بعد ارسالها أقساما لا تفي بالمراد اضطرت لقضاء عدة أسابيع أخرى في مطل — بالاسكندرية — لتوزيع القوة على السفن الثقالة بصورة ملائمة للعمل التكتيكي ، وأقطع من ذلك كله أن هذه السياسة المتسككة قد أضاعت فرصة المفاجأة . فلما حصل الضرب (بالمدافع) التمهيدى في فبراير كانت لا يوجد بالبوغاز سوى فرقتين تركيتين ، فأصبحت أربع فرق في التاريخ الذى حصل فيه الهجوم البحري ، وصارت ست فرق عندما تمكن "هملتون" أخيرا من محاولة ائزال الجنود الى البر . وفي هذه العملية كانت جنوده لا تزيد على أربع فرق بريطانية وفرقة فرنسية — وهى قوة أقل عددا من قوة العدو ، فعلا ، وفي موقف يتفوق فيه الدفاع على الهجوم بطبيعتهما ، يضاف الى ذلك عامل آخر هو وعورة الأرضى الطبيعية . فاضطر بسبب ضعفه العددي وتحديد مهمته وهى معاونة الأسطول في مروره . لأن يختار لتزول جنوده الى البر ، شبه جزيرة "غالبولى" مفضلا اياها على نقطة على البر الأصيل أو على الساحل الأسوى .

وفي ٢٥ أبريل وثب وثبته على الطرف الجنوى من شبه الجزيرة بالقرب من رأس "هليس" وقريبا من "جبهته" أى نحو ١٥ ميلا صعدا على الشاطئ "الايحى" . أما الفرنسيون فلكى يشتوا أفكار العدو نزلوا الى البر مؤقتا في "قوم قلعه" على الشاطئ الأسوى . ولكن بمجرد ما ضاعت الميزة الوقتية وهى ميزة المباغتة التكتيكية ، واستطاع الأتراك جلب جنودهم الاحتياطية ، لم يتمكن الغزاة من توسيع موطنى أقدامهم الركيكين .

وأخيرا استقر رأى الحكومة البريطانية في يوليه على ارسال خمس فرق أخرى لتقوية السبع الموجودة في شبه الجزيرة . ولما وصلت كانت قوة الأتراك في تلك الجهة قد ازدادت هى ايضا حتى صارت ١٥ فرقة . فصمم "هملتون" على ائزال ضربة مزدوجة — ضربة معززة من جبهته وائزال جنود جديدة في خليج (شرم) "سوفلا" على بعد بضعة أميال شمالا — ليفصل منتصف شبه الجزيرة ويستولى على المرتفعات الحاكمة على المضائق . وهذه الهجمة وان كانت تظهر انها مباشرة أكثر مما اذا كان ائزال الجنود في "بولاي" أو على الشاطئ الأسوى ، الا أن الذى يبررها هو أنها على خط لم تتوقعه قيادة العدو التى كانت جنودها الاحتياطية محتشدة في القط الأخرى . فلم يسد الطريق أمامها سوى أورطة ونصف أورطة

من الأتراك مدة ٣٦ ساعة قبل وصول الاحتياطي . وقد ضاع هذا الوقت وأفلتت تلك الفرصة بسبب عدم خبرة الجنود التي نزلت الى البر وجمود القادة الموجودين معهم . ثم جاء التوقف ، وخيبة الأمل ، ومعارضة الذين كانوا دائماً ضد هذا المشروع فكانت سبباً للاسراع بالهلاء عن شبه الجزيرة . والحكم الذي أصدره "فالكينهاين" في خطة الدردنيل هو : "لو لم تقفل البواغيزين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود قفلاً دائماً أمام دول الائتلاف لنقص الأمل في مجرى الحرب مع النجاح نقصاً في غاية الأهمية . فكانت روسيا تتخلص من عزلتها ذات المغزى ، التي هي ضمان آمن من الفوز العسكري ، فانه طال الزمن أو قصر لابد من أن يأتي وقت تصبح فيه قوات هذا الجبار كسيحة مقعدة ، من تلقاء نفسها" فالخطأ ليس في الفكرة بل هو في تنفيذها . فلو أن البريطانيين استخدموا من بادئ الأمر حتى ولو مقداراً من الجنود بنسبة معتدلة لعدد الجنود التي بذلوها في نهاية الأمر وهي تتوارد قسمياً قسماً ، فإن من البين من شهادة قادة العدو أن عملهم كان يكمل بالنجاح . وحركة الدردنيل وإن كانت اقتراباً مباشراً بالنسبة لتركيا ، فمما كانت اقتراباً غير مباشر بالنسبة لجيوش تركيا الرئيسية التي كانت اذ ذاك تقابل في القوقاز ، وفي المستوى الأعلى كانت اقتراباً غير مباشر بالنسبة لدول الوسط بجملتها . وبالمقارنة بين فكرة الدردنيل ، والأمانى العقيمة المظلمة التي وضعت في فرنسا وهي التي لم تلق عليها التجارب التاريخية شعاع واحد من الأمل ، يظهر أن فكرة الدردنيل قد أوفت قانون التوفيق بين العاية والوسائل حقها ، بقدر ما كان تنفيذها مخالفاً لهذا القانون .

مسرحا فلسطين والعراق — ان تجريدات الشرق الأوسط لانكاد تدخل تمت نطاق هذه المطالعات . فهي من الوجهة الاستراتيجية كانت أكثر بعداً مما يجعل لها أى أمل في أن تكون ذات تأثير حاسم ، من جهة ، وبصفتها حركات تخفيفية تحول أفكار العدو نحوها قد استدعت قوات من البريطانيين أعظم بكثير مما استوفقت من قوات العدو ، من جهة أخرى .

أما في دائرة السياسة ففي الامكان وضع قضية . فان بريطانيا كانت دائماً تتمتع بالرخاء الكثير يجورها المغنم من بلاد العدو (تلتقط البرقوق من بستان العدو) وليس ذلك لمخسب ، بل انها كانت تمنع الخطر عن حلفائها وتستعوض عن خسائرهم بما تجره من تلك المغنم . بينما يقوم النضال بين القوات الرئيسية للحلفاء والعدو فتتمك كل منهما قوى الأخرى بحثاً وراء باب الخروج منه . وفي حالة انتهاء النضال الرئيسى الى نتيجة غير مرضية كانت تبقى لديها المغنم (البرقوق) لتساوم عليها . أما اذا جاءت النتيجة على ما تشتهى فكانت تأخذ ما غنمته وينتهى الأمر . وعلى ذلك فهناك سبب ، على الأقل ، للبحث فيما اذا كانت هذه السياسة غير العسكرية لا تستحق أن تتطور حتى تصير نظرية من نظريات الاستراتيجية العظمى يسترشد بها البريطانيون .

على أن الاستراتيجية المحلية لتجريدة فلسطين جديرة بالدراسة . فهي في بادئ الأمر كانت جامعة بين عيوب كل من الاقتراب المباشر والاقتراب غير المباشر . اذ اتبعت خط الانتظار الطبيعي الذي كان من جهة أخرى أطول وأشق طريق للدوران الى أية نقطة حيوية عند الدولة التركية . وبعد الفشل الذي صادفته للرتين الأوليين في "غزة" التي كانت تحرس طريق الاقتراب المباشر الساحلى من مصر الى فلسطين ، استخدمت في شهرى مارس وأبريل سنة ١٩١٧ الجنود التي زاد عددها وكانت معدة لفصل الحريف ، في محاولة أقل مباشرة من سابقتها . فالخطة التي رسمها "تشتوود" واتبعتها "أللني" بعد حلوله محل "مرى" في القيادة كانت في الحقيقة غير مباشرة من الوجهة الجغرافية بحسب ما سمحت به موارد المياه وضيق الدرب بين البحر والصحراء . أما دفاعات الأتراك ومعاقلهم فكانت ممتدة الى مسافة نحو ٢٠ ميلا من "غزة" الى الداخل في حين أن وراءها على مسافة عشرة أميال تقع "يرشبا" التي هي النقطة الخارجية التي تحرس الحافة الشرقية للساحة التي يمكن الاقتراب منها . ثم ان التكم والحيلة وجهنا انتباه الأتراك نحو "غزة" وبعدها حصل الاستيلاء على "يرشبا" وما بها من المياه بالاقضاض على جانبها الذي لا حماية له بحركة سريعة في نطاق واسع . والذي يلي ذلك في الخطة ضربة موجهة الى جناح الموقع التركي الرئيسى يسبقها هجوم على غزة يقصد منه تحويل انتباه العدو اليها . بينما يقوم الفرسان من "يرشبا" بحركة كاسحة تدور الى مؤخرة الأتراك غير أن صعوبات الحصول على المياه وضربة مضادة قام بها الأتراك شمالى "يرشبا" عرقلتا هذه المناورة ومع أن جبهة الأتراك اخترقت لم تحصل نتائج حاسمة . ثم ان قوات الأتراك ارتدت ورجعت الى الورا أخيرا حتى تجاوزت القدس ولكن رجعتها لم تقطع عليها كما كان في النية .

فأرجئ الحسم ومحاولة الوصول اليه لمدة سنة — حتى سبتمبر سنة ١٩١٨ . وفي نفس الوقت قامت حملة حربية في الصحراء غربية في بابها شرقا ، وجنوبا ، لم تقتصر على اضعاف قوة تركيا الحربية ، بل ألقت ضوءا جديدا على الاستراتيجية وخصوصا على الاقتراب غير المباشر هذه الحملة هي حملة ثورة العرب التي كان "لورنس" رأسها المرشد . فهي وان كانت من نوع حرب العصابات التي هي بطبيعتها اقتراب غير مباشر ، الا أن استراتيجيتها كانت قائمة على أساس حسابى علمى يجب علينا ألا تغفل تأثيره على الحروب العادية ، فمن المسلم أنها صورة متطرفة من الاقتراب غير المباشر ثم انها كانت ذات أثر فعال في منتهى الاقتصاد في حدود قوتها . فالعرب أخف حركة من الجيوش النظامية وأقل منها تحملا للخسائر . أما الأتراك فكانوا يكادون لا يبالون بما يصيبهم من الخسائر في الرجال . أما خسائر المواد فكانوا يتأثرون لها — نظرا لقلتها عندهم . فهم من أنحر الجنود متى استقروا في خنادق يطلقون منها النار على هدف

متقدم اليهم ولكنهم لا يصلحون للعمليات الطائرة التي لا تثبت في مكان ولا يتحملونها وكانوا يحاولون المحافظة على ساحة شاسعة من الأراضي في حين أن عددهم لا يكفي للانتشار عليها في نقط موضوعة على صورة شبكة . كما كانوا يعتمدون في مواصلاتهم على خط طويل وضعيف .

ولهذه الظروف تطورت استراتيجية على نقيض الأصول المرعية . فبينما الجيوش العادية تسعى للمحافظة على اتصال أجزائها بعضها ببعض ، الا اذا قادها نابليون مثلا ، كانت العربان تسعى لاجتناب الانضمام . وفي الحين الذي تسعى فيه الجيوش العادية لاتلاف القوات التي تناوئها يسمى العربان لاتلاف المواد لاغير ، ويسعون لذلك في النقط التي لا توجد بها قوة . بل يذهبون الى أبعد من ذلك . فبدلا من أن يجتهدوا لأن يطردوا العدو بأن يحولوا بينه وبين مؤنه ، كانوا يرمون الى ابقائه حيث هو بأن يسمحوا بوصول قسم من مؤنثته اليه حتى انه كلما طال أمد بقائه ازداد ضعفا وخارت عزيمته . فان الضربات قد تحضه على الاحتشاد تسهلا لمساآلى مؤنه وسلامته . أما ونحز الابر فيبقيه مشتتا . ومع ذلك فان هذه الاستراتيجية مع كل ما فيها من الشذوذ لم تؤد الى غايتها المنطقية التي هي اتباع خط أقل درجات المقاومة . وكما قال مبتكرها ” لم يسع الجيش العربي مطلقا لأن يحافظ على ميزة أو أن يزيدها . بل كان ينتقل وينزل ضربته مرة أخرى في مكان آخر . فكان يستخدم أقل قوة في أسرع وقت وأبعد مكان لأن استمراره في القتال حتى يغير العدو أوضاعه لكي يقاومه فيه اخلال بالقاعدة الأساسية التي هي حرمان العدو من هدف يصوب اليه ضرباته “ .

اذن ماهذه الاستراتيجية ان لم تكن هي نفس الاستراتيجية التي تطورت في سنة ١٩١٨ على الجبهة الغربية ؟ انها هي ذاتها في جوهرها ولكنها تبادت الى درجة أبعد . أما تطبيقها على مسألة الحروب العادية فانه يتوقف على عوامل الزمن ، والمسافة ، والقوة . فبينما هي صورة من صور الحصر سريعة ونشيطة اذ هي بطبيعتها أبطأ في احدثات تأثيرها من استراتيجية الحسم ومن ثم اذا كانت الظروف القومية تجعل الحسم أمرا لا بد منه فالظاهر أن استراتيجية الحسم هي الأفضل . ولكن مالم يكن السعى وراء الغاية باقتراب غير مباشر فالتوقع أن الأخيرة تكون أبطأ ، وأكثر كلفة ، وأشد خطرا من استراتيجية ”لورنس“ ثم ان ضيق المكان وغزارة القوة هما أيضا عائقان ، وان كان عدم التغلب عليهما من الأمور النادرة . فالقرار الصائب هو أنه في الحروب العادية تختار صورة الاقتراب غير المباشر الذي يرمى الى سرعة الحسم ”بنصب شرك“ للعدو ، متى قوى الأمل بنجاحه . وبخلاف ذلك ، أو بعد فشله ، فان الخيرة يجب أن تقع على صورة الاقتراب غير المباشر الذي يرمى الى الحصول على الحسم في آخر الأمر بتقويض قوة العدو و ارادته . فان كل شيء أفضل من الاقتراب المباشر .

ولم تتع الفرصة لا كمال استراتيجية الثورة العربية الى نهايتها . ففي سبتمبر سنة ١٩١٨ بعد أن أضعفت القوات التركية التي كانت على خط المجاز حتى صيرتها في حالة شلل يرثى لها غابت القوات التركية الرئيسية بفلسطين بضربة واحدة حاسمة . ومع ذلك ففي هذه الضربة التي أنزلها اللنبي لعبت القوات العربية دورا هو على الأقل جدير بالذكر .

أما فيما يختص بنوع العمليات الختامية في فلسطين وهل هي حملة حربية . أم معركة أتمها التعقب فذلك ما لا يمكن الحكم فيه . لأنها ابتدأت والقوى متماسة وتم النصر قبل أن ينقسم التماس . ولذا فالظاهر انها تقع في فئة المعارك . غير أن احراز النصر كان بوسائل استراتيجية بصفة رئيسية ، ولم يكن نصيب القتال فيها مما يستحق الذكر .

وقد أدى ذلك الى الخط من قيمة النتيجة خصوصا بين الذين يقدررون القيمة بحسب عقيدة "كلاوزيفتر" أى ان الدم هو ثمن النصر . واذا كان "اللنبي" قد تفوق على خصمه في الرجال بنسبة أكثر من اثنين الى واحد ، وأقل من ذلك في المدافع . فان الفرق الذى كان في جانبه لم يكن بالدرجة التي كانت في الأصل حينما بدأ الزحف البريطاني الى فلسطين وهو الذى انتهى الى الفشل . وكثيرا ما أخفقت الحركات التعرضية في الحرب العالمية وقبلها وكان التفوق في القوة في جانبها مثل هذا التفوق .

وهناك "خط من القيمة" أكثر أهمية من السالف . سببه أن قوة الأتراك المعنوية كانت قد انحطت . ولكن بعد مراعاة كل شئ في ظروف شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ التي كانت توجب الرضاء ، فان هذه العمليات جديرة بأن تسطر بين الأعمال المحيدة التي سطرها التاريخ من حيث اتساع دائرة مرمى النظر ، والمعالجة . واذا كان الموضوع في حد ذاته ليس صعبا فان الصورة التي رسمت تكاد تكون وحيدة في نوعها بصفقتها ابتكارا بلغ حد الكمال ونفذ على أكمل وجه ولو في جملته .

فقد جاءت الخطة مطابقة بدرجة عظيمة لتعريف "ويلسون" عن الاستراتيجية وهو أنها "دراسة المواصلات" وللقول المأثور عن نابليون وهو : "ان كل سرفن الحرب هو في أن يجعل الانسان نفسه سيدا على المواصلات" لأنها (أى الخطة) كانت ترمى الى جعل البريطانى سيدا على كل المواصلات التركية في كل صورها . فان قطع خطوط مواصلات الجيش معناه اصابة تنظيمه المادى بالشلل ، وسد خط رجعتة معناه اصابة تنظيمه المعنوى (الأدبى) بالشلل . وتلاف خطوط "مواصلاته الداخلية" التي تمر منها الأوامر والأخبار (التقارير) معناه اصابة تنظيمه الحسى بالشلل ، وهو الاتصال الجوهرى بين المخ والجسم . وهذا الشق الثالث سمى له القوة الجوية وأحرزته . فقد طردت طيارات العدو من الجو فصيرت قيادته عمياء . ثم ألقت قنابلها على المركز الرئيسى لخبراتها التنغرافية والتليفونية فصيرتها حماء

بكاء . وقد جاء الطور الثاني في هذا القتال على أثر قطع العرب للسكة الحديدية الرئيسية في "درعا" فكان لهذا القطع تأثير مادي هو منع تدفق المؤن التركية موقتا — والمنع الموقت كان كل ما بهم في ذلك الحين — وتأثير عقلي هو حض القيادة التركية على ارسال جزء من جنودها الاحتياطية الضئيلة الى هناك قبيل حرمانها من قوة السيطرة عليها .

فان ما يسمونه الثلاثة "الجيش" التركية كانت تعتمد على شريان واحد للمواصلات هو خط حديدي مفرد من دمشق يفترق في "درعا" فيمتد خط منه جنوبا الى الحجاز ويتجه الآخر غربا عبر نهر "الأردن" الى "الأفولة" وهناك يشعب منه فرع نحو البحر فيصل الى حيفا وآخر نحو الجنوب مرة أخرى حتى رأس الخط الحديدي الخاص بالجيشين التركيين السابع والثامن . أما الجيش الرابع الموجود شرقي نهر "الأردن" فكان يعتمد على فرع الحجاز . والاستيلاء على "الأفولة" وعلى معبر "الأردن" في "بيسان" يقطع مواصلات الجيشين السابع والثامن كما يسد خطي رجعتهما فيما عدا المنفذ الوعر المؤدى الى الجزء الخراب الواقع شرقي "الأردن" والاستيلاء على "درعا" يقطع مواصلات كل الثلاثة للجيش ، وأحسن خط لرجعة الجيش الرابع .

أما "درعا" فكانت بعيدة عن متناول الجبهة البريطانية وكان ذلك في وقت قصير لدرجة تجعل لقصره تأثيرا هاما على النتيجة . ولحسن الحظ ظهر العربان من جوف الصحراء كما تظهر الأشباح الخيالية واثين على كل خطوطها الحديدية الثلاثة فقطعوها . غير ان لا طبيعة التكتيكات العربية ، ولا طبيعة البلاد ، ولا طبيعة "درعا" كانت مما يساعد على اقامة حاجز استراتيجي عبر مؤخرة الأتراك . وبما أن اللبني كان يسعى للحصول على حسم سريع تام كان لا بد له أن يبحث عن مكان أقرب لاقامة مثل هذا الحاجز . مكان يمكن الانتفاع فيه بنهر "الأردن" وسلسلة الجبال الواقعة غربيه للخيولة دون خروج الأتراك منه . وكانت محطة اتصال السكة الحديدية الموجودة في "الأفولة" وجسر (كوبري) نهر "الأردن" الموجود بالقرب من "بيسان" كلاهما على مسافة نصف قطر دائرة طوله ٦٠ ميلا . ومن ثم في نطاق "وثبة" استراتيجية تقوم بها السيارات المدرعة والفرسان على شريطة الوصول الى هاتين القطعتين الحيوتين دون عائق . فكانت المسألة والحالة هذه هي إيجاد خط اقتراب يصعب على العدو اقامة العراقل فيه في الوقت الملائم . ثم التأكد من ذلك . فعلى أي صورة حلت هذه المسألة ؟ كان سهل "شارون" الساحلي المسطح بمثابة ردهة أمامية لسهل "ازدرالون" وادي "جزريل" حيث تقع كل من "الأفولة" و"بيسان" وهذه الردهة لا عائق فيها سوى باب واحد يقع بعيدا الى الورا لدرجة أنه ترك من غير حراسة وهو مكون من المنطقة الجبلية الضيقة التي تفصل سهل "شارون" الساحلي من سهل "ازدرالون" الداخلي . غير أن المدخل الموصل الى الردهة الأمامية قد أغلقه الأتراك وأصدوه بمتاريسهم .

وهنا ثابر "النبى" فى "استعداداته النفسية" مدة طويلة مثابرة حلت فيها الحيلة والخدعة محل القنابل الى أن حول انتباه الأتراك عن الساحل الى جناح نهر "الأردن" والذي ساعده على ذلك هو اخفاق المحاولتين السابقتين للزحف شرق "الأردن" فى فصل الربيع . وفى سبتمبر بينما كان انتباه الأتراك ما زال موجها نحو الشرق ، ركزت جنود "النبى" تنتقل سرا نحو الغرب حتى ازدادت نسبة تفوقهم عددا على العدو فى القطاع القريب من الساحل من اثنين الى واحد الى أن صارت خمسة الى واحد . وفى ١٩ سبتمبر زحف المشاة بعد أن استمر ضرب المدافع بدرجة شديدة لمدة ربع ساعة واكتسحت متاريس الأتراك التى كانت على مجموعتين بسيطتين . ثم دارت دورة الى الداخل كما يدور باب مهول على مصلاته . واندفع الفرسان من الباب المفتوح موالين الضغط وساروا فى الردهة تقدمهم سياراتهم المدرعة فاستولوا على الممرات الموصلة الى سهل "إزدرالون" . وهذا المرور الموفق مدين فى نجاحه بشيء كثير لما قامت به القوة الجوية من جعل قيادة العدو صماء ، بكاء ، عمياء . وفى اليوم التالى أقيم الحاجز الاستراتيجى عبر مؤخرة الأتراك . والمنفذ الوحيد الذى تبقى لهم هو نحو الشرق فوق نهر الأردن . وكان فى امكانهم الوصول اليه لولا القوة الجوية ، إذ أن زحف المشاة المباشر كان بطيئا أمام المقاومة العنيفة التى قامت بها مخافر الأتراك الخفيفة . وفى الصباح المبكر من يوم ٢١ سبتمبر تعرفت الطائرات البريطانية على قول عظيم — هو فى الواقع جميع من بقوا على قيد الحياة من الجيشين التركيين — يسير فى ليات الوهد العميق الموصل من "نابلس" الى نهر "الأردن" . فهاجمته لمدة أربع ساعات صار بعدها هذا الموكب هامدا جامدا . ومن تلك اللحظة يصبح القول بانعدام « الجيشين » السابع والثامن . أما ما حصل بعد ذلك فلم يزد عن مطاردة قطع من المشاة .

وأما فى شرق "الأردن" حيث لا يستطيع إقامة حاجز استراتيجى فقد كث مصير « الجيش » الرابع الى الانهالك السريع تحت ونز الابرالمستديم . دلا من الاجهاز عليه اجهازا بالمعنى الصحيح . وأعقب ذلك الاستيلاء على دمشق . وعندها استغل النصر بالزحف الى "حلب" وما كادت الجنود تصل اليها حتى سلمت تركيا مدفوعة بعامل التهديد القريب الواقع عليها بانهيار بلغاريا ، وباقترب "ملن" من سلانيك الى استانبول ومؤخرتها .

والذى يلاحظه من يحلل هذا النصر الحاسم الذى أحرز فى فلسطين هو أن الأتراك كان ما يزال فى طاقتهم أن يعوقوا مشاة البريطانيين ويوقفوهم الى أن علموا بالحاجز الاستراتيجى الذى أقيم على مؤخرتهم فأحدث ذلك التأثير الأدبى الذى لا بد منه ولا معدى عنه . ويلاحظ أيضا أنه بسبب وجود حالة حرب الخادق من بادئ الأمر كان لا بد من أن يقوم المشاة بتحطيم هذا الرجاج . ولكن مجرد اعادة الحرب الى حالتها المعتادة أمكن احرار النصر بالعناصر الخفيفة

الحركة التي لم تكن الاجزاء من مجموع القوة . فالدهاء الذي اتصف به هذا المثال الخاص من الاقتراب غير المباشر كان قاصرا على التمهيد . أما تنفيذه فكان متوقفا على مجرد تطبيق خفة الحركة التي من شأنها أن تزحزح العدو وتدمر قوته المعنوية . ولما كانت هذه الخفة بدرجة متطرفة فقد جاءت مفاجئة من أول الأمر الى آخره .

وهناك مسرح آخر في الجنوب الشرقى يحتاج الى ملاحظة عارضية — ذلك هو مسرح سلانيك . فان ارسال جنود الحلفاء اليه نشأ عن محاولة غير مثمرة تأخرت عن أوانها هي محاولة ارسال مدد الى بلاد الصرب في خريف سنة ١٩١٥ وبعد ذلك بثلاثة أعوام كانت سلانيك منشأ حركات تعرضية كانت لها نتائج حيوية . غير أنه لما كان الاحتفاظ بموطئ قدم في البلقان أمرا ضروريا في كل هذه الفترة لأسباب سياسية ، وأخرى تستند الى استراتيجية في دائرة الاحتمال ، فان الأمر الذي هو موضع الشك هو الحكمة في حجز عدد كبير من الجنود كهذا العدد الذي بلغ أخيرا نصف مليون وضرورة إبقائه محجوزا كل هذه المدة في مكان سماه الألمان من باب السخرية « أكبر معسكر للاعتقال » أى أكبر معتقل للجنود .

الباب الرابع عشر

استراتيجية سنة ١٩١٨

تتوقف أية دراسة لحجى الشؤون العسكرية فى السنة النهائية على فهم الموقف البحرى السابق لها ، فكل منهما مرتبط بالآخر . لأنه لما لم يحصل حسم عسكرى مبكر ، أخذ الحصر البحرى يتحكم فى الموقف العسكرى تحكما صار يزداد على توالى الأيام .

وفى الواقع فان مؤرخ المستقبل اذا اضطر لأن يختار يوما ليعتبره اليوم الحاسم للحرب العالمية فمن المحتمل أنه يختار اليوم الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩١٤ — قبل أن تبتدى الحرب من ناحية انجلترا — حينما أرسل المستر " ونستون تشارتشل " أمره فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحا ، بتعبئة البحرية البريطانية . فهذه البحرية لم تكن لترى معركة " طرفلجار " (الطرف الأغر) مرة ثانية ، ولكن كان مقدارا لها أن تعمل أكثر من أى عامل آخر لكسب الحرب بجانب الحلفاء . لأن البحرية كانت آلة الحصر البحرى . وكلما زالت غيوم الحرب وانقشعت فى ضوء هذه السنين التى أعقبت الحرب وانكشفت غيومها كلما تبين أن الحصر البحرى كان له أثر أخذ يزداد شيئا فشيئا . ويتضح بلاء أنه كان العامل الحاسم فى النضال . فشبه كمثل ذلك « القميص » الذى كانوا يستعملونه فى سجون أمريكا لتأديب شرسى الأخلاق من المسجونين اذ كان يزداد ضيقه تدريجيا فيبدأ بالتضييق على حركات السجين ، ثم يخذ انفاسه . فى حين انه كلما زاد ضيقا وطال بقاء ذلك الضيق نقصت قوة مقاومة السجين وزادت قوته المعنوية خورا لشعوره بالضغط .

والعجز يستجلب العجز ، ويشهد التاريخ أن فقدان الأمل لا فقد الأرواح هو العامل الحاسم فى نتيجة الحرب . وليس من المؤرخين من لا يقدر التأثير المباشر الذى أحدثته شبه المجاعة بين الشعب الألماني تمام التقدير ، وتسبب عنه انهيار « الجبهة — الوطنية » . ثم لندع جانبا مسألة ما كان للثورة من الأثر فى الهزيمة العسكرية ، بدلا من العكس . فان عامل الحصر البحرى وهو العامل الذى لا يمكن أن يمس والذى ساد على كل شيء كان له أثره فى الموقف العسكرى من حيث أى اعتبار كان .

فالواقع هو أن التهديد الذى أصبح حصوله فى دائرة الامكان من جراء الحصر البحرى ، ومن المحتمل أنه لم يكن تأثيره نفسه ، هو الذى أرغم ألمانيا على القيام بحملة الغواصات لأول مرة فى فبراير سنة ١٩١٥ وهى التى حفزت بريطانيا الى اطلاق « تصريح لندن » من عقاله لزيادة تضيق الحصر البحرى — مطالبة بحققها فى التعرض لكل السفن المشتبها بأنها تحمل بضائع لألمانيا وتفتيشها — ولكن ألمانيا بنسفها السفينة « لوزيتانيا » بالطور بيد هيئات للولايات

المتحدة سببا دافعا لها لدخول الحرب، وإن كان ذلك السبب جاء متأخرا . فضلا عن أنه كان مزينا لما كان من الاحتكاك بين بريطانيا والولايات المتحدة من جراء زيادة تضيق الحصر البحري . وبعد ذلك بسنتين كان الضيق الاقتصادي المتسبب عن الحصر البحري باعنا على مصادقة قادة ألمانيا العسكريين على تجديد حملة الغواصات « من غير حد » تجديدا في غاية الشدة . وكان اعتماد بريطانيا في تموين شعبها واعاشة جيوشها على مايرد إليها عن طريق البحار نقطة ضعيفة في درعها الواقى . ثم إن تأثير الغواصات الذى هو بطبيعته أسرع من غيره في تنفيذ الحصر البحري قوى حجة القائلين بأن هذا الاقتراب غير المباشر القائم على الاستراتيجية العظمى ستكون ضربته ممتدة . وإذا كان هذا الحساب قد ظهر خطؤه فإن بريطانيا كانت على وشك أن تثبت صحته . فقد زادت الخسائر في السفن من ٥٠٠,٠٠٠ طن في شهر فبراير الى ٨٧٥,٠٠٠ في أبريل . ولما اتخذت التدابير المضادة مضافا إليها قلة موارد ألمانيا في الغواصات وعدم كفايتها فانقصت هذا المقدار تدريجيا ، كان الموجود من الأطعمة لدى بريطانيا لا يكتفى لتموين أهلها إلا لمدة ستة أسابيع أخرى .

فإن آمال قادة ألمانيا في الحصول على حسم اقتصادى كان لها رد فعل على خوفهم من الانهيار الاقتصادى وأدت بهم الى افتتاح حملة الغواصات مدركين كل الإدراك ما فى ذلك من المجازفة باستجلاب الولايات المتحدة لدخول الحرب ضدهم راضين به كأمر يكاد يكون محققا . وهذه المجازفة أصبحت حقيقة في ٦ أبريل سنة ١٩١٧ ، ومع أن قوة أمريكا العسكرية كانت تحتاج الى وقت طويل تنهيا فيه ، كما حسب الألمان ، فإن دخولها الحرب كان له تأثير سريع في زيادة وطأة الحصر البحري . فلما أصبحت الولايات المتحدة شريكة في الحرب تناولت هذا السلاح الاقتصادى واستعملته بعزيمة صادقة ضاربة صفحا عن تبقى محايدا من الدول ، وفاق أشد مزاعم بريطانيا جرأة في محاولات السنين الماضية فيما يختص بحقوق المحايدين . ومن ذلك الوقت لم يلق الحصر البحري عائقا من معارضة المحايدين . بل على العكس فإن تعاون أمريكا حوله الى تضيق خانق رزحت تحته ألمانيا فأخذ يستنزف صلابتها حتى تراخت أعصابها ، بما أن القوة الحربية تقوم على أساس الجلد الاقتصادى — وهى حقيقة كثيرا ما أغفلت . والحصر البحري قد يدخل في فئة الاستراتيجية العظمى القائمة على الاقتراب غير المباشر والتي لا تستطاع مقاومتها مقاومة مثمرة . وهى من طراز لا مجازفة فيه إلا من حيث ببطء تأثيره . ومع ذلك فإن تأثيره يطابق قانون القوة الطاردة التى تنزع الى ازدياد السرعة كلما استمرت . وفى نهاية سنة ١٩١٧ أحسست به دول الوسط بدرجة شديدة . وهذا الضغط الاقتصادى هو الذى استدرج ، بل اضطر ، ألمانيا الى القيام بالحركات التعرضية في سنة ١٩١٨ التى بمجرد ما فشلت أصبحت انتحارا . فلما لم تتح لها حركة جديدة لعند الصلح لم يبق لها خيار بينها وبين الضعف البطل ، يستولى عليها الى أن ينتهى بانهارها .

فلو أنها عقب معركة "المارن" في سنة ١٩١٤ ، أوفيا بعدها، انتهجت سياسة حربية قوامها الدفاع في الغرب والتعرض في الشرق ، لكان من الممكن أن تنتهى الحرب على غير ما انتهت إليه . لأنها من جهة كان في امكانها من غير شك أن تحقق حلمها في "أوروبا الوسطى" ، ومن جهة أخرى كان اذ ذاك الحصر البحري ما يزال رخوا وما كان في الامكان تشديده بدرجة مثيرة مادامت الولايات المتحدة خارج حلقة الحرب . ومتى صارت كل منطقة أوروبا الوسطى تحت سيطرتها . وخرجت روسيا من الحرب ، حتى ولو كانت ألمانيا تابعة اقتصاديا أى متوقفة اقتصاديا على غيرها . فليس هناك سوى اعتقاد ضعيف بأن مساعي كل من بريطانيا ، وفرنسا ، وإيطاليا كان في امكانها أن تفعل شيئا أكثر من حصص ألمانيا على التزل عن بلاد البلجيك وشمال فرنسا ، وهما موضوع المساومة ، نظير ابقائها ماربحتة في الشرق لنفسها لاينازعها فيه منازع ، حتى اذا تيسر ذلك لهذه الدول . ثم ان ألمانيا وهى أكبر مما كانت ، وأكبر أيضا من حيث القوة والموارد اللذين يصبحان في مقدورها ، تستطيع أن تتجاوز عن رغبتها في الحصول على نصر حاسم على الحلفاء الغربيين . وفي الحقيقة فإن التجاوز عن الغايات التي لا تستحق ما يبذل في سبيلها هو الفرق بين الاستراتيجية العظمى والبلاهة المنعظمة .

غير أن في سنة ١٩١٨ كانت الفرصة قد أفانئت ، وكان تجلدها الاقتصادي نقص نقصا كبيرا وأخذ تضيق الحصر البحري يضعفها بأسرع ما كان يعوضه عليها ما يأتيا من موارد البلاد التي فتحتها مثل "رومانيا" و"أوكرانيا" .

فهذه هي الظروف التي حصل فيها التعرض الألماني الأخير . وما هو الا آخرهم في كراتهم للحصول على حسم نسكري منقذ . فان اخلاء الجنود من الجبهة الروسية جعل التفوق في جانبهم ، وان كان أقل بكثير من تفوق الحلفاء في حملاتهم التعرضية . ففي مارس سنة ١٩١٧ اصطفت ١٧٨ فرقة فرنسية ، وبريطانية ، وبلجيكية مقابل ١٢٩ فرقة ألمانية . وفي مارس سنة ١٩١٨ تواجدت ١٩٢ فرقة ألمانية مقابل ١٧٣ فرقة من الحلفاء — بما فيها الفرق الأميركية المزدوجة التي وصل منها أربع فرق ونصف فرقة . واذا كان في استطاعة الألمان أن يأتوا بوضع فرق أخرى من الشرق ، فان فيض الجنود الأميركية الذي بدأ رشاشا تطور حتى صار سيلا منهمرا تحت ضغط الحاجة الماسة . ومن مجموع الجنود الألمانية كان يوجد ٨٥ فرقة ممن يسمون «فرق الاقتحام» كانت احتياطيا . وكان احتياطي الحلفاء ٦٢ فرقة — ولكنها كانت من غير سيطرة مركزة . لأن التدابير الوقائية التي يقتضيها إيجاد احتياطي عام ، التي اتخذت لايحاد ٣٠ فرقة تحت أمر لجنة "فرسايل" العسكرية التنفيذية اختل نظامها حينما أعلن "هايج" أنه لا يقدر أن يقدم نصيبه منها وهو ٧ فرق . ولما جاءت التجربة اختل الاتفاق الذي كان بين القائد الفرنسي والبريطاني على مساعدة كل منهما الآخر . فخلت الكارثة بأسرع ما كان متظرا . وعلى أثر ذلك اقترح "هايج" تعيين "فوش" ليضع الجيوش المتحالفة على قدم المساواة ويوفق بينها في نأدي الامر ثم يتولى قيادتها العامة بعد ذلك .

وكانت خطة الألمان تمتاز بالبحث عن مفاجأة تكتيكية أدق وأبعد مرمى مما سبق في كل عمليات الحرب . ومما تمدح عليه القيادة الألمانية ورجال أركان الحرب منهم أنهم أدركوا أن الشيء الواضح فيه عائق لا تعوضه زيادة القوة ، ومتى وجد العائق قل أن تستطيع هذه القوة التغلب عليه . وأن المفاجأة المثمرة لا يمكن الحصول عليها الا باشتراك عناصر خادعة اشتركا يقوم على الدهاء والحيلة . وأن بغير هذا الاشتراك وهو المفتاح لا يستطيع فتح ثغرة في الجبهة المغلقة منذ زمن طويل . وكان العنصر الرئيسى من هذه العناصر هو اطلاق قنابل الغاز لفترة قصيرة ولكن بشدة متناهية . وكان "لودندورف" قد فاته ادراك ما للدبابة من التأثير فلم يرقها في اوقت المناسب . ولكن زيادة على ذلك كانت جنود المشاة قد تدربت على تكتيك حديث لمرورها من الفتحات التى توجد . والفكرة الرئيسة فيه هى أن تتحسس الجنود الأمامية وتتفقد من المقط الضعيفة الموجودة في دفاع العدو ، بينما أمرت الجنود الاحتياطية أن تعصد الفوز ولا تستعيص عن الفشل أى أن تقوى الجنود الناجحة ولا تحاول تعصيد الذين لا ينجحون . والفرق المقتحمة تتقدم الى مواضع الهجوم أثناء الليل . ثم يؤتى بكّل المدفعية قريبا من الخط الأمامى في تستر وخفاء . وتفتح نيرانها دون أن يسبقها تمهيد « تسجيل » (أى ضبط المرمى وما الى ذلك) . وعلاوة على ذلك فإن استعدادات الهجمات المتوالية التى تتعاقب وراء بعضها بعضا في النقاط الأخرى من شأنها أن تحير المدافعين في حين تبقى على استعداد لما يأتى به المستقبل .

ولكن ليس هذا كل شيء . فإن "لودندورف" كان قد استنتج من تجارب حركات الحلفاء التعرضية التى حصصت على غير طائل أن « من الضروري مراعاة التكتيك قبل مراعاة الاغراض الاستراتيجية التى من العيب التوجه اليها ما لم يكن الفوز التكتيكى في الامكان » . وهذه حقيقة لاشك فيها ما دام ليس هناك اقتراب استراتيجى غير مباشر . ومن ثم كانت التكتيكات الحديثة في الخطة الألمانية لا بد أن تصحبها استراتيجية حديثة . لأن كلا منهما يستنتج من الآخر . وكلاهما قائم على مبدأ حديث أو تجدد بعد هجر — هو اتباع خط أقل مقاومة (أى الخط الذى تكون فيه المقاومة أقل مما في غيره) . ولكن ظروف سنة ١٩١٨ في فرنسا جعلت مجال أقل الخطوط انتظارا (الخط الذى لا يتوقع العدو منه الهجوم) . محدودا فضلا عن أن "لودندورف" لم يحاول أن يسلكه . ولكن مع وجود الجيوش المتعاربة منتشرة أمام بعضها بعضا ومتنامسة على طول خط المماريس الشاسع الامتداد فان اختراق أحد الطرفين خط الطرف الآخر بسرعة واسراعه في استغلال هذا النفوذ على طول الخط الذى يكون أقل مقاومة من غيره قد يؤدى به الى غاية هى في العادة لا يمكن الوصول اليها الا بسلوك خط هو أقل ما ينتظره العدو (أى أقل الخطوط انتظارا) .

أما النفوذ فقد كان سريعا وأما الاستغلال فجاء على عجل . ومع ذلك فإن الخطة فشلت . فما هو مكان الخطأ ؟ فالانتقاد العام الذى حصل على أثر هذا الحادث وبعد الحرب هو أن التحيز التكتيكي أدى " لودندورف " لأن يغير اتجاهه ويشنت قوته لكي يحشد جنوده على النجاح التكتيكي . على حساب الغاية الاستراتيجية . فكان يظهر ، وقد قيل : أن ذلك المبدأ خاطئ . غير أن فحص الأوراق الرسمية الألمانية عن كشب وهى التى أصبحت فى اليد ، والأوامر التى أصدرها " لودندورف " نفسه والتعليمات التى أعطاهها ، كل هذه تلقى ضوءا جديدا على هذه المسألة . والذى يظهر ، فى الواقع ، هو أن الخطأ الحقيقى فى أن " لودندورف " لم ينفذ عمليا المبدأ الذى اتجهه نظريا . فهو إما أنه لم يدرك تماما مغزى هذه النظرية الاستراتيجية الحديثة ، وإما أنه خشى عواقبها . لأنه فى الواقع شنت جزءا كبيرا من جنوده الاحتياطية أكثر مما يلزم جريا وراء اصلاح فشله التكتيكي والاستعاضة عنه . ثم أنه بقى مترددا ، أطول مما يلزم ، فى البت فى أمر استغلال فوزه التكتيكي .

فإن المصاعب ابتدأت حتى فى اختياره نقطة للهجوم . وهذا الهجوم كلفت به الجيوش السابع ، والثانى ، والثامن على جبهة اتساعها ٤٧ ميلا بين " اراس " و " لافير " . وكانت الفكرة تمحوم حول أحد اقتراحين : أحدهما الهجوم على جانبي زاوية " فردون " الخارجة ولكنه رفض بحجة عدم صلاحية الأرض ، وأن اختراق خطوط العدو لا يكاد يؤدي الى نتيجة حاسمة ، وأن الجيوش الفرنسى قد استعاد قوته ونشاطه بدرجة فائقة بعد أن قضى نحو سنة فى دور النقاها لايزعجه شيء . والآخر هجوم بين " اير " و " لير " وهذا الاقتراح وإن كان وقع لدى " وتسل " ، المستشار الاستراتيجى " لودندورف " موقع القبول وعضده البرنس " روبرخت " قائد الجبهة بين " سان كوانتان " والبحر إلا أنه رفض بحجة أنه ياتى بكلفة الجيش البريطانى الرئيسية ، وأن الأرض المنخفضة يتأخر جفافها .

فوقع الاختيار على قطاع " اراس " " لافير " بسبب أنه فضلا عن ملائمة أراضيه فانه كان أضعف قطاع فى دفاعاته ، ومدفعيه ، وجنوده الاحتياطية . وعلاوة على ذلك فقد كان قريبا من نقطة اتصال الجيوش الفرنسى والبريطانى . وكان فى مأمول " لودندورف " أن يفصلهما عن بعضهما ثم يسحق الجيش البريطانى سحقا لا يعتقد أنه قد ضعف ضعفا كبيرا لسبب ما بذله من المجهود فى " اير " . ولكن مع كون هذا القطاع ضعيفا نسبيا حقيقة بصفة عامة فإن التفصيل كان منحلا وليس قرين الصحة . فإن ثلثه الشمالى كان قويا وكانت ترابط به قوة كبيرة هى الجيش الثالث البريطانى وقوامه ١٤ فرقة (٤ فرق احتياطى) بينما كان سواد الجنود الاحتياطية البريطانية موجودا فى ذلك الجناح فضلا عن امكان وصول المدد ، وقد وصل فعلا اليه من الجيوش البريطانية الأخرى التى كانت جهة الشمال أسرع من وصولها الى غيره . أما الثلثان الباقيان من هذا القطاع الذى نزلت به الضربة الألمانية فكان يربط

فيهما الجيش الخامس البريطاني وكان يربط في القسم الوسطى منه الذي يحاذيه الجيش الثاني الألماني ٧ فرق (٢ احتياطي) والجزء الجنوبي المجابه للجيش الألماني الثامن عشر كان يربط فيه ٧ فرق (فرقة احتياطي) .

غير أن "لودندورف" أعطى جيشه السابع عشر الموجود بالقرب من "أراس" ١٩ فرقة للهجوم الافتتاحي ، يمتدحه الأيسر فقط ، على جبهة اتساعها تسعة أميال ونصف ميل ، وجنوبي منه جاء الجيش الثاني . ولما كان مقررا أن الزاوية الخارجية البريطانية الكثيفة جهة "كبراي" لا تهاجم هجوما مباشرا ، بل تترك بارزة الى الأمام ، كان هذا الجزء البالغ اتساعه ٤ أميال محتلا احتلالا وافيا بفرقتين ألمانيتين . وكان مع الجيش الثاني ١٨ فرقة لجبهة هجومه وهي تسعة أميال ونصف ميل . ثم جاء الجيش الثامن عشر في منتهى الجنوب وعلى كلا جانبي "سان كوانتان" وقد أعطاه "لودندورف" ٢٤ فرقة فقط ليهاجم بها جبهة اتساعها ٢٠ ميلا . ومن ذلك نرى أن قوته كانت نصف قوة الجيشين الآخرين النسبية . فهو على الرغم من المبدأ الذي اتبعه كان يوزع قوته بحسب قوة العدو . ولم يحشدها أمام أضعف مقاومة . وقد أكد ذلك بالأكثر ، الاتجاه الذي أعطاه في أوامره . فكان المقرر أن يبذل المجهود الرئيسي شمالي نهر "السوم" . وكان على الجيشين السابع عشر والثاني بعد نفوذهما من الخط واختراقه أن يدورا الى الشمال الغربي ويضغظا الجيش البريطاني فيدفعاه الى الوراء نحو الساحل ، في حين كان النهر والجيش الثامن عشر يحترسان الجناح . أما الجيش الثامن عشر فكان عبارة عن مجرد حرس جنبي تعرضي . وهذه الخطة قضى عليها بأن تتغير تغيرا كليا في التنفيذ وأن يكون لها مظهر اتباع أقل الخطوط مقاومة لأن "لودندورف" نال فوزا سريعا حيث كان يرغب قليلا ، وأخفق حيث أراد الفوز أكثر مما في أي مكان آخر .

فبدأ الهجوم في ٢١ مارس وقد ساعد على المفاجأة وجود ضباب في الصباح المبكر. ولكن بينما نجحت الهجمة في النفوذ تماما جنوبي نهر "السوم" حيث كان الدفاع — وكذلك أيضا القوة المهاجمة — أضعف مما في أي مكان آخر ، أعيقت بالقرب من "أراس" . فكان لاعتاقها رد فعل على كل الهجوم شمالي النهر. فمثل هذه النتيجة كان شيئا مؤكدا. غير أن "لودندورف" تمادى في الاخلال بمبدئه الجليد وقضى الأيام التالية في محاولة بعث الحياة من جديد في هجمته على جبهة "أراس" الهسطينية، الجيدة التحصين والمدافعة ، مخفضا بهذا الاتجاه بصفته الخط الرئيسي لمجهوده. وفي نفس الوقت كان يقبض اليه عمان الجيش الثامن عشر الذي كان يزحف في الجنوب دون أن يلقى مقاومة جدية . وحتى في يوم ٢٦ مارس أصدر له أوامر يمنعه من عبور نهر "الآفر" وحتم عليه أن ينظم حركته على حركة جاره ، الجيش الثاني ، الذي كان هو الآخر متاخرا بسبب الجيش السابع عشر الذي كان تقدمه محدودا جدا بالقرب من "أراس" ، وهنا نرى أن "لودندورف" كان في الحقيقة مصمما على تحطيم الجيش البريطاني بتعطيم أقوى

قطاعاته مقاومة ، باقتحام مباشر . ولأن ذلك ملك عليه مشاعره أخفق في مسعاه حتى فات الأوان . وعندها ألقي بثقل جنوده الاحتياطية الى الخط الذي هو أقل الخطوط مقاومة ، جنوبى نهر "السوم" . ثم ان الدورة التي كان في النية القيام بها الى الشمال — الغربى ربما كانت حصلت لو أنها جاءت بعد الخلوص من الجناح أى فواته . وبذا يمكن توجيهها الى مؤخرة جبهة "أراس" البسطينية . وفي ٢٦ مارس ظهر أن الهجوم شمالى نهر "السوم" (الجناح الأيسر من الجيش السابع عشر والجناح الأيمن من الجيش الثانى) كان آخذاً في الضعف الذى هو ثمن النجاح الذى أحرزه بكل مشقة . أما جنوبى نهر "السوم" فكانت ميسرة الجيش الثانى قد وصلت الى صحرا ميادين نهر "السوم" القديمة ، فعرقلتها وأربكتها — اذ عطلت السير واستيراد المؤن . فالذى كان مستمرا في الزحف دون ابطاء هو الجيش الثامن عشر وحده .

وهذا الموقف أدى "لودندورف" لأن يتخذ خطة جديدة ولكنه لم يترك القديمة . فأصدر أوامره بالقيام بهجوم جديد مباشر في ٢٨ مارس على الأراضى المرتفعة القريبة من "أراس" تقوم به ميمنة الجيش السابع عشر ، ويعقبه هجوم يقوم به جيش سادس شمالى ذلك المكان مباشرة بين "فيمي" و "لاباسيه" . غير أن حسن الموقف جنوبى نهر "السوم" جعله يعين "أميان" لتكون الغاية التي يقصدها الجيش الثانى . وحتى حينذاك فانه منع الجيش الثامن عشر من الاندفاع ليلتف حول جناح المقاومة الآنية من "أميان" ، بدون أوامر جديدة ! فانه لما جعل "أميان" غرضاً اضافياً رئيسياً فلا بد من الاستيلاء عليها باقتراب مباشر فوق أرض وعرة .

وفي ٢٨ مارس بدأ الهجوم على "أراس" دون أن يحجبه ضباب أو تستره مفاجأة . وفشل فشلاً تاماً أمام المقاومة التي كان الجيش الثالث تحت قيادة "بنج" قد استعد لها استعداداً جيداً . وعندئذ فقط ترك "لودندورف" فكرته الأصلية ووجه مجهوده الرئيسى وبعض ماتبقى من جنوده الاحتياطية الى "أميان" . ولكنه في نفس الوقت أمر الجيش الثامن عشر بالبقاء في مكانه يومين . فلما تجدد الهجوم في ٣٠ مارس كانت قوته قليلة ولم يتقدم الا قليلاً أمام المقاومة التي تقوت وازدادت صلابة بما أتيح لها من الوقت ، وكانت تعاونها الجنود الاحتياطية التي أخذت تتدفق الى خط القتال الذى كان قد تقوس الى الداخل . وهذا هو أول يوم اشتبكت فيه مدفعية الألمان في القتال بكل قوتها بعد أن وصلت متأخرة عن المشاة . وقام الألمان في ٤ أبريل بمجهود آخر بمخسة عشر فرقة منها ٤ فقط كانت جديدة . فكان نجاحهم أقل من سابقه . وعند ذلك أوقف "لودندورف" الهجوم في اتجاه "أميان" خشية أن يضطر الى التدرج الى حرب الانهاك . وهو في ذلك كله لم يلق بقوته في أى وقت من الأوقات على طول خط الشق الذى بين الجيشين البريطانى والفرنسى . ومع كل فان "بيتان" فاتح "هايج" في ٢٤ مارس بأنه اذا استمر تقدم الألمان على طول هذا الخط فانه سيضطر الى سحب الجنود الفرنسية الاحتياطية نحو الجنوب — الغربى لتستر باريس . فلما أقل مقدار الضغط الذى كان الألمان في حاجة اليه

فوق ضغطهم ليحولوا الشق البسيط الى بون شاسع ! وهذا دليل آخر على الحقيقة التاريخية وهي أن الوصلة (أى مكان أو نقطة اتصال جيشين) هى أكثر النقاط احساسا وأصلحها للهجوم . وأيضا أن التفوذ بين قوتين أو وحدتين يكون أشد خطرا اذا كانت القوتان منضمتين كتفا لكتف مما اذا كانت احدهما منفصلة عن الأخرى وبعيدة عنها وكل منها قائمة بذاتها .

فأبقى "لودندورف" جزءا كبيرا من جنوده الاحتياطية مرابطا أمام القوس الواسع البارز الى الأمام جنوبى "أراس" ، والتفت الى اطلاق هجمة جديدة شمالها وان لم يكن وانقا منها كثيرا . ففى ٢٥ مارس كان قد أمر بإعداد هجمة ضيقة النطاق بين "لاباسيه" و"أرمنتير" لتكون خطوة فى سبيل توسيع الجزء الذى اخترقه . فانه بعد اخفاق هجومه على "أراس" فى ٢٨ مارس كان قد توسع فى خطته . فلهجوم جنوبى "أرمنتير" كان مقرا أن يعقبه هجوم آخر شمالها بعد ٢٤ ساعة يجعل المدينة بارزة الى الأمام . فلما صدر أمر الهجوم متأخرا لم يتم الاستعداد له الا فى ٩ أبريل ، وحتى فى ذلك التاريخ كان القصد منه مجرد تشتيت فكر العدو . غير أنه لما صادف نجاحا مدهشا سريعا ، ساعده عليه الضباب فى الصباح المبكر ، ضد قطاع صار ضعيفا ، أخذ "لودندورف" يحوله الى مجهود كبير شيئا فشيئا . ففى ٩ أبريل انقضت ٩ فرق ألمانية معها ٥ فرق أخرى احتياطية على فرقة واحدة برتغالية وفرقتين بريطانيتين على جبهة اتساعها ١/٢ ميل جنوبى "أرمنتير" . وفى اليوم التالى هجمت ٤ فرق شمالى "أرمنتير" على جبهة اتساعها ١/٢ ميل . ولما أخذت المقاومة تزداد صلابة جاءت فرق جديدة الى القتال وراء بعضها بعضا حتى بلغ عدد ما استخدم منها فى نهاية الأسبوع الأول من مايو ما ينوف على ٤ فرق . وبهذه الكيفية انحدر "لودندورف" الى حملة انهاك .

وكان البريطانيون على مقربة من قواعدهم ومن البحر بدرجة خطيرة ولكن مقاومتهم أوقفت سيل الألمان بعد أن غزوا عشرة أميال ووصلوا الى مكان قريب من محطة اتصال السكة الحديدية الهامة وهى "هازيروك" . وبعد ذلك حاول "لودندورف" ازال ضربة فى ١٧ أبريل تتلاقى لها جنوده على جانبي "اير" ، ولكن "هايج" سبقها بعمل غير مباشر وأبطل عملها ، بوجه التقريب ، بإدارة خطه الى الورا فى بحر الثمانية والأربعين ساعة السابقة لها . ولما خاب هذا المشروع عاد "لودندورف" الى هجوم مباشر محض جنوبى "اير" حيث كانت جنود الفرنسيين الاحتياطية قد وصلت لتسلم جزءا من الخط . ولما وقعت الضربة على الوصلة (نقطة اتصال الجيشين) شقتها فى "كيل هيل" ولكن "لودندورف" أوقف استغلالها خوفا من ضربة مضادة . وفى كل هذه المدة كان يقتصر فى ارسال جنوده الاحتياطية فتفصل متأخرة وقليلة العدد بدرجة لايتأتى معها نجاح . ويظهر أنه بعد فشل حركاته التعرضية الأولى زالت ثقته فى الثانية . وبعد أن بذل مجهودا أخيرا فى ٢٩ أبريل أوقف العمل . غير أنه كان ينوى أن يؤجل حركاته موقتا الى أن يستطيع أن يحرك الجنود الاحتياطية الفرنسية الى جبهتهم مصمما

بعد ذلك ان يضرب البريطانيون في "فلاندرز" ضربة نهائية حاسمة . فقد كان قبل ذلك أمر بالاستعداد للهجوم على قطاع "شمين — ده — دام" بين "سواسون وريمز" بنية القيام به في ١٧ أبريل . ولكن الاستعداد لم يتم الا في ٢٧ مايو — ويرجع بعض السبب في هذا التأخير الى كونه أحوال حركاته التعرضية في "فلاندرز" فترتب على أطلاتها استنزاف قوة جنوده الاحتياطية . وقد تلبأ فرع الاستعلام (المخابرات) من مركز الرئاسة العامة الأمريكية بالمكان الذي سيحصل فيه الهجوم وبتاريخه بوجه التقريب . ولكن لم يصغ أحد الى ما أنذر به هذا الفرع الا في ساعة متأخرة حينما أيد هذا الخبر أحد الأسرى في ٢٦ مايو . وحينذاك كان قد فات الأوان على تقوية الدفاع سوى وضع الجنود على قدم الاستعداد . ولكن هذا الانذار أمكن الجنود الاحتياطية من الشروع في الحركة . وفي اليوم التالي وقعت الضربة من ١٥ فرقة على ٧ فرق . ومع أن هذه المعجزة لم يساعدها أى حجاب من الضباب فانها اكتسحت ما أمامها ومرت فوق نهر "الين" فوصلت نهر "المارن" في ٣٠ مايو . ولكن حصل هنا أيضا أن نال "لودندورف" شيئا من الفوز لم يعد له عدة ولم يكن راغبا فيه . فالملفاجئ هو الذى فوجئ . وهذا الفوز الافتتاحي لم يقتصر على اجتذاب كمية عظيمة من الجنود الاحتياطية اليه أكثر مما يلزم بل أبطل تأثيرهم . لأن جنود الحلفاء الاحتياطية تحركت معهم في وقت واحد .

ومع ذلك فان مدى هذا الفوز الافتتاحي يستحق التحليل نظرا لعدم وجود ضباب . ولأن هذا الهجوم لم يكن زائدا في تفوق جنوده عددا عما سبقه الاشياء يسيرا . والذي يظهر هو أن السبب فيه يرجع بعضه الى تحويل انتباه الحلفاء وجنودهم الاحتياطية الى مكان آخر . وبعضه الى اتباع خط أقل مقاومة بدرجة بعيدة الحد في الدقة . وبعضه يرجع الى حماقة القيادة الفرنسية المحلية ، فانها أصرت على تجمع المشاة ككلا في المواقع الأمامية فكانت وهى مكدة طعمة لنيران مدافع الألمان . ثم ان المدفعية ، والجنود الاحتياطية المحلية ، ومركز رئاسة الدفاع كانت كلها الى الأمام أكثر مما يلزم . فكانت النتيجة أن وقع أعظم درجات الانهيار على أثر نفوذ الألمان من الخط . وبذلك استرد الهجوم تأثير المفاجأة التكتيكي الذي كان فقد بعضه في اليوم السابق لوقوعه . لأنه مادام أن الغرض من المفاجأة هو زحمة العدو فان تأثيرها واحد سواء كان العدو قد بوغت نائما بواسطة الخيلة ، أو سمح لنفسه بأن يقع في الشرك وعيونه مفتوحة .

وكان "لودندورف" الآن أوجد في جبهة الحلفاء تقويسين بارزين هائلين وآخر أصغر منهما ، وكانت محاولته التالية لإبراز قطاع "كوبينييه" الى الأمام (بضغط أجنباه وهو القطاع الواقع بين تقويسي "اميان" و"المارن" . ولكن في هذه المرة لم تحصل مفاجأة بخافت الضربة الموجهة الى غربي القطاع في ٩ يونيه متأخرة عن الضغط الحاصل جهة الشرق . وهنا حصل توقف لمدة شهر . وكان "لودندورف" يرغب أن ينزل ضربته الحاسمة التي كانت تتوق اليها نفسه منذ

زمن بعيد، بالبريطانيين الموجودين ببلاد البلجيك ولكنه رأى أن جنودهم الاحتياطية مازالت قوية ولذا عاد الى تصميمه على تشتيت أفكار العدو مرة أخرى مؤملا أنه اذا أنزل ضربة شديدة بالجنوب فانها تستجلب الجنود الاحتياطية البريطانية من مكانهم . وكان أخفق في ابراز قطاع "كومبنيه" الى الأمام غربى زاويته الخارجة الموجودة على "المارن" . فكان الآن على وشك محاولته نفس هذه الطريقة شرقى تلك الزاوية بأن يهاجم كلا جانبي "ريمز" ولكن كان في حاجة الى فترة للاستراحة والاستعداد ، فكان هذا التأخير فيه القضاء المبرم اذ أتاح للبريطانيين والفرنسيين فرصة يستعيدون فيها نشاطهم والأميركيين يستجمعون قوتهم .

ويصح القول بحق ان النجاح التكتيكي الذى نالته ضربات "لودندورف" كان سبب مصائبه بمعنى انه كان يتأثر بنجاح هذه الضربات ويتبادى في كل ضربة منها أطول وأبعد مما يلزم فاستنفذ جنوده الاحتياطية : وأوجد مسافة بين كل ضربة والأخرى ما كان يجب أن تكون ، ثم انه لم يتبع خط أقل درجات المقاومة ، بل كان يتبع خط المقاومة التى تزداد صلابه . لأنه بعد اختراقه الخط لأول مرة كانت كل هجمة من هجماته قد صارت اقترابا مباشرا محضا من الوجهة الاستراتيجية . وكان قد دفع ثلاثة أسافن عظيمة (أى نفذ بجنوده في ثلاثة مواضع) ولكن لم ينفذ منها واحد بالقدر الكافى لأن يقطع شريانا حيويا . وهذا الفشل الاستراتيجي أوجد فلولا في جبهة الألمان تستجلب الضربات المضادة الجانبية .

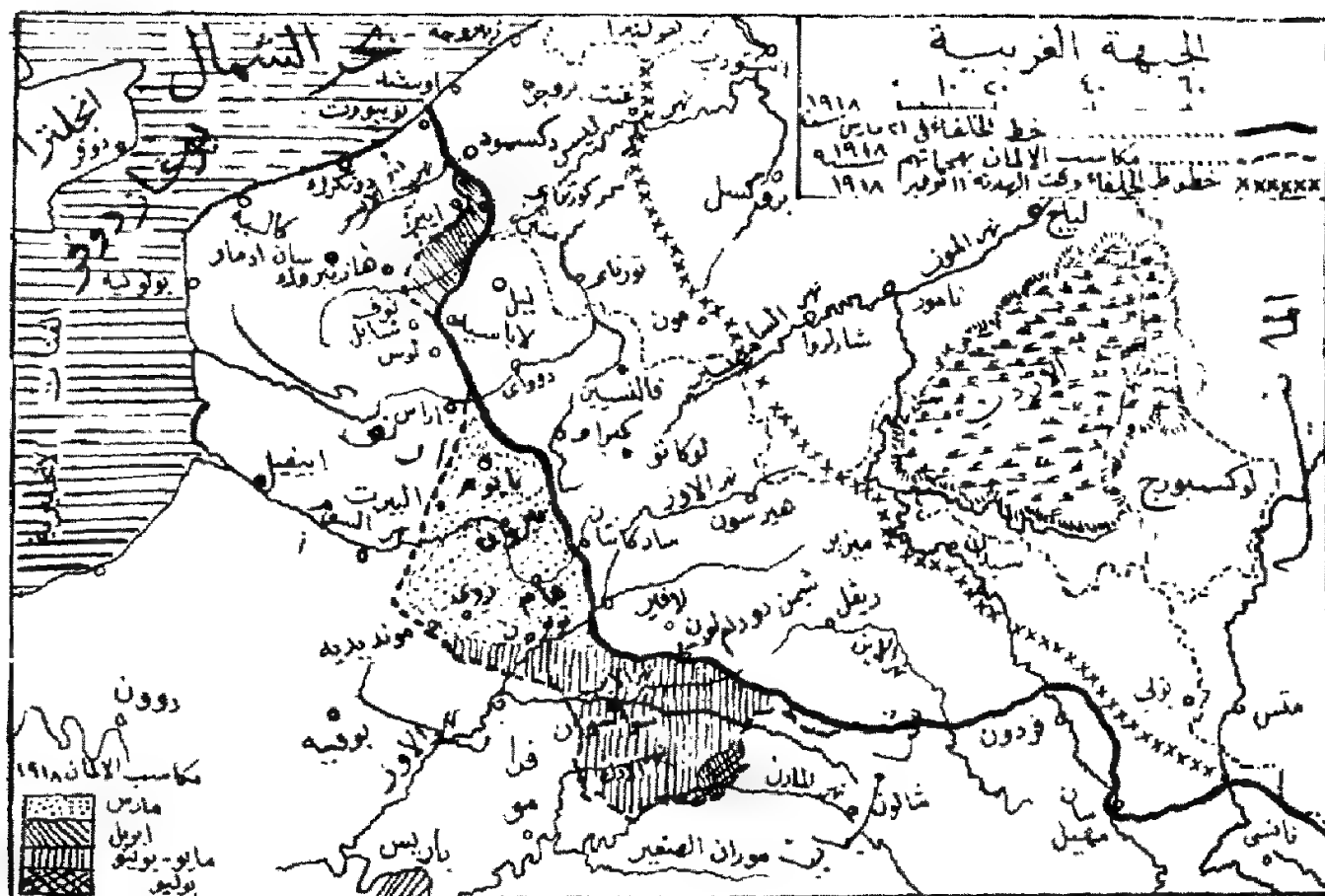
وفي ١٥ يولييه دفع "لودندورف" هجومه الجديد ولكن وقوع هذا الهجوم لم يكن سرا . تخاب شرقى "ريمز" بسبب ما لاقاه من الدفاع المرن . أما غربى "ريمز" فان نفوذ الألمان عبر نهر "المارن" زادهم توغلا في الحبال وتغلغلا فيها لدرجة أدت الى سقوطهم — لأن "فوش" وجه ضربة الى الجنب الآخر من زاوية "المارن" الخارجة استعد لها منذ مدة طويلة . وهنا قام "بتان" الذى كان يدير هذه العملية بادارة المفتاح الذى كان ينقص "لودندورف" . فاستخدم ككلا من الدبابات الخفيفة وجعلها في مقدمة هجمة مفاجئة على طريقة "كبراي" . فتمكن الألمان من ابقاء باب الزاوية الخارجة مفتوحا وقتا كافيا لسحب جنودهم وارجاعها الى مكان أمين ثم عدلوا خطهم فجعلوه مستقيما . ولكن جنودهم الاحتياطية نقصت فاضطر "لودندورف" في بادئ الأمر لارجاء حركاته التعرضية في "فلاندرز" ثم بعد ذلك تنحى عنها وتركها . فانتقلت القوة الانشائية الى جانب الحلفاء بصفة قطعية نهائية .

والضربة المضادة التى قام بها الحلفاء على نهر "المارن" تستدعى البحث والتمحيص . فان "بتان" كان طلب من فوش أن يجمع مجموعتين من الجنود الاحتياطية واحدة منها في "بوفيه" والأخرى في "ايريني" للقيام بضربة مضادة ضد جناح أى هجوم يقوم به "الألمان" وعلى أثره مباشرة . وكانت أولاهما تحت قيادة "مانين" فاستخدمت لاحتباط الهجوم الذى قام به الإلمان في ٩ يونيه ، ثم تحولت الى موقع على الوجهة الغربية لزاوية المارن الخارجة .

على أن "فوش" كان وضع خطة باستخدامها في حركات تعرضية مباشرة للزحف على مركز السكة الحديدية في "سواسون". وبينما هم يستعدون لذلك اذ بلغت مصلحة الاستعلام (المخابرات) أخبار أكيدة بأن الألمان على وشك أن يهجموا بالقرب من "ريمز". ولذلك صمم فوش على أن يسبقهم بضربة ينزلها بهم في ١٢ يونيو، لا أن يرد عليهم بها. غير أن "بتان" كان له رأى يخالف ذلك هو أن يدع الألمان يتقدمون ويوقعون أنفسهم في الشرك ثم يضربهم في مؤخرة جناحهم. ومن الغريب أن الجنود الفرنسية تصادف أن كانت على غير استعداد في يوم ١٢ يونيو وعلى ذلك نشبت المعركة بناء على فكرة "بتان" أكثر منها على فكرة "فوش". أكثر فقط لا بالكلية. لأن خطة "بتان" كانت أن يتخلى أولا عن موقعه الأمامي للهاجمين بأن يربط فيه مرابطة ضعيفة ثم يوقفهم أمام الموقف الخلفى الذى لم يمسه ضرر. وعندما يقوم بهجمات مضادة محلية حتى يمكن استدراج العدو الى اشراك جنوده الاحتياطية في القتال في الفتحات التى يوجدها هجومهم على كلا جانبي "ريمز". وأخيرا يدفع "مانين" الى الحركات التعرضية المضادة الحقيقية نحو الشرق على طول خط قاعدة زاوية "المارن" الخارجة الرئيسية. وبذا قد يتمكن من اغلاق الجزء الضيق الذى تنهى اليه الساحة الواسعة التى تكون القوات الألمانية الموجودة جنوب نهر "الين" محبوسة فيها.

ثم ان الحوادث اشتركت مع "فوش" في تعديل هذه الفكرة. فان الهجوم الألمانى شرق "ريمز" أحبطه الدفاع المرن — وهو صورة من صور الاقتراب التكتيكى غير المباشر. أما غربى "ريمز" فان القواد أصروا على التثبت بطريقة الدفاع العتيقة التى لا مرونة فيها وكانت النتيجة أن انكسر خطهم. ونفذ الألمان الى ما وراء نهر "المارن" واضطر "بتان" تلافيا للخطر لأن يستخدم القسم الأعظم من جنوده الاحتياطية التى كان أعدها للطور الثانى. ولكى يستعيز عنهم صمم على أن يأخذ من "مانين" جنودا تحل محلهم، وأجل ضربة "مانين" المضادة. مع أن فوش أمر بها وحدد لها يوم ١٨ أغسطس. فلما بلغ "فوش" ذلك ألغاه في الحال ومن ثم نشأت الضرورة للتخلى عن الطور الثانى وتمكنت الجنود الاحتياطية الألمانية من صد "مانين" وإبقاء الجزء الضيق مفتوحا. وأصبحت الضربة المضادة مجرد ضغط مباشر محض واقع من جنود آتية من جهات مختلفة متلاقية عند انهجوم، كما فعل "فالكنهاين" في بولندا في سنة ١٩١٥، فضغطت الألمان وأرجعتهم وأخرجتهم من كل تلك الساحة.

وكانت فكرة "فوش" الرئيسية منذ ذلك الحين المحافظة على القوة الانشائية وعدم اعطاء العدو فرصة للراحة بينما تتجمع جنود "فوش" الاحتياطية وتراكم. وأول خطوة خطاها كانت تحرير خطوطه الحديدية الجانبية بسلسلة من الحركات التعرضية المحلية. قام بأولها "هايج" في ٨ أغسطس أمام "أميان". ذلك أن الجيش الرابع الذى يقوده "رولنسون" ضوعف



عدده بتدبير يشف عن مهارة في الحذر والخدعة وتقدم للهجوم — مسبقا بـ ٤٥٠ دبابة — وفاجأ العدو مفاجأة ربما كانت في أولها أتم وأكمل مفاجأة وقعت في الحرب . فهي وإن كانت أوقفت سريعا — لأن اتجاه ضغطها كان سببا طبيعيا لا يقاها — إلا أن صدمتها الافتتاحية المفاجئة كانت كافية لزعة توازن القيادة العليا الألمانية من الوجهة المعنوية . ولما اقتنع "لودندورف" بأفلاس جنوده أدبيا أعلن أن الصلح لابد أن يسعى له بالمفاوضات . وفي نفس الوقت "لابد أن يكون الغرض من استراتيجيتنا شل ارادة العدو للحرب تدريجيا بانتهاج الدفاع الاستراتيجي" .

غير أن الحلفاء أوجدوا في نفس الوقت طريقة استراتيجية جديدة . فان "فوش" بث هذا الإيعاز لأول مرة بأن أمر بهجمات تقع على التوالي في نقط مختلفة . ثم ان "هايج" أكمل تطور هذه الطريقة بعدم اتفاه مع "فوش" في تعليماته التي أصدرها باستمرار الجيش الرابع في الضغط الجبهي (الأمامي) فلم يستأنف زحفه الا بعد أن ضرب كل من الجيشين الثالث والأول ضربته . ومنذ ذلك الحين أصبح تعرض الحلفاء عبارة عن سلسلة من الضربات السريعة في نقط مختلفة ، وان كان ذلك قاصرا على الدائرة التي يسيطر عليها كل من "هايج" و "بتان" . وكانت كل ضربة تنتهي بمجرد ما تزول قوتها الدافعة الأصلية . فكانت كل منها ترمى الى تمهيد السبيل للأخرى والكل قريين من بعضهم بعضا بالدرجة الكافية في الزمان والمكان ليكون لكل جيش رد فعل على الآخر . وهذه الوسيلة لاقى "لودندورف" عائقا يعوقه في تحويل جنوده الاحتياطية لنبادر بالاستعداد لتلق الضربات . ووضعت ضربة على ما تبقى من جنوده الاحتياطية أخذت تتصاعد ، كلفت خزينة الحلفاء كلفة اقتصادية . وهذه الطريقة وان لم تكن اقترابا غير مباشر في الحقيقة ، كانت على الأقل تظهر انها قريبة منه ، وان لم تسلك الخط التي لا ينتظره العدو فانها كانت تتجنب خط الانتظار الطبيعي . وان كانت لم تسلك خط أقل مقاومة ، فانها لم تستمر مطلقا على طول الخط الذي تزداد فيه المقاومة صلابة . فهي في الواقع صورة سلبية للاقتراب غير المباشر .

ونظرا للانحطاط الذي طرأ على القوات الألمانية من حيث القوة المعنوية والقوة العددية فان هذه الطريقة كانت كافية ، لأجل معلوم على أقل تقدير ، لضمان استمرار الزحف واضعاف مقاومة الألمان تدريجيا . ثم ان الأدلة الواضحة على هذا الانحطاط وما ترتب عليه من وثوق "هايج" من امكانه أن يكسر خط "هندنبورج" حيث كانت الجنود الاحتياطية الألمانية أقوى منها في أى مكان آخر جعل "فوش" يترك هذه الطريقة ويقوم في آخر سبته بمحركات عامة تقع في آن واحد .

وهذه الخطة كانت ترمى الى ضغط مباشر يأتى من جهات مختلفة على الزاوية الخارجة الكبيرة المكونة من الجبهة الألمانية في فرنسا بحيث تتلاقى الجيوش القائمة بها وتطبق على

العدو. وكان المأمول ان جناحى الحلفاء المؤاف احدهما من البريطانيين والآخر من الأميركيين حينما ينطبقان يفصلان قسما عظيما من الجيوش الألمانية الموجودة بالزاوية الخارجة عن بقية جيوشهم ويقطعان رجعتهم . وهذا الأمل كان أساسه أن ناحية ”الاردنز“ تكاد تكون سورا خلفيا لا يستطيع المرور منه وله منافذ ضيقة فى الأجانب . ويصح هنا أن يقال عرضا ان هذا الرأى فيما يختص ”بالاردنز“ لا بد أن يكون منشأه عدم معرفة ذلك الاقليم . لأن فيه طرقا جيدة وأغلب الأقليم ذاته جهات وعرة لا جبلية .

وهذه الخطة كانت فى الأصل بناء على اقتراح ”بيرشنج“ تشتمل على درجة معينة من الاقتراب غير المباشر . فان اقتراحه كان أن الجيش الأمريكى يستغل نجاحه المحلى بازالة زاوية ”سان ميهيل“ الخارجة بزحفه نحو ”برى“ والمرور على ”متس“ قصد التوصل الى اعتراض المواصلات الألمانية فى ”اللورين“ وتهديد خط رجعتهم الغربى الى نهر ”الرين“ . غير أن ”هايج“ عارض فى هذه الحركة بحجة أنها مشتتة عن هجمات الحلفاء الأخرى بدلا من أن تكون متجمعة عليها . وبناء على ذلك غير ”فوش“ خطته مهيلا اقتراح ”بيرشنج“ وعلى ذلك اضطر الجيش الأمريكى لأن يحول مجهوده نحو الغرب ويستعد للهجوم على قطاع ”الموز“ و”الأرجون“ دون أن يترك له وقت للاستعداد أكثر من أسبوع واحد . وهنا كانت نتيجة الضغط المتواصل على طول الخط الذى تزداد فيه المقاومة صلابة ، عظم التكاليف والفوضى . فضلا عن أنه قد تبين أن هذه الحركة لم تكن ضرورية لتسهيل زحف ”هايج“ من خلال خط ”هندنبورج“ فان مجرى الحوادث كان فيه ما يدل على أن الاقتراب المباشر اذا توافر معه تفوق عظيم فى النيران ، كانت قوة العدو المعنوية منحطة فانه يستطيع النفوذ الى موقع العدو ولكنه لا يستطيع تشتيته .

وفى ١١ نوفمبر وهو تاريخ الهدنة ، كانت القوات الألمانية ، بتضحية مخافرها الخلفية ، قد خرجت بسلام من الزاوية الخارجة ورجعت الى خط مستقيم أقصر من خطها الأصيل وكان زحف الحلفاء قد توقف فعلا وكان توقعه بسبب صعوبات اعاشة الجنود وتموينها فى الجهات التى ألتفها العدو أكثر مما كان بسبب المقاومة الألمانية . ففى هذه الظروف كان الاقتراب المباشر مساعدا للألمان على التسلل أكثر مما كان فى الامكان تعقبهم .

ولحسن الحظ لم يكن للطور الأخير من الحركات التعرضية العسكرية أهمية تذكر . فان الضربة الأدبية التى أنزلتها المفاجأة الأصلية فى ٨ أغسطس بالقيادة الألمانية أكملها اقتراب غير مباشر فى مسرح آخر بعيد كل البعد وجعلها ضربة مميتة . وتلك هى الحركات التعرضية التى قام بها الحلفاء فى جبهة سلاينيك . فلما كانت موجهة الى قطاع أراضيه وعرة بدرجة أن كان المدافعون قليلي العدد نفذت منه بسرعة . وبمجرد ما حصل ذلك صارت البلاد الجبلية الصعبة عائقا يموق المدانعين عن تحويل جنودهم الاحتياطية تحويلا جانبيا لعاقة سير الزحف

على خط أقل مقاومة . ولما انشطر جيش البلغار بين الذين ملوا الحرب الى شطرين تمنسوا عقد الهدنة . وهذا العمل المجيد لم يهدم أول دعامة لدول الوسط فحسب ، بل فتح أيضا الطريق للزحف على مؤخرة النمسا . ثم التهديد زاد قربا عند ما نزلت الحركات التعرضية الإيطالية على الجبهة النمساوية التي كانت تزعمت أدبيا واضمحلت ماديا ونفذت منها . إذ يجرد تسليم النمسا على أثر ذلك أصبحت أراضيها وسككها الحديدية تحت تصرف الحلفاء بصفتها قاعدة للعمليات ضد الباب الخلفى لألمانيا . وقد قال الجنرال فون "غالوينس" لكبير الوزراء في شهر سبتمبر أنه لو حصل ذلك ، ولم يكن إذ ذاك قد تحقق ، فإنه يكون "حاسما" .

وهذا التهديد مع التأثير الأدبي الذي أحدثه الحصر البحري — ذلك الاقتراب غير المباشر الآخر القائم على الاستراتيجية العظمى — كان لها وقع شديد على شعب جائع فاقد الأمل ، دفع الحكومة الألمانية في الأيام الأخيرة نحو التسليم إذ كانا بمثابة مهمازين ينخسان في جنبي جواد جامع . على أن الذي جعل الجواد يجمع هو فرقة السوط . وفرقة السوط هي انهيار بلغاريا وقد عززتها أول الأخبار المنبهة بتجديد الهجوم الجبهي في فرنسا .

فأسقط في يد القيادة العليا — بضع أيام فقط . فكانت كافية . وفات أوان الاستفاقة . وفي ٢٩ سبتمبر عجلوا بقرار طلب الهدنة بحجة أن انهيار الجبهة البلغارية قد قلب الأوضاع رأسا على عقب "فان الجنود المقرر ارسالها الى الجبهة الغربية أرسلت الى بلغاريا بحكم الضرورة" وأن ذلك قد غير الموقف "تغيرا كليا" بالنسبة للهجمات التي كانت تقع آنئذ على الجبهة الغربية . لأنها "وان كانت قد صددت حتى الآن الا أنه لا بد أن يحسب حسابها" .

وهذه العبارة تشير الى التعرض العام الذي قام به "فوش" وكان الهجوم على جبهة "الموز" و"الأرجون" قد بدأ في ٢٦ سبتمبر ولكنه في ٢٨ منه كان قد توقف فعلا . وابتدأ هجوم فرنسي ، بلجيكي ، بريطاني في فلاندرز في ٢٨ ولكنه وان كان مقلقا كان يظهر عليه أنه ليس مهددا تهديدا حقيقيا . غير أن في يوم ٢٩ كانت الضربة الرئيسية التي قام بها "هايج" تنزل بخط "هندنبورج" وكانت أخبارها الأولى مقلقة .

وفي ذلك الوقت العصيب استدعى البرنس "ماكس" ليكون كبير الوزراء ليفاوض في أمر الصلح بحجة ما له من سمعة الاعتدال والشرف بين الدول . ولكن يساوم مساومة مثمرة دون الاعتراف بالهزيمة كان يحتاج الى فرصة يتنفس فيها قدرها "عشرة" ، أو ثمانية أيام ، بل وحتى أربعة أيام ، قبل أن يعرض الطالب على العدو" وطلب هذه المهلة . غير أن "هندنبورج" لم يزد على أن أجاب بقوله "ان وخامة الموقف العسكري لا تسمح بالتأخير" وأصر على "عرض طلب الصلح على أعدائنا في الحال" .

وعلى ذلك عرض على الرئيس "ولسون" في ٣ أكتوبر طلب لعقد هدنة في الحال . وكان هذا الطلب اعترافا صريحا للعالم بالهزيمة . وحتى قبل ذلك — في أول أكتوبر — كانت القيادة العليا قد نخرت في أساس جبهتها الوطنية بأن أعلنت هذه الفكرة الى قادة الأحزاب السياسية في اجتماع عقده .

وهذا التنوير الفجائي أعمى عيون الرجال الذين قضوا هذا الوقت الطويل وهم في ظلام حالك . واستمدت منه عوامل الشقاق والسلام حافزا قويا يدفعها .

وفي ظرف بضعة أيام ازداد سرور القيادة العليا ، بل وتفاءلت خيرا ، حينما رأت أن النفوذ الى خط "هندنبورج" لم يعقبه اختراق فعلى لكل جبهة القتال والنفوذ منها . ثم جاءت أخبار أخرى مشجعة وهي أن قوة هجمات الحلفاء أخذت في التراجع ، وخصوصا في انتهاز الفرص . أما "لودندورف" فكان ما يزال يرغب في الهدنة . ولكن لا شيء الا ليربح جنوده قبل استئناف المقاومة ولكن يضمن سلامة انسحابهم الى خط دفاعي على الحدود أقصر من خطهم الحالي . وفي ١٧ أكتوبر بلغت به الحالة أن يشعر بأنه يستطيع ذلك حتى من غير استراحة . وكان الباعث له على هذا الشعور طروء شيء من التفتيح والتعديل على فكره في الحالة الراهنة . لا لأن الموقف قد تغير . فالموقف لم يكن في حالة سيئة في وقت ما مثل ما كان حينما وصفه في ٢٩ سبتمبر . غير أن فكره الأول كان الآن قد سرى بين الدوائر السياسية والجمهور في ألمانيا — وانشر كما تنتشر تموجات الماء حينما يلقي فيه حجر . وشرعت "الجبهة الوطنية" تنهار بعد ذلك ولكن انهيارها كان أسرع من انهيار جبهة المعارك .

وفي ٢٣ أكتوبر أجاب الرئيس ولسون على مطالب الألمان بمذكرة طلب فيها ما هو بمثابة التسليم بغير قيد ولا شرط . أما "لودندورف" فانه أراد أن يستمر في النضال بأمل أن الدفاع عن الحدود الألمانية دفاعا مثمرا قد يثبط من عزيمية الحلفاء . ولكن الموقف كان قد نخرج عن حدود سيطرته لأن قوة ارادة الأمة كانت انهدمت وعاب الناس عليه نصيحته . وفي ٢٦ أكتوبر اضطر الى اعتقال الخدمة .

أما كبير الوزراء فقد بقى في سجن من النوم لمدة ٣٦ ساعة من تأثير جرعة منومة تجاوزت الحد . ولما عاد الى ديوانه في صباح ٣ نوفمبر لم تكن تركيا فقط قد أسلمت ، بل النمسا أيضا . فأصبح الباب الخلفي مفتوحا . وفي اليوم التالي قامت الثورة في ألمانيا وانتشرت في البلاد بسرعة ، وكان يؤجج نارها ابطاء مفاوضات الصلح بسبب امتناع القيصر عن النزول عن العرش . وصارت الفرصة الوحيدة في الاتفاق مع الثوار . وفي ٩ نوفمبر تنحى الأمير "ماكس" عن أعماله "الإبريت" الاشتراكي . وكان اذ ذاك مفوضو الألمان يتفاوضون مع "فوش" لعقد الهدنة وفي الساعة الخامسة من صباح ١١ نوفمبر أمضوا الشروط ، وفي الساعة الحادية عشر صباحا وضعت الحرب أوزارها .

أما نتيجة الحرب فقدت فيها نهائيا في ٢٩ سبتمبر، في رأى القيادة الألمانية . فقد انكسر كل من "لودندورف" وزملاؤه ، وكان لانكسارهم دوى تجاوزت أصداءه جميع أنحاء ألمانيا . وهذا الدوى سرى في البلاد لايحقه شيء ولا يوقفه . فالقيادة قد تسترد هدوء أعصابها واعتدالها . والموقف العسكرى ذاته قد يتحسن . ولكن التأثير الأدبى قد أصبح حاسما كما في أى حرب وقعت .

فمن بين الأسباب الأساسية لتسليم ألمانيا يرى ، حينما تتجلى السحب التى كانت مفيضة على الحرب وينكشف الجو في هذه الأيام التى أعقبتها ويظهر صفاؤه للعيان ، ان الحصر البحرى كان له شأن أعظم من غيره بكثير .

ففى وجود الحصر البحرى أصدق رد على التساؤل عما اذا لم يكن فى امكان الجيوش الألمانية الثبات والصمود فى حدود بلادهم لولا نشوب الثورة فيها . لأنه حتى لو أن الشعب الألمانى نشط لبذل أسنى مجهود له فى سبيل الدفاع عن أراضيه ، واستطاع أن يوقف زحف جيوش الحلفاء فان ذلك ما كان ليجدى شيئا سوى تأجيل النتيجة الأخيرة — بسبب تضيق القوة البحرية التى هى سلاح بريطانيا التاريخى .

على أن الفضل الأول فى تعجيل التسليم والحيولة دون استمرار الحرب فى سنة ١٩١٩ يرجع للأعمال العسكرية . وهذا الرأى ليس من الضرورى ، ولا من الطبيعى ، أن يفهم منه أن فى اللحظة التى عقدت فيها الهدنة كانت قوة ألمانيا العسكرية قد كسرت ، أو أن جيوشها قهرت قهرا حاسما . ولا أن منحة الهدنة كانت منحة خاطئة . بل ان تاريخ « المائة يوم » الأخيرة اذا غر بل غشه من سمينه فانه يؤكد الدرس العريق فى القدم ، وهو أن الغاية الحقيقية المقصودة من الحرب هى عقلية العاهلين المتخاصمين لا أجسام جنودهما . وأن الموازنة بين النصر والهزيمة تدور على ما يتأثر به العقل ، ولا تدور على الضربات المادية الا بصفة غير مباشرة . فان الذى هز أعصاب "لودندورف" ، أكثر من خسائره فى الأسرى والمدافع والأراضى ، انما هى صدمة المفاجأة وشعوره بعجزه عن مقابلة الحركات الاستراتيجية المحتملة الوقوع بما ينقضها ويبطل عملها .